

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة العربية و آدابها

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب

الموضوع

أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية
من محمد التأسيس إلى محمد التعدادية.

إشرافه:

أ.د. محمد عباس

إعداد الطالبة:

حياة عمارة

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د. محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. محمد عباس	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د. زين الدين مختاري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
أ.د. فادحة عثامنة	أستاذ التعليم العالي	جامعة بلعباس	عضوا
أ.د. كرومي لعسن	أستاذ التعليم العالي	جامعة بشار	عضوا
د. محمد سعيدي	أستاذ محاضر	جامعة مستغانم	عضوا

السنة الجامعية: 1435هـ - 1434هـ / 2013م - 2014م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى قرّة عيني، والدي الغالية، أمدّ الله في عمرها
إلى روح والدي الطاهرة
إلى زوجي وأبنائي، إلى إخوتي و أخواتي

حقائق

الحمد لله ربّ العالمين و الصلّاة و السلام على رسوله الأمين، أمّا بعد

فتجمع الدّراسات اللغوية و المعجمية بمختلف اتّجاهاتها على أنّ تأويل مصطلح الإصلاح معناه تقويم الشيء و إزالة الفساد عنه، و مادّة إصلاح مشتقة من الفعل أَصْلَحَ وَ صَلَحَ وَ صَلَحَ، و تدلّ على تغيير حالة الفساد إلى الحالة الضدّية و هي الإصلاح.

و الإصلاح بمفهومه الواسع هو ما يقع في تغيير الأوضاع السّياسية أو الاجتماعية أو الدّينية أو الفكرية و الثّقافية أو تغييرها جميعها في آن واحد. و قد تبنّت الحركة الإصلاحية الجزائرية هذا المنهج منذ نشأتها مطلع القرن العشرين حيث عملت على نقد الأوضاع السّائدة في المجتمع الجزائري القابع تحت نير الاستعمار بعد مدّة فاقت قرنا من الزمن، و بحثت عن الحلول النّاجعة لها بغية تحرير الشّعب الجزائري سياسيا و اجتماعيا و دينيا و فكريا. و لاشكّ أنّ الحركة الإصلاحية - و هي تضطلع بهذا العمل الجبار - كانت بحاجة إلى معين يعينها و يشدّ أزرها من وسائل المواجهة، و قد وجدت في الصّحافة هذا المعين لاسيما و قد تبنّته روّادها إلى الدّور الخطير الذي تؤدّيه هذه الأخيرة في نشر الدّعوة الإصلاحية، و التعريف بآراء الحركة و منهجها و أهدافها.

و قد كان للصّحافة - التي تعدّ من أبرز عناصر النّهضة العربيّة الحديثة في الجزائر - كبير الأثر في النّهضة الأدبية، فقد وجد الأدب على صفحاتها متنفسا لتجديد

روحه، و إضفاء الحيوية على معالنه التي درستها يد الزمان في عصر الضعف و أقيرها المستعمر في أثناء حملاته العشواء على كل ما يمثل الهوية الجزائرية و مقوماتها.

و الحديث عن الحركة الإصلاحية يوجب علينا الوقوف عند جمعية مثلت الحركة أحسن تمثيل، و نالت ذكرا موفورا في التاريخ الحديث و المعاصر، تلكم هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ولجت عالم الصحافة و هي تشعر بعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقها. و قد سخرت لأجل تحقيق أهدافها عديد المجالات و الجرائد، و ما ذلك الكم الهائل و المتميز من الصحف التي أصدرها علماء الجمعية قبل تأسيسها و بعده كالمنتقد، و الصراط و السنة و الإصلاح و الشهاب و البصائر... إلا دليل على النشاط الفكري الذي كان يمتاز به العلماء، و دليل على أهمية الصحافة في نظرهم، و قد اتخذوها وسيلة من أهم وسائل التربية و التعليم و سبيلا لتصحيح عقائد الناس، و نشر الفضيلة و محاربة الرذيلة، و تبصير العقول، على الرغم من التّضحيات المادية الجسيمة التي بذلها أصحابها، و ملاحقة القوانين الاستثنائية لهم و تعرضهم للمضايقة و الاعتقال، ذلك لأنهم يعتبرونها السبيل الأمثل في بعث الوعي الاجتماعي و السياسي و العقدي، و توجيه الأمة في عودتها إلى طبيعة أصالتها و ربطها بدينها الصحيح، و إيقاظ الهمم و تحفيز النفوس على رفض المستعمر الفرنسي و محاربه.

و تعدّ البصائر من أهمّ الجرائد التي أصدرتها الجمعية بعد جريدة الشهاب. وهي و إن كانت تأسّست لتكون لسان حال الجمعية و تدافع عن قضايا الإسلام و العروبة إلا أنّها طرقت جميع القضايا التي تهتمّ الأمة الجزائرية و العالمين الإسلامي و العربي، إن في سلسلتها الأولى، قبل الحرب العالمية الثانية، أو في سلسلتها الثانية، بعدها. و قد استطاعت البصائر أن تخطو خطوات عملاقة مكنتها من تحقيق الإصلاح في شتى المجالات الاجتماعية و السياسية و الفكرية و حتّى الأدبية. و من ثمّ كان اهتمام البحث بهذا الصّرح الإعلامي الكبير لاستجلاء آثاره في الميادين المذكورة و لاسيما المجال الأدبي لأنّه يعدّ بحقّ من أبرز عوامل النهضة الأدبية في الجزائر. و قد حاولت أن أفق على جنبات هذه الجريدة و أرصد أعمدتها بالقراءة لأستطلع نصوصها و موضوعاتها ثمّ أجمع عصارتها في دراسة واحدة سميتها "أدب الصحافة الإصلاحية الجزائرية من عهد التأسيس إلى عهد التعدّدية." و تسعى هذه الدراسة في المقام الأوّل إلى إبراز الدّور الخطير الذي اضطلعت به الصحافة الإصلاحية في توعية الشّعب و تحفيزه على الذود عن حقوقه. ثمّ إنّنا نروم في المقام الثّاني مناقشة إشكالية تصنيف مقالات الجريدة في سؤال محدد و هو: هل لنا أن ندرج هذه المقالات في حقول المقال الصّحفي أو المقال الأدبي؟ و عليه بادرنا بدراسة نماذج أدبية وردت في البصائر و استطاعت أن تمثّل بحقّ مرحلة النضج في استكمال أدوات الكتابة و سموها الفني.

و قد خصّصنا دراستنا لأدب الصحافة الإصلاحية، و جعلنا منه مدار رسالتنا، لاعتبارات عدّة، لعلّ أولها و أهمّها أنّ بداية النهضة الأدبية في الجزائر كانت على صفحات تلك الصحف، ثمّ إنّ أدباءنا و نقادنا كثيرا ما اهتمّوا بالتّصوُّص الأدبية من ناحية، و الصحافة الجزائرية من ناحية ثانية، لكنّهم قلّموا جمعوا بين الأدب و الصحافة في دراسة واحدة من شأنها أن تبرز العلاقة الوطيدة بين الصحافة و النهضة الأدبية الجزائرية، و مدى إسهام الأولى في انتشار الثانية. و تظنّ المؤلفات التي تجمع بينهما قليلة، و مع ذلك لا ننكر أنّنا وجدنا في بعض منها ما انتفعنا به و ذلك لنا الصّعب، كمؤلّف الدكتور عبد الملك مرتاض: "فنون النشر في الجزائر. 1931-1945." و "نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر. 1925-1945." و قد أكّد في كليهما على دور الصحافة في النهضة الأدبية، كما أشار إلى المراحل التي مرّ عبرها الأدب الجزائري، و الأشواط التي قطعها، مبرزاً الأنواع الأدبية التي شاعت - القديمة منها و المستحدثة - و التي كان للصحافة الوطنية الفضل الكبير في شيوعها. ذلك لأنّ غالبية أدباء تلك الفترة كانوا من رجال الإصلاح، كما أنّ جلّهم كانوا يعملون في ميدان الصحافة و يمارسونها.

كما تناول الدكتور عبد الله ركيبي الموضوع ذاته في كتابه "تطوُّر النشر الجزائري"، إذ تحدّث عن المراحل الأدبية التي عاشتها الساحة الأدبية في الجزائر، و أشار إلى العلاقة بين مختلف الأنواع الأدبية و الصحافة الإصلاحية. هذه الأخيرة التي سخّرت

صفحاتها لخدمة المجتمع الجزائري موظفة الأدب وسيلة اتصال بينها و بين الجماهير الجزائرية لتحقيق غاياتها.

و قد وجدنا في كتاب أستاذنا الدكتور محمد عباس "البشير الإبراهيمي أديبا" خير معين، ذلك لأنه ركز على الناحية الأدبية من حياة الشيخ الإبراهيمي، و بيّن كيف استطاعت الكلمة الأدبية أن تخدم المجتمع الجزائري، و كيف نجح المفكر و المصلح و الأديب، و هو الشيخ الإبراهيمي أن يجمع بين الإيقاع الجمالي و القيمة التّفعية من منظور المقال الصحفي.

و كان اعتمادنا بشكل كبير على جريدة "البصائر" التي كانت بمثابة المادة الخام لهذه الرسالة، فمنها استقينا الأنواع الأدبية، و عليها عوّلنا. و كذا "عيون البصائر" و هو كتاب جمعت فيه افتتاحيات جريدة "البصائر" بقلم الشيخ الإبراهيمي و "آثار الشيخ الإبراهيمي" للشيخ الإبراهيمي باعتباره أبرز الكتاب و أغزرهم إنتاجا في تلك الحقبة الزمنية.

أمّا المنهج الذي اخترناه لمعالجة الموضوع، فهو المنهج الوصفي التاريخي، نظرا لملاءمته في جمع النصوص و تتبّع تطوّر مضامينها، كما استعنا بالمنهج الفني للكشف عن الظواهر الفنيّة فيها.

و قد ارتأينا تقسيم بحثنا على مدخل و أربعة فصول بعد هذه المقدمة، تتبعها خاتمة و قائمة للمصادر و المراجع و أخرى للموضوعات.

أمّا المدخل فقد كان بمثابة العرض التاريخي لنشأة الصحافة في العالم العربي و علاقة الصحافة بالإصلاح و زعمائه الذين اتخذوا منها فضاء للتعبير عن آرائهم و الإفصاح عن أهدافهم. و كان الفصل الأوّل، في شقّه الأوّل، عبارة عن إطلالة تاريخية على الحركة الإصلاحية في الجزائر و بداياتها الأولى و أبرز روّادها و كذا أهدافها و منهجها و وسائل التعبير لديها قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م. أمّا الشقّ الثاني منه، فخصّصناه لنشأة الجمعية، إذ تحدّثنا عن نشأتها و أشرنا إلى أعلامها و زعمائها، و ما كان لهم من فضل و يد السبق في ميدان الإصلاح. و اختصّ الفصل الثاني بدراسة الأبعاد الموضوعية لأدب الصحافة الإصلاحية، مركّزا على أهداف الجمعية التي كانت تعمل على تلافي خطر الاستلاب للشخصية الجزائرية و القضاء على الرّوح الوطنية، و بعث الرّوح الوطنية لدى أبناء الجزائر، فهي عندما تستنهضهم فبصفتهم أبناء الضاد و عندما تستنفرهم فلأنّ الإسلام يأبى الذلّ و الضّيم، و عندما تدعوهم للثورة فلتحرير العقيدة... و هكذا تتعلّى موضوعات هذا النوع من الصحافة التي لم تترك شاردة و لا واردة إلّا و أشارت إليها و بادرت إلى تحليلها و العمل على تقويمها بغية تحرير الشعب الجزائري دينيا و اجتماعيا و سياسيا و فكريا.

و أوردنا في الفصل الثالث نماذج عن بعض الأنواع الأدبية التي ضمّتها البصائر من مقال بأنواعه لدى الشيخ البشير الإبراهيمي، و شعر محمد العيد آل خليفة، و مقال قصصي لدى أحمد رضا حوحو. و قد حاولنا استجلاء مختلف الموضوعات التي طرقتها هذه الأنواع بداية بالنّاحية السّياسية و مروراً بالنّاحية الاجتماعية و وصولاً إلى النّاحية الفكرية. و كان لا بدّ و نحن نتحدّث عن أدب الصّحافة الإصلاحية أن نفرّد فصلاً رابعاً للحديث عن الخصائص الفنّية لتلك النّماذج لنستشفّ ميزاتهما، لاسيما و أنّ الغالبية القصوى من أصحابهما هم علماء في الدّين و أئمّة و خطباء و لذلك ظلّ طابع الوعظ و الإرشاد يغلب على أسلوبهم أحياناً. و قد امتازت لغتهم بالجزالة و الفصاحة بالنّظر لما نهلوه من الموروث الأدبي القديم إيماناً منهم أنّ رقيّ الأدب الحديث لا يتمّ إلاّ بمحاكاة الأساليب العربية البليغة. و ذيلنا البحث بخاتمة نشير فيها إلى الإصلاح الذي يمثّل نقطة انطلاق الحركة الإصلاحية و فاتحة أعمالها و إلى منهجها الذي لا يكتفي بإنتاج الأفكار و إنّما يرصدها بالتّوجيه المنظم.

و إذا كان من العادة أن يذكر الباحثون الصّعوبات التي تعترض طريقتهم أثناء عملية البحث، فإنّه لا يكاد يخلو بحث أو إنجاز من متاعب و مصاعب، و إنّما متعة البحث تكمن في محاولة تحديّ هذه الصّعوبات و تجاوزها. و لعلّ أبرز تلك الصّعوبات يتمثّل في جمع المادّة المتناثرة في الصحف الوطنية، و بعض الكتب التي لم

يكن من السهل الحصول عليها. و بفضل من الله تجاوزت هذه الصّعوبات الّتي أعانني على تذليلها أستاذي المشرف الدكتور محمّد عباس لما قدّمه لي من نصّح و توجيه و قراءة و تصحيح منذ رعايته لي في رسالة الماجستير: "الاتّجاه الإصلاحي في شعر محمد العيد آل خليفة." إلى هذه الرسالة و ما أفادني به من تجرّبه و خبرته و سعة صدره و قد علّمني أنّ " القراءة فهم و إدراك و وعي." فله منّي كلّ الشكر و التقدير و أسأل الله له بالخير دوما، كما لا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الأفاضل، أعضاء اللجنة المناقشة، الذين تجشّموا عناء قراءة هذا البحث و تقويمه. و على الله قصد السبيل.

تلمسان في: 18 رجب 1435هـ / 18 ماي 2014 م

حياة عمارة. جامعة تلمسان.

مدخل

تاريخ الصحافة

العربية

تعدّ الصّحافة -السّلطة الرّابعة كما ترد على ألسنة رجال الصحافة- من أبرز عوامل النهضة العربية الحديثة، فقد كان ظهورها في القرن التاسع عشر مؤشّرا على نماء الوعي لدى رجال الفكر الذين سعوا إلى الدّفاع عن قضاياهم و المطالبة بحقوقهم. و هي أحد الرّوافد الأساسية في تزويد الجماهير العربية و المسلمة بالثقافة و المعرفة الّتي عن طريقها يستطيع القارئ أن يتعرّف على أخبار و أحوال العالم. و الصّحافة لغة:

– الصّحافة مشتقة من مادّة "صحيفة". بمعنى الورقة الّتي كتب عليها و الجمع صحف و صحائف.

– قال الجوهري⁽¹⁾: الصّحيفة هي الكتاب.

و في قاموس "محيط المحيط"⁽²⁾: الصّحيفة قرطاس مكتوب جمعه صحائف و صحف و تطلق أيضا في العرف على وجه أو ورقة من الكتاب.

– و جاء في متن اللغة⁽³⁾ الصّحافة: حرفة نشر الصّحف و عملها.

– و عرّف المعجم الوسيط الصّحافة (بكسر الصّاد) بأنّها مهنة من يجمع الأخبار و الآراء و ينشرها في صحيفة و قد استعملت الصّحيفة قديما في معنى كلّ ما فيه خبر أو إعلان أو معلومات... مثال ذلك الصّحيفة الّتي

¹ – أبو نصر الجوهري- تاج اللغة و صحاح العربية- باب الفاء- فصل الصاد- بيروت- دار العلم للملايين- 1979م- ط2- ج4- ص1384.

² – بطرس البستاني- قاموس محيط المحيط - مكتبة لبنان.3.

³ – أحمد رضا- متن اللغة- بيروت- دار مكتبة الحياة- 1959- المجلد الثالث- ص224 .

علقت على جدار الكعبة تنصّ على مقاطعة الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
و سَلَّمَ - و من أتبعه.

و في القرآن الكريم وردت دالة على ما كان ينزل على الأنبياء و المرسلين من أخبار
الأمم و من الشرائع السماوية: " إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
وَ مُوسَى. "(1)

"رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً." (2)

قال الأزهري⁽³⁾: و المصحف، الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين، كأنه أصحف.

و الكلام المصحّف: هو الكلام المحرّف و المختلف عن الحقيقة. و قد ورد في
"قاموس محيط المحيط" أن التصحيف: قراءة الشيء على خلاف ما أراد كاتبه أو
على غير ما اصطلحوا عليه.

و في "المصباح المنير"⁽⁴⁾: التصحيف تغيير اللفظ حتّى يتغيّر المعنى المراد من الموضوع
و أصله الخطأ. يقال صحّفه فتصحّف أي غيرّه فتغيّر حتّى التبس.

و قد ذهب فيليب دي طرازي⁽⁵⁾ إلى أن أوّل من استعمل كلمة الصحافة بمعناها
الحالي هو الشيخ نجيب الحدّاد منشئ جريدة "لسان العرب" بالإسكندرية. و قد

¹ - سورة الأعلى-آية 18-19.

² - سورة البينة-آية 2.

³ - أبو منصور الأزهري- تهذيب اللغة- باب الصاد- ص 499.

⁴ - أحمد بن محمد الفيومي- المصباح المنير- مكتبة لبنان- 1990- ص 332.

⁵ - فيليب دي طرازي- تاريخ الصحافة- بيروت- المطبعة الأدبية- 1913- ج 1- ص 5

عرّف الصحافة بأنّها صناعة الصّحف. و الصّحف: جمع صحيفة و هي قرطاس مكتوب. و الصحفيين: القوم الذين ينتسبون إليها و يعملون فيها.

أما اصطلاحاً: فالصحافة وسيلة نقل الأخبار و المعلومات و الحقائق و عرضها على الناس وفق ضوابط و قواعد أخلاقية و وظائف إنسانية شريفة...⁽¹⁾ فالصحافة في معناها المبسّط هي رواية الأخبار و عرضها على القراء. و الصحيفة مجموعة أوراق مطبوعة يومية أو أسبوعياً أو شهرياً، تحمل الدّين أو الأخبار أو الأدب أو العلم أو الاقتصاد... و هي ملخّص الأُمَّة التي تصدر فيها.⁽²⁾ و "الصحافة جزء من الحياة اليومية للقارئ العادي في عصرنا، و هي في الوقت نفسه جزء من الاهتمام اليومي لقادة الشّعوب و حكّامها. فمن خلالها يرى الناس صورة للعمل الوطني بصفة عامّة، و من خلالها يرى القادة و الحكّام صورة الأمان الوطنيّة و اتّجاهان الرّأي العام..."⁽³⁾ و إذا كانت الصحافة وسيلة لنشر الأخبار و الحوادث و المعلومات بين طبقات الناس، فيمكننا القول إنّ العرب و منذ العصر الجاهلي قد عرفوا هذا الفنّ بجميع عناصره، و كان تاريخهم حافلاً بتسجيل الوقائع التاريخية من غزوات و حروب و رحلات و أخبار الحكّام، فقد كانت قصائدهم تسجّل أخبارهم

¹ - ينظر فؤاد توفيق العاني-الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة-الرياض-مؤسسة الرسالة-1993-ص55.

² - ينظر المرجع نفسه-ص50.

³ - محمّد سيّد محمّد-الصحافة بين التاريخ و الأدب-القاهرة-دار الفكر العربي-ط1-1985م-ص3.

و تنقلاتهم و حروبهم، وكان الشّاعر يقوم مقام الصّحيفة في عصرنا الحالي، فهو التّاطق بلسان القبيلة و المعبر عن مشاعرها و أهدافها و هو المنافح عنها في أيام الحروب، و المصور لأخلاقها و مكانتها بين القبائل الأخرى. و ما أسواق "عكاظ" و "المجاز" و "جمنة" و "دومة"... إلّا لون من ألوان العمل الصّحفي في العصور القديمة.⁽¹⁾

و إلى جانب الشّاعر، عرف العرب قبل الإسلام و بعده ما يسمّى بـ "الرّاوي" الذي يتولّى مهمّة نقل أخبار الأوّلين و روايتها، وكان الرواة في بداية الأمر مجرد رسل يرسلهم رئيس القبيلة لتبليغ أمره إلى أفراد القبيلة أو نقل أخبار من قبيلته لأخرى أو إبلاغ أمر خطير إمّا شفويّاً أو كتابياً، ثمّ تطوّرت مهنة هؤلاء الرّسل فأصبحوا يسمّون "رواة" يجوبون الأقطار و يروون الأخبار والأحاديث و الأشعار إلى جانب نقل البلاغات و الحوادث.⁽²⁾ و بهذا يمكننا اعتبار الرواة صحافيين استطاعوا نقل صورة تقريبية عن الماضي.

¹ - بلغ عدد الأسواق الموسمية قبل الإسلام أكثر من عشرين سوقاً، أهمها: عكاظ، و ذو المجاز، و جمنة و دومة الجندل، و عدن، و حضرموت، و صنعاء، و مكة، و هجر، و أذرعات، و بصرى. إلّا أنّ أعظمها سوق عكاظ. و موقعها في واد بين مكة والطائف، إذ كانت المعرض العربيّ العام قبل الإسلام، و المجمع الأدبيّ اللّغوي الرّسميّ، لها محكمون تضرب لهم القباب، فيعرض شعراء كلّ قبيلة عليهم شعرهم و أدبهم فما استجادوه فهو الجيّد، و ما استهجنوه فهو الرّائف. -عثمان حافظ - تطوّر الصّحافة في المملكة العربيّة السّعودية - جدّة - شركة المدينة للطباعة و التّشر - 1398 - ص 8.

² - ينظر عبد اللطيف حمزة - الإعلام في صدر الإسلام - القاهرة - دار الفكر العربي - 1978 - ط 2 - ص 26.

و لعلّ المؤلّفات الأدبية الّتي شاعت في العصور الذهبية الّتي أعقبت ظهور الإسلام و الّتي كانت تحمل في طيّاتها الأخبار و التّراجم تعدّ نوعاً من الصّحف، فقد أكّد الدكتور عبد اللّطيف حمزة أنّ الجاحظ يعدّ "صحفي القرن الثالث الهجري و أنّه صحفي ناجح و لم ينقصه غير اسمه الصحفي... و أنّ أدب الجاحظ كان صحافة كاملة لذلك العصر." (1)

و إذا كانت الصّحافة قديمة قدم التّاريخ - كونها ترتبط بالصّفات الإنسانية و الاجتماعية، و تمسّ غريزة حبّ الاستطلاع عند البشر منذ وجدوا- فهي بمعناها الحديث لا ترجع إلى أكثر من قرنين، و تعدّ جريدة "التّنبه" الّتي أصدرها نابليون بونابرت في مصر سنة 1800م أوّل صحيفة عربية ظهرت في العصر الحديث، تليها "الوقائع المصرية" الّتي صدرت سنة 1827م على يد الوالي التركي محمّد علي الكبير الّذي رأى أنّ الشّعب يجب أن يطّلع على أعمال الحكومة و أن يقف على إصلاحات الوالي. أمّا ثالث الصّحف العربية فهي جريدة "المبشّر" الجزائرية الّتي أصدرها المستعمر الفرنسي عام 1847م بأمر من الملك لوي فيليب. (2) على أنّ البلاد الإسلامية كانت قد عرفت بعض الصّحف بلغات غير اللّغة العربية كجريدتي "بريد مصر le courrier de l'egypte" سنة 1798م و "العشرية المصرية la décade

¹ - عبد اللطيف حمزة- كتاب ندوة المحاضرات-رابطة العالم الإسلامي-1390-ص187.

² - ينظر عبد اللطيف حمزة- قصة الصحافة العربية في مصر منذ نشأتها إلى منتصف القرن العشرين- القاهرة-دار الفكر العربي- 1985-ط2-ص43.

"égyptienne" اللتين صحبتا الحملة الفرنسية على مصر، وكانت الأولى تحمل أخبار مصر الداخلية إلى جانب بعض الشعر و الأدب، أما الثانية فقد تخصصت في نشر بحوث أعضاء المجمع العلمي المصري.⁽¹⁾ كما أصدر محمد علي "جورنال الخديوي" سنة 1821م و الذي كان أول الأمر بمثابة التقرير الشهري لشؤون الدولة: المالية و الاجتماعية و الاقتصادية، و التعليمية... و قد ظلّ ينسخ بخطّ اليد إلى أن أنشأ محمد علي مطبعة القلعة سنة 1821م فأصبح التقرير يطبع بها باللغتين العربية و التركية.⁽²⁾ و بقي الجورنال يصدر حتى بعد إنشاء جريدة الوقائع المصرية، و إلى جانب هاتي الصحيفتين أصدرت حكومة الباشا في مصر الجريدة العسكرية لشؤون الجيش سنة 1833م، و الجريدة التجارية الزراعية سنة 1848م.⁽³⁾

أما في العراق فأول جريدة صدرت هي "جريدة الزوراء" و قد تكفل بإنشائها الوالي مدحت باشا سنة 1869م. و يذهب بعض المؤرخين إلى أن أول صحيفة ظهرت في بغداد إنما هي "جورنال العراق" و كان ذلك سنة 1816م، ما يعني

¹ - ينظر إبراهيم عبده-أعلام الصحافة العربية-القاهرة-مكتبة الآداب للطباعة والنشر-1998م-ص7.

² - ينظر محمد حسن عبد العزيز-لغة الصحافة المعاصرة-القاهرة-دار المعارف-1978م-ص29.

³ - ينظر محمد حسن عبد العزيز-لغة الصحافة المعاصرة-مرجع سابق-ص8.

أنّ العراق يكون قد سبق مصر في تاريخ الإصدار الصحفي.⁽¹⁾ على أنّ جريدة الحكومة العراقية الرسمية لم تظهر إلاّ سنة 1922م وهي "جريدة الوقائع العراقية" التي كانت تنشر القوانين و المراسيم و الإيرادات و سائر القرارات الحكومية.⁽²⁾

و في سوريا صدرت سنة 1858م مجلّة "مجموع فوائد" على أيدي المرسلين الأمريكيين ببيروت، كما أصدر رزق الله حسون الحلبي جريدة "مرآة الأحوال" في اسطنبول سنة 1855م أمّا في لبنان فأوّل جريدة كانت في سنة 1858م باسم "حديقة الأخبار" و قد أصدرها خليل الخوري و في القدس صدرت جريدة "القدس" سنة 1876م. أمّا في المغرب العربي فإلى جانب المبتشر الجزائرية - التي تعدّ من أوائل الصحف في البلاد العربية- صدرت في تونس جريدة "الرّائد الفرنسي" سنة 1861م، و في ليبيا صدرت جريدة "طرابلس المغرب" سنة 1866م، و في سنة 1889م صدرت جريدة "المغرب" بالمغرب الأقصى.⁽³⁾

وقد ظلّت هذه الصحف -في معظمها- تصدر في كنف الحكومات ردحا من الزّمن، و لا يملك محرّرها مهما يكن قدره في عالم الأدب و المعرفة حقّ نشر موضوع من الموضوعات إلاّ إذا أذن له الوالي أو الأمير⁽⁴⁾، فاقصر العمل الصحفي على الصحافة الرّسمية التي عملت على نشر أخبار الحكومة و الدّعوة لها

¹ - ينظر توفيق فؤاد العاني-الصحافة الإسلامية و دورها في الدعوة- مرجع سابق -ص30.

² - المرجع نفسه-ص32.

³ - ينظر توفيق فؤاد العاني-الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة- مرجع سابق-ص33.

⁴ - ينظر إبراهيم عبده-أعلام الصحافة العربية-مرجع سابق-ص9.

مع الحرص على تمجيدها و إعلاء شأنها، و قد يخصّص جانب منها لبعض الآثار من الأدب العربي القديم التي تنقل بحذافيرها بما لا يضيف جديدا إلى العلم أو يحمل على النقد و التحليل. و قد ظلّ الأمر كذلك إلى أن تمكّنت ثلثة من الصحفيين أن تخطو بالصّحافة خطوة جعلتها تتخلّص من ذلك الدّور التقليدي في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر لتعيش مرحلة جديدة هي مرحلة الصّحافة الشّعبيّة الّتي "سجّلت بوجودها تاريخها الأصيل، و أشاعت بلفتاتها و مجادلاتها تيارات فكرية نقلت الشّرق من حال إلى حال..."⁽¹⁾

على أنّ الصّلة بين الصّحافة و الأدب كانت وثيقة في تلك الحقبة بحيث كان النّاس لا يفرّقون بين الأديب و الصّحافي. و كان معظم الصّحافيين في مصر و لبنان من كبار أدباء العصر من أمثال أحمد فارس الشّدياق، و بطرس البستاني و ابنه سليم البستاني، و عبد الله التّديم، و إبراهيم المويلحي و الشّيخ إبراهيم اليازجي، و أديب اسحاق، و لويس صابونجي، و بشارة تقلا، و نجيب الحدّاد، و جورجى زيدان ، و علي يوسف و معروف الرصافي... و كان اسماعيل الخشاب -أول محرّر صحفي- شاعرا فحلا و أدبيا بالغيا و كاتباً بارعا.⁽²⁾ و قد أصبحت الصّحافة

¹ - المرجع السابق-ص9.

² - أديب مروة-الصّحافة العربيّة-مرجع سابق-ص157.

تضطلع بدور هام و تؤدّي رسالة كبيرة اجتماعيًّا و ثقافيًّا.⁽¹⁾ و عموماً يمكننا أن نحصر المراحل التي مرّت عبرها الصحافة العربية منذ نشأتها إلى ثلاثة أطوار:

- الطّور الأوّل: أو المدرسة الصحفيّة الأولى و تمتدّ من نشأة الصّحافة العربيّة حتّى الثّورة العراقيّة. و يمثّلها كتاب الصحف الرّسميون على رأسهم رفاعة الطهطاوي. و لم تكن هذه المدرسة قويّة الأسلوب، متينة العبارة، عذبة الألفاظ، بل كان أسلوبها فجّ بدائي، قريب من عصر الانحطاط، يزهو بالسّجع و المحسنات البديعيّة المتكلّفة.⁽²⁾

- الطّور الثّاني: معه بدأت مرحلة جديدة امتازت بالجنوح إلى التخلّص من السّجع و التّقليل منه من ناحية، و خدمة الجمهور و نقل انشغالاته من ناحية ثانية. و قد تأثرت هذه المدرسة بدعوة جمال الدّين الأفغاني. و من كتابها أديب اسحاق، و محمّد عبده، و إبراهيم المويلحي...⁽³⁾

- الطّور الثّالث: تأثّر بالنزعات الوطنيّة و الإصلاحية... و كان يديره أحزاب سياسيّة مناهضة للاحتلال... و برز فيه الجانب السّياسي و نال الحظوة فيه.

¹ - عبد الله قاسم الوشلي-الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر بوسائله المعاصرة- صنعاء-دار النشر للثقافة و العلوم الإسلامية-1994م-ط2-ص25.

² - محمد يوسف نجم-فن المقالة-بيروت-دار الثقافة-1966م-ط2-ص65.

³ - محمد يوسف نجم-فن المقالة-مرجع سابق-ص66.

و قد ظهرت فيه طلائع المدرسة الحديثة من أمثال لطفي السيّد و طه حسين و إبراهيم المازني و عبّاس محمود العقّاد.⁽¹⁾

- الطّور الرابع: و هو المدرسة الحديثة الّتي بدأت مع الحرب العالميّة الأولى. و قد طغى عليها الشّأن السّياسي.⁽²⁾ إذ ما لبثت البلاد العربيّة أن تتخلّص من الحكم العثماني حتّى وجدت نفسها تعيش احتلالاً أجنبيّاً -فرنسيا و بريطانيا- يسعى لنشر ثقافته و حضارته و لغته، فطُبعت تبعاً لذلك الصّحافة العربيّة -لاسيما تلك الّتي كانت تحت الاستعمار الفرنسي مثل سوريا و لبنان و شمال إفريقيا- بالطّابع الثّقافي الفرنسي، فيما كان تأثير الثقافة البريطانيّة محدوداً لأنّ هذه الأخيرة لم تحدو حدو فرنسا الّتي حاولت فرض لغتها و ثقافتها و طريقة معيشتها... "وكان من جراء ذلك أن ظلّت صحافة مصر و العراق و غيرها طليقة غير متأثرة بأسلوب معيّن في النهج الصّحافي. بينما سلكت صحافة سوريا و لبنان بصورة خاصّة طريقة الصّحف الفرنسيّة وعمدت إلى تقليدها و اتّباع أساليبها و مدرستها في نشر الأخبار و التّعليقات"⁽³⁾ ينضاف إلى ذلك الرّقابة و المصادرة الّتي كانت تلحق الصّحف العربيّة من قبل الاحتلال الفرنسي و البريطاني. لكنّ

¹ - المرجع السابق-ص67.

² - المرجع نفسه-ص68.

³ - أديب مروّة-الصحافة العربيّة-مرجع سابق-ص252.

هذه الأخيرة - و إن كَبَلت بقيود قاسية- فقد استطاعت أن تحقّق أشواطاً كبيرة، و تطرق أبواباً جديدة، مكّنتها من مسايرة التّهضة الصحافية في العالم، و الارتقاء بالمستوى المهني إلى درجة خلّصته من الإسفاف و الركافة اللذين سيطرا عليه قبل الحرب الحرب العالمية الأولى. و قد تصدرت مصر البلدان العربية في هذا المضمار.⁽¹⁾

الصحافة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى:

كانت أوّل صحيفة مصرية صدرت مباشرة عقب إعلان الهدنة سنة 1918م هي جريدة "المنبر" لعبد الحميد حمدي، ثمّ تلتها "الأفكار" لأبي العينين بدر سنة 1919م. و تبقى صحيفة "الأخبار" التي أصدرها أمين الرّافعي سنة 1920م من أهمّ وأخطر صحف تلك الفترة ذلك لأنّها حملت لواء الفكرة الوطنية المصرية.⁽²⁾ و سارت "الأهرام" على نهجها بعد أن خرجت عن تحفظها و أصبحت تعبّر عن تطلّعات المصريين. و في عام 1921م أصدر حمود عزمي جريدة "الاستقلال"، و أصدر حزب الدستوريين الأحرار سنة 1922م جريدة "السياسة". و في السّنة نفسها أعاد محمّد فريد وجدي إصدار جريدة "الدستور" التي كان قد أسّسها سنة 1907م لكنّها حجبت قبل الحرب بأعوام قليلة. و في سنة 1923م صدرت

¹ - المرجع نفسه-ص254.

² - إبراهيم عبده-تطوّر الصحافة المصرية-مرجع سابق-ص30.

"البلاغ" لعبد القادر حمزة ثمّ "الشورى" في 1931م.⁽¹⁾ و قد توالى الصّحف تلو الأخرى غير آبهة بالاضطهاد و المصادرة اللذين لقيتهما. و تنوّعت تلك الصّحف بين وطنية و سياسية و دينية، و بين يومية و أسبوعية. لكنّ معظمها توقّف عن الصدور خلال الحرب العالمية الثانية بسبب الرّقابة من ناحية و الظروف الاقتصادية الصّعبة من ناحية ثانية.⁽²⁾

و يجدر بنا و نحن نتحدّث عن الصّحف المصرية أن نقف عند الصّحف الّتي رافقت الثّورة المصرية (1952م) أو تلك الّتي أعقبتها و في طليعتها "الجمهورية" الّتي تأسّست سنة 1953م و هي أوّل صحيفة تدعو إلى عهد جديد بين الرّأي العام المصري و العربي⁽³⁾. و في السنة ذاتها صدرت جريدة "القاهرة"، لتعقبها جريدتا "الشّعب" و "المساء" سنة 1956م. على أنّ الصّحف المصرية الّتي صدرت في تلك الفترة من الكثرة بحيث يتعدّر حصرها في هذا المقام، لكنّ الأكيد أنّها لقيت ما لقيته الصّحف في جميع أصقاع البلاد العربية من تعنّت الاستعمار و اضطهاده لها و مصادرتها و الزجّ بأصحابها في غياهب السّجون.

¹ - فؤاد توفيق العاني- الصحافة الإسلامية و دورها في الدعوة-مرجع سابق-ص42.

² - محمد سيد محمد- الصحافة سلطة رابعة كيف؟-القاهرة- دار الشعب-1979م-ص11.

³ - محمد يوسف نجم- فن المقالة-مرجع سابق-ص72.

الصّحف اللبنانيّة:

ما إن انتهت الحرب حتّى عادت الصّحف الّتي كانت قد احتجبت للصّدور، فاستأنفت "البشير" و "لسان الحال" و "الأحوال" و "الإخاء" و "الإقبال" و "الرّأي العام" و "أباييل" صدورها في بيروت. لكنّ الاحتلال الفرنسي كان لها بالمرصاد.

و على الرّغم من تلك الظروف العصيبة الّتي عاشتها الدّول المضطّهدة، استطاعت الصّحف اللبنانيّة أن تحرز تقدّمًا ملحوظًا بعدما اتّجهت عناية أصحابها إلى معالجة أوضاع البلاد و المطالبة بالإصلاح. و أبرز تلك الصّحف "الأحرار" (1924م) و "النّهار" (1933م) و "العهد الجديد" (1925م) و "التّداء" (1930م) و "بيروت" (1936م) و "الحياة" (1946م) و "السّياسة" (1956م). و قد عرفت الصّحف زيادة كبيرة بعد "الانقلاب الأبيض" سنة 1952م، حيث فاق عددها الخمسين صحيفة بين سياسية و دينية و ثقافية، يومية و أسبوعية و شهرية. على أنّ كثرة الصّحف بلبنان لم تقف أمام ازدهارها و رقيّها بل على النّقيض من ذلك فقد عرفت تقدّمًا كبيرًا و خطت خطوات عملاقة بالنّظر للتّطوّر الجذري في أساليب إخراجها الفنّي و تقنياتها و خدماتها الوطنية.⁽¹⁾

¹ - أديب مروّة - الصحافة العربيّة - مرجع سابق - ص 281.

الصّحف السّورية:

لم تبلغ صحافة سوريا الشّان الذي بلغته مثيلاتها في مصر و لبنان. ذلك لأنّ الانتداب الفرنسي حاربها و عمل على تثبيط كلّ رغبة في التطوّر و الوقوف بوجه رقيّها و أخذها بأسباب التّهضة، بل لم تساير الصّحافة السّورية الصّحافة العربيّة حتّى قبل الانتداب بالنّظر للأوضاع السّياسية غير المستقرّة. و بقي الحال على حاله إلى نهاية الحرب العالميّة الثّانية حيث حاولت الصّحافة -بعد الاستقلال- أن تشقّ طريقها نحو التقدّم و الرقيّ لتساير ركب صحف مصر و لبنان.⁽¹⁾

و من أهمّ الصّحف الّتي صدرت في دمشق على عهد الملك فيصل جريدة "الاستقلال العربي" الّتي أنشأها معروف الأرنؤوط و رشدي الصالح سنة 1918م، و في السّنة نفسها أصدر خير الدّين الزركلي و إبراهيم العمر جريدة "العقاب" و "العاصمة"... و في عهد الانتداب نشطت الحركة الصّحافية بالرّغم ممّا لقيته من تعطيل و اضطهاد. و كانت أولى الصّحف الّتي صدرت "فتى العرب" عام 1920م. ثمّ تلتها "ألف باء" و "الأيّام" و "الفيحاء" و "النضال" و "الجيل الجديد" و "الإنشاء" و "الحضارة" و "المنار" و "العلم" و "الأخبار" و "دمشق المساء" و "الشّعب"⁽²⁾ و غيرها من الصّحف الّتي كانت تصدر، ثمّ ما تلبث أن تحجب،

¹ - أديب مروّة -الصحافة العربيّة-مرجع سابق-ص 307.

² - المرجع نفسه-ص 310.

بسبب تعنت المستعمر و اضطهاده لها، أو بسبب عدم استقرار الأوضاع السياسية و الانقلاب.

الصّحافة في المغرب العربي:

بعد الحرب العالمية الأولى دخلت الصّحافة التونسية و الجزائرية مرحلة جديدة سواء منها الصّادرة باللّغة الفرنسية أم تلك الّتي صدرت باللّغة العربية، أمّا صحافة المغرب الأقصى فلم تواكب الأحداث و لم تسر على التّنهج نفسه بعد أن كبّلتها سلطات المحتلّ بقيود تعسّفية حالت دون نشأة صحف تعبّر عن الرّأي العامّ عدا بعض الصّحف الضّعيفة النّاطقة بلسان السّلطات الفرنسية.⁽¹⁾ و من أهمّ الصّحف الجزائرية جريدة "الصديق" الّتي أصدرها عمر بن قدور و محمّد بن بكير سنة 1920م إلى جانب "الفاروق" الّتي أصدرها عمر بن قدور و "الإقدام" للأمير خالد الجزائري. و في سنة 1923م أصدر مصطفى حفيد "لسان الدين"، و أنشأ أبو اليقظان سنة 1926م جريدة "وادي ميزاب" و جريدة "البلاغ الجزائري" و جريدة "البشائر" و "المرشد" و غيرها من الصّحف الّتي سنعود إليها في حينها. و قد وقف الفرنسيون منها الموقف نفسه إذ عملوا جاهدين لطمسها و إضعافها

¹ - أديب مروة-الصحافة العربية-مرجع سابق-ص390.

القضاء عليها، فلم تندلع ثورة التحرير المظفرة إلا و قد قضى الاستعمار على معظم الصحف العربية.⁽¹⁾

و قد عاشت الصحف الوطنية في تونس الظروف نفسها التي عاشتها مثلتها في الجزائر. و كانت تدعو -شأنها في ذلك شأن الصحف الجزائرية- إلى الإصلاح. و يأتي في مقدمة هذه الصحف "العصر الجديد" التي أسسها أحمد حسين المهيري سنة 1920م. و "المنبر العربي" لصالح بن محمود و "الوزير" للطيب بن عيسى. و في السنة نفسها صدرت مجموعة من الصحف لم يكتب لها أن تعمّر طويلا نظرا لتعتت المستعمر و تعقبه لها. و في عام 1921م صدرت جريدة "التدبير" لحسين الجزائري و "الهلال التونسي" "الأمة" و "العمران" ... و صدرت في 1923م جريدة "النهضة" و "الزمان" و "الإرادة" و "الحرية" ... و قد تشدّدت السلطات الفرنسية في اضطهادها حتى أصبحت بعض الصحف تصدر سرا، و ظلّ الحال كذلك إلى سنة 1954م بعد الإعلان عمّا يشبه الاستقلال الذاتي لتونس حيث رفعت القيود عن الصحافة.⁽²⁾

أمّا إذا تتبّعنا مسار الصحافة في المغرب الأقصى فلن نظفر على شيء ذي بال حتى سنة 1935م⁽³⁾، ذلك أنّ الاحتلال قد أحكم قبضته عليها و لم يسمح بالصدور

¹ - المرجع السابق-ص396.

² - أديب مروة-الصحافة العربية-مرجع سابق-ص395.

³ - فؤاد توفيق العاني-الصحافة الإسلامية و دورها في الدعوة-ص103.

إلا للصّحف الموالية له النّاطقة بلسانه. و تعدّ جريدة "المغرب" الّتي أصدرها سعيد حجّي سنة 1936م من أوائل الصّحف الّتي ظهرت بعد الحملة الإصلاحية الّتي أمّا إذا تتبّعنا مسار الصّحافة في المغرب الأقصى فلن نظفر على شيء ذي بال حتّى سنة 1935م ذلك أنّ الاحتلال قد أحكم قبضته عليها و لم يسمح بالصدور إلّا للصّحف الموالية له النّاطقة بلسانه. و تعدّ جريدة "المغرب" الّتي أصدرها سعيد حجّي سنة 1936م، من أوائل الصّحف الّتي ظهرت بعد الحملة الإصلاحية الّتي قامت بها كتلة العمل الوطني، لتليها "الأطلس" و "التقدّم" و "العلم" و "الرأي العام" و "السلام" و "المكافح" و "الاستقلال"....⁽¹⁾

و تجدر الإشارة في هذا المقام إلى علاقة الصّحافة بالحركات الإصلاحية في العالم العربي لاسيما بعد أن ظهرت دعوة جادة تهدف إلى وحدة العالم الإسلامي لمواجهة الخطر الأوروبي.⁽²⁾ هذه الدّعوة إلى جانب مناداتها بالوحدة الإسلامية، دعت في الوقت نفسه إلى الإصلاح السياسي و الإجتماعي لأجل إيقاظ العالم الإسلامي من سباته العميق لكي يواجه الخطر المحدق به، خطر التّخلف و الاحتلال الغربي. فكان على العلماء و المصلحين لمواجهة على جبهتين في وقت واحد، تتمثل الأولى في إنهاء الموقف النّاتج عن عصور الجمود، و الّذي خلق خصومة بين المسلمين والعلوم، فيما تمثّل الثانية محاولة لدفع المسلمين للاستفادة من العلوم الغربية

¹ - أديب مروة-الصحافة العربية-مرجع سابق-ص400.

² - فؤاد توفيق العاني-الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة-ص63.

و اللّحاق بركب الدول الغربية المتقدّمة⁽¹⁾. و نظرا لطبيعة التحدّي المتنوّع الّذي فرضه الغرب على العالم الإسلامي، ما بين احتلال و ترسيخ للتخلف و تفكيك للعالم الإسلامي و إعادة نشر القيم الغربية فيه، تعدّدت مداخل الرّؤى الإصلاحية و التّجديدية الإسلامية ما بين التّجديد الدّيني و الفقهي و التّشريعي، و الإصلاح للواقع السّياسي و التّعليمي و الاجتماعي و الاقتصادي. و يعدّ جمال الدين الأفغاني واضع اللبّات الأولى لفكرة مقاومة الاستعمار، أما الإمام محمد عبده فهو واضع التّمودج الفكري لما يمكن تسميته مقاومة القابلية للاستعمار،⁽²⁾ و يبقى لهذين الرّائدین الأثر الكبير في سائر الأعمال و الرّواد و المدارس و الأفكار والمصلحين الذين ظهروا بعد ذلك، و الّذين كانوا تجليات لهاتين المدرستين الكبيرتين.⁽³⁾

و كانت الصّحافة من أهمّ الأدوات التي لجأ إليها المصلحون في تلك الفترة سواء كوسيلة لمقاومة الاستعمار أو وسيلة لبعث روح اليقظة و التّهوض و التّجديد في نفوس المسلمين، و كان من أهمّ تلك الصّحف و أبرزها صحيفة «العروة الوثقى» التي أصدرها الشّيخ جمال الدين الأفغاني و الإمام الشّيخ محمد عبده⁽⁴⁾. و قد أزعجت تلك الصّحيفة الإنجليز، و أثارت مخاوفهم كما أثارت هواجس الفرنسيين، إذ كانت تدعو إلى مناهضة الاستعمار و التّحرر الوطني، لذا سعى الإنجليز إلى

¹ - أنور الجندي-تاريخ الصحافة الإسلامية-مصر دار عطوة للطباعة-1980م-ج1-ص10.

² - المرجع نفسه -ص35.

³ - المرجع نفسه-ص38.

⁴ - إبراهيم عبده-أعلام الصحافة العربية-مرجع سابق-ص68.

إخماد صوتها، فاحتجت بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً في ثمانية أشهر. و إدراكاً من الإمام محمد عبده لأهمية الصحافة في إطار المشروع الإصلاحي كان يغتنم كلَّ الفرص للتفاعل معها، فعندما أسند إليه تحرير صحيفة «الوقائع المصرية» التي كانت تنشر القوانين المصرية، خصص جزءاً منها لينطق بالمبادئ الإصلاحية التي كان يدعو إليها، واستمر على هذا الحال قرابة العام والتصف.⁽¹⁾

و من المصلحين الذين لعبت الصحافة دوراً في حياتهم الشيخ عبد العزيز جاويش (1876-1929م) الذي تولّى رئاسة تحرير جريدة «اللواء» الوطنية في مصر، والتي كانت تناهض الاستعمار الإنجليزي، وظلّت الصحافة وسيلة مهمة عند الشيخ جاويش في تبليغ رسالته الإصلاحية، فعندما اضطر إلى مغادرة مصر تحت ضغط الاحتلال الإنجليزي، أنشأ في تركيا صحيفة «الهلال العثماني»، و جعل هدفها الدفاع عن حقوق مصر في الحرية والاستقلال و مناهضة الإنجليز في كل مكان، و بعدها أصدر جريدة "الحق يعلو"⁽²⁾.

و تعدّ مجلة «المنار» التي أنشأها الشيخ رشيد رضا من أهمّ المجالات الإصلاحية⁽³⁾، وهي مجلّة تعبّر عن تيار إصلاحي كان له أكبر الأثر في حياة المسلمين، فلم يكف يعضي شهر على نزول الشيخ رشيد رضا القاهرة قادماً من الشام، حتى صارح

¹ - إبراهيم عبده-أعلام الصحافة العربية-مرجع سابق-ص70.

² - أنور الجندي-تاريخ الصحافة الإسلامية-مرجع سابق-ص9.

³ - فؤاد توفيق العاني-الصحافة الإسلامية و دورها في الدعوة-مرجع سابق-ص35.

شيخه محمد عبده بأنه ينوي أن يجعل من الصّحافة ميداناً للعمل الإصلاحي، و دارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول سياسة الصّحف و أثرها في المجتمع. و كان الهدف من إنشاء الصّحيفة هو التّربية و التّعليم و نقل الأفكار الصّحيحة لمقاومة الجهل و الخرافات و البدع⁽¹⁾. و صدر العدد الأوّل من مجلة المنار في (شوال 1315هـ - مارس 1898م)، و حرص الشّيخ رشيد عليّ تأكيداً أن هدفه من المنار هو الإصلاح الدّيني و الاجتماعي للأمة، و بيان أن الإسلام يتّفق مع العقل و العلم و إبطال الشّبّهات الواردة حول الإسلام، و تنفيذ ما يعزى إليه من خرافات.⁽²⁾

و أفردت «المنار» إلى جانب المقالات التي تعالج الإصلاح في ميادينها المختلفة بأباً لنشر تفسير الشّيخ محمد عبده، و أفردت أقساماً لأخبار الأمم الإسلامية، و التّعريف بأعلام الفكر و الحكم و السّياسة في العالمين العربيّ و الإسلاميّ، و تناول قضايا الحريّة في المغرب و الجزائر و الشام و الهند. و لم تمض خمس سنوات على صدور المنار حتى أقبل عليها النّاس و انتشرت انتشاراً واسعاً، و استمرّت من سنة (1316هـ - 1899م) إلى سنة (1354هـ - 1935م)...

و في الشام نجد العلامة محمد كرد عليّ الذي عهد إليه بتحرير مجلّة الشام الأسبوعية، ثمّ أنشأ بعد ذلك جريدة يومية باسم "المقتبس" كما أعاد إصدار مجلّة

¹ - أنور الجندي-تاريخ الصحافة الإسلامية-مرجع سابق-ص24.

² - المرجع نفسه-ص29.

المقتبس الشهرية التي كان قد أصدرها بالقاهرة، لتكون لسان حال الثقافة الرفيعة. وكانت الجريدة اليومية "المقتبس" صوت حرية و سوط عذاب على الظلم والاستبداد. وكانت مقالاته تحارب الجهل والجهلاء، و تدعو إلى التحرر من الخرافات، و تنادي بالإصلاح و التّجديد، و الأخذ بوسائل المدينة الحديثة، و إحياء التراث النّافع، و معرفة التاريخ الجيد للأمة، حتّى تستلهم منه روح البعث و التّهوض.⁽¹⁾

أما العالمة عبد الحميد بن باديس في الجزائر فقرّر أن يقاوم الاستعمار بأساليب عدّة من بينها الصحافة. وكانت الصّحف التي يصدرها أو يشارك في الكتابة بها، من أهمّ وسائله في نشر أفكاره الإصلاحية، فأصدر جريدة "المنتقد" سنة (1345هـ - 1926م) و تولّى رئاستها بنفسه، لكن الاحتلال عطّلها، فأصدر جريدة "الشهاب" و استمرّت في الصدور حتّى سنة (1358هـ - 1939م) و اشترك في تحرير الصّحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مثل "السنة" و "الصراط" و "البصائر".⁽²⁾ و قد عملت هذه الصحف بأجمعها، على كشف التّزيف و التّحريف الصادر من داخل العالم الإسلامي و خارجه. و هو يؤمن كلّ الإيمان برسالته و يلتزم بدعوته إلى ضرورة الإصلاح و التّجديد في إطار مبادئ و تعاليم الإسلام الصّحيحة. كما انتهجت أسلوب مقاومة الاستعمار و محاربتة في

¹ - أديب مروة-الصحافة العربية-مرجع سابق-ص410.

² - فؤاد توفيق العاني-الصحافة الإصلاحية ودورها في الدعوة-مرجع سابق-ص40.

كافة مظاهره الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و دعت إلى الجمع بين الأصالة
الإبداع في غير تعارض، أي الأصالة و التجديد في إطار مبادئ الإسلام.⁽¹⁾

¹ - عبد الملك مرتاض-مفضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر(1925-1954)-الجزائر-
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-ط2-1983م-ص97.

الفصل الأول

الحركة الإصلاحيّة

في الجزائر

عاشت الجزائر ما يربو عن القرن تحت نير الاستعمار الغاشم، يذيقها أشنع أنواع التعذيب و التّنكيل و الظلم و التّقتيل و أبشعها ، فقد تفنّن المستدمر في تحطيم البنى التحتية للجزائر، و عمد إلى القضاء على مقوماتها، فلم يسلم من بطشه أيّ منحيّ من مناحي الحياة و لا مجال من مجالاتها، إذ لا يختلف اثنان حول الأوضاع المزرية التي عاشها الشعب الجزائري تحت وطأة الاستعمار، هذا المستعمر الغاشم الذي سعى بكلّ ما أوتي من جبروت إلى تفتير الشعب و تجويعه، بل سعى إلى ما هو أدهى و أخطر، حين حاول القضاء على الإسلام - ركيزة الأمة - ليتسنى له بذلك القضاء على الكيان الجزائري⁽¹⁾، فقد " ابتلى الله بلادنا بأخبث نوع من أنواع الاستعمار و هو الاستعمار الاستيطاني الذي فرض علينا غزاة مقيمين يعملون لتحقيق غايات الحركة الاستعماريّة الصليبيّة العالميّة. و من هنا أخذ يعمل جاهدا على تثبيت جذوره و تأصيلها، و رأى أنّ هذا الأمر لن يتحقّق إلا بالقضاء على الشّخصيّة الجزائريّة و محو أصلاتها، و اتّجه إلى مسخ و تشويه و تذويب مقوماتها الأساسيّة فحارب الإسلام و لغته و شكك النّاس في أوطانهم و انتمائهم إليها، و هكذا أصبحت أهدافه تدور حول: التّنصير - الفرنسة - و محو الوطنيّة الجزائريّة." ⁽²⁾ فالحملة الفرنسيّة كانت صليبيّة الأهداف و الدّوافع عمدت إلى تشويه العقيدة و استبدالها "بعقيدة جديدة تبارك محتّلها و غاصبها وتمكّنه

¹ - أبو القاسم سعد الله-أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر-بيروت-دار الغرب الإسلامي-ط2-ج2-1998-ص89.

² - الشّيخ محمد خير الدّين-مذكّرات-الجزائر-المؤسّسة الوطنيّة للكتاب-ج2-ص68.

من رقاب الشعب باسم الدين و من حرّيته باسم الأمن و تسخر أرقامها للدعاية له، و التّويه به و الدّعوة لطاعته." (1) و لئن ركّز المحتلّ على الجانب الدّيني و جعله هدفا له فذلك و عيا منه أنّه لن يتمكّن من تحقيق استقرار سياسي في الجزائر ما لم يهدم أهمّ و أبرز مقوّمات شخصيتها، ذلك هو الدّين الإسلامي و من ثمّ عمل على تحويله إن لم يكن إلى المسيحيّة، فليكن إلى الانحلال و التّميع (2). و هذان الأخران لن يتمّا إلاّ إذا استعان المستدمر بطرفين يأخذان بيده و يعملان على تثبيت العقيدة المغلوطة: الأوّل محليّ و تتزعمه طائفة من الطّريقين، و الثّاني أجنبيّ تتزعمه طائفة المبشرّين الذين اتّخذهم فرنسا روّادا و دعاة لها (3) "تستهدى تصرّجاتهم الحاقدة على الإسلام، و تقتحم بصلبانهم المساجد تحوّلها إلى كنائس، و دور العلم و العبادة تسخرها ثكنات لجيش الاحتلال." (4) و لعلّ قول الجنرال بيغو يوضّح جيّبا حقيقة الاحتلال الفرنسي و مراميه حين يصرّح أنّ "آخر أيّام الإسلام قد دنت، و في خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، و أمّا العرب لن يكونوا ملكا لفرنسا إلاّ إذا أصبحوا مسيحيّين جميعا. و نحن إذا أمكننا الشكّ في أنّ هذه الأرض

1 - صالح خرفي - الشّعير الجزائري الحديث - الجزائر - المؤسّسة الوطنيّة للكتاب - 1984م - ص 12.

2 - أحمد الخطيب - جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر - المؤسّسة الوطنيّة للكتاب - الجزائر - 1985م - ص 48.

3 - محمد عبّاس - البشير الإبراهيمي أدبيا - ديوان المطبوعات الجامعيّة - المطبعة الجهويّة بوهران الجزائر - 1984م - ص 19.

4 - صالح خرفي - الشّعير الجزائري الحديث - مرجع سابق - ص 11.

تملكها فرنسا فإننا لا نشكّ في أنّها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد.⁽¹⁾ و هكذا مضت فرنسا في خطّتها، تبذل كلّ ما في وسعها لأجل تحقيقها حتّى أخذ الإسلام يتفوق شيئا فشيئا إلى أن انحصر في الزوايا و الكتاتيب، و أصبح يدور في فلك الصوّفيّة و ما تخدّر به الشّعب من أذاليل و طقوس.

إذا كان هذا هو حال الشّعب الجزائري في دينه فإنّ وضعيّته السّياسية لم تكن أفضل حالا. و قد اتّخذ المحتلّ طابع المواجهة المباشرة في تشييت شمل الشعب بالقوّة و القضاء على كلّ نشاط سياسي و فرض قانون التّجنيد الإجمالي... و عموما يمكننا أن نلمس حقيقة الحملة الفرنسيّة في مقولة الجنرال بيجو "احتلال الجزائر بالسّيف و المحراث، السّيف في رقاب العرب و المحراث في يد المستعمر الفرنسي".⁽²⁾ و قد سنّ المستعمر الفرنسي قوانين و أنظمة غاية في الجور و الظلم و التعسّف و هي قوانين "الأندجينا" الّتي ضيّقت الخناق على الشّعب و أخمدت أنفاسه.⁽³⁾

و إذا انتقلنا إلى النّاحية الاجتماعية سنجدّها أكثر انتكاسا من سابقتيها، فقد سنّ المحتلّ مجموع قوانين لا تخدم سوى مصالحه الخاصّة " و أشدّ هذه القوانين أثرا في النفوس، و أكثرها تجاوبا مع أهداف المستعمر تلك الّتي ترمي إلى إغراق المواطن في

¹ - محمد عباس-البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص11.

² - صالح خرفي- المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث- الجزائر- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-1983م-ص15.

³ - المرجع نفسه-ص15.

بؤس دائم و شقاء جاثم بالضرائب القاصمة و التّغريم المشترك و انتزاع الأراضي، فإذا اجتمع في فقر و بؤس و أمراض و أوبئة و انحرافات خلقية و اجتماعية⁽¹⁾.

تجرّع الشعب الجزائري في ظلّ تلك القوانين كؤوس الذلّ و الهوان و عانى الفقر و الحرمان، و قد عبّر الزاهري عن حالة الجزائر بقوله " أرى الجزائر في أيّاب بؤس يمضغها مضغاً و أراها في فقر يأكلها أكلاً و أراها بعد ذلك تتخبط في جهالة عمياء و تعمه في ضلال مبين."⁽²⁾

و لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ بل تعدّاه إلى تشريد الشعب و تفرّقه بتزكية النظام القبلي و تنمية روح العنصرية كخطوة أولى تتبعها إقامة حدود حصينة بين الجزائر و شقيقتيها كخطوة ثانية ليحرم الشعب من أدنى بصيص أمل.⁽³⁾

و لم تسلم الناحية الثقافية هي الأخرى من بطش المستعمر الذي غزا مراكز الثقافة القومية بدعوى أنّها جامدة متحجّرة لا تساير العصر، و من ثمّ وجب الإقتداء بالغزاة و تحصيل ثقافتهم "و إذا كانت وسائل العيش ممّا يزيد في إقبال الناس على هذه الثقافة الدّخيلة فلتكن شروط العيش نفسه و الحصول على وظيفة أو مكانة هي الكفاءة الشّخصية من ثقافة الاحتلال."⁽⁴⁾ و لأجل إخماد الحياة الفكرية و شلّ

¹ - ناصر الدين سعيدوني-الجزائر.منطلقات و آفاق الجزائر-بيروت-دار الغرب الإسلامي-2000-ص22.

² - الزاهري نقلا عن الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص17.

³ - ينظر أبو القاسم سعد الله-شاعر الجزائر محمّد العيد آل خليفة-الدار العربية للكتاب- المؤسسة الوطنية للكتاب-ط3-1984-ص75.

⁴ - المرجع السابق-ص75.

النشاط الثقافي، ضمّ المحتل المساجد إلى أملاك الدولة باعتبارها مراكز للعلم و المعرفة. و بالمقابل سعى لفتح الحانات وتشجيع العريضة. يقول الشيخ البشير الإبراهيمي "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت و أسباب الموت، و الاستعمار سمّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، و هو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية و عبث بجرمة المعابد و حارب الإيمان بالإلحاد و الفضائل بحماية الرذائل، و التعليم بإفشاء الأمية و البيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير و لا تفكير."⁽¹⁾

و حسينا إن نحن أردنا أن نطلّ على أحوال الشعب الجزائري و ما آلت إليه تحت وطأة الاستعمار قول أبي اليقظان شاهداً "لقد تسلّط على الأمة عوامل ثلاثة لو تسلّط عامل واحد منها على أمة كبيرة لزعزع ركنها و هدّ بناءها ألا و هي : الجهل و الفقر و الفرقة. فالجهل أفقدها شعورها بوجودها و كيف تذبّ عنه و الفقر أفقدها عن العمل و شلّ أعضائها عن الحركة، و الافتراق أذاب قوتها و ذهب بريحتها فبقيت و الحال هذه عرضة للتلف و الاضمحلال و الهلاك و هي نتيجة طبيعية لتلك الحالة المخزية التي جرّ إليها الظلم و الاستبداد."⁽²⁾

¹ - القول للشيخ الإبراهيمي نقلاً عن صالح خرفي-المدخل إلى الأدب الجزائري- مرجع سابق-ص20.

² - القول لأبي اليقظان نقلاً عن محمد عباس-البشير الإبراهيمي- مرجع سابق-ص20.

لكنّ تلك الأوضاع المزرية التي عرفتھا جميع المجالات الحياتية في الجزائر لم تكن لتبثّ عزيمة المواطن الجزائري و لا لتثنيه عن المطالبة بحقّه في الانعتاق. فهو لم يخنع أبدا للعدوّ الغاشم و لم يخضع له، و ما تلاحق الثورات و تتابعها إلاّ دليل على الرّفص القاطع للمستعمر. فليس لأحد أن ينسى المقاومة الصّارمة التي وقعت بواحة الزعاطشة سنة 1853م، و لا واقعة الأغواط المشهورة، و لا مقاومة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م، و لا ثورة جبال جرجرة الأبيّة سنة 1871⁽¹⁾. "كلّ هذه الثّورات المتتالية تثبت أنّ الجزائريين لم يسلموا أعناقهم طوعا للجلّادين بل كانت مقاومتهم للاستعمار مستمرّة و كانت الحرب بينهم و بين فرنسا سجّالا و كانت الوقائع متوالية، فما انتصر الفرنسيون مرّة إلاّ أعاد الجزائريون الأحرار الثّورة مرّة أخرى إلى أن كانت الثّورة المقدّسة الكبرى سنة 1954."⁽²⁾

و إذا كانت تلك المقاومات قد فشلت في صدّ العدوّ عن طريق المواجهة المباشرة فإنّها بالمقابل نجحت في إذكاء روح التّضحية من أجل الوطن بعد أن بدأت "... جذوة الحسّ الوطني تتقد أكثر من ذي قبل ممّا أشعل فتيل صراع فكري بين

¹ - مفدي زكريا-تاريخ الصحافة العربيّة في الجزائر-جمع و تحقيق أحمد حمدي-مؤسسة مفدي زكريا-الجزائر-2003-ص50.

² - محمد عباس-البشير الإبراهيمي أديبا-مرجع سابق-ص50.

الفكر الوطني القائم على العريية و الإسلام و الجزائر من جهة و بين سياسة الاستعمار و الفكر الموالي له و كذا الفكر الطرقي من جهة أخرى.⁽¹⁾

في ظلّ تلك الظروف الحالكة التي كادت أن تجعل "النفوس يائسة و العزائم مضعضة، و الشك يساور النفوس فيأتيه من بين يديها و من خلفها و عن يمينها و شمالها فينال منها، و يدفعها إمّا إلى الفشل و الخور و إمّا إلى الإعراض و التنكّر و إمّا إلى الاستسلام و التّقهقر."⁽²⁾ ظهرت إرهابات تبشّر بوجهة جديدة للحياة الدّينية و الفكرية و دعوة أصيلة إلى المنبع، و اتّصال مباشر بالكتاب و السنّة و تطلّع نافذ إلى المستقبل. فكان ميلاد الحركة الإصلاحية بعد أن تفتّظ العقلاء و الرّاشدون من أبناء الأمّة أنّ تهذيب الشّعب و إصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى في طريق الانعتاق الذي لن يتأتّى إلاّ بالإصلاح الدّيني و العلمي.⁽³⁾

I. الحركة الإصلاحية الجزائرية قبل تأسيس جمعية العلماء

1.I. نشأة الحركة الإصلاحية

ساهمت عوامل متعدّدة و مختلفة في بلورة فكرة الإصلاح بالجزائر منذ مطلع القرن العشرين لتصبح حركة لها مبادئها و منهجها في أعقاب الحرب العالمية

¹ - عمر بن قينة- في الأدب الجزائري الحديث. تأريخا و أنواعا و قضايا و أعلاما- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1995-ص 60.

² - الشيخ خير الدّين- مذكّرات- مصدر سابق-ص 413.

³ - صالح خرفي- الشعر الجزائري الحديث- مرجع سابق-ص 47.

الأولى، لعلّ أوّل هذه العوامل هي تأثر الحركة الإصلاحية الجزائرية بمثلتها في المشرق العربي و لاسيما رائدها الشيخ العلامة جمال الدّين الأفغاني و الإمام محمّد عبده، و قد كان لما تناقلته الأحاديث عن هذا الأخير من قبل مؤيّديه و كذا معارضيه الأثر الكبير في نشوء الحركة إذ "كانت تلك الأحاديث تفعل فعلها في النفوس المتبرّمة من الحاضر، و المستشرفة إلى تبدّله بما هو خير و تكيّفها تكيّفها جديدا و تغريها بالبحث عن منشأ هذه الخصومة العنيفة لهذا الرّجل. فإذا علمت أنّ منشأ ذلك دعوته إلى القرآن... فأحبّته و لحت في الانتصار له- و إن لم تتبيّن مشربه كلّ التبيّن و يضاف إلى هذا العامل قراءة المنار على قلّة قرائه في ذلك العهد و اطلاع بعض النّاس على كتب المصلحين القيّمة ككتب ابن تيمية و ابن القيم و الشوكاني." (1)

فهذا عامل كان له أثره في التمهيد للدّعوة الإصلاحية، بالإضافة إلى البعثات العلميّة إلى الحجاز التي لعبت هي أيضا دورا هامّا في إذكاء فكرة الإصلاح في الجزائر بعد أن عادت طائفة من الطّلبة بالهدى المحمّدي الكامل و قد تأثرت بالإصلاح تأثرا خاصّا. (2) ينضاف إلى العاملين السّابقين، الحرب العالميّة الأولى و ما كان لها من تداعيات و آثار على زعماء الطرقيّة، بعدما انكشفت خباياهم و انفضحت

¹ - محمد البشير الإبراهيمي-سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين-قسنطينة-

1935م-ص40.

² - المصدر نفسه-ص42.

مزاعمهم و تبيّنت اتجاهاتهم الحقيقية، فانحطت بذلك قيمة المقدّسات الوهيّة في نظر كثير من الناس. "و ممّا أعان على نموّ هذا الأثر في النفوس، تطوّر زعماء التخريف و أساطين التدجيل والانكباب على المال و التّكالب في جمعه و الاهتمام في المملدات و مزاحمة العامّة في الوظائف و التّياشين بعد أن كانوا و كان سلفهم القريب يتظاهرون بالبعد عن هذه المواقف..."⁽¹⁾

فلاستعداد الفطري للشّعب الجزائري -إضافة إلى هاته العوامل متضافرة- مهّد لظهور الحركة الإصلاحية بالجزائر في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر حيث برز عدد من المصلحين من الجيل الأوّل و كانوا سلفيّين منهم الشّيخ صالح بن مهنّة⁽²⁾ و الشّيخ عبد القادر المجاوي⁽³⁾ و الشّيخ عبد الحلّيم بن سماية⁽⁴⁾ و الشّيخ محمد بن خوجة⁽⁵⁾. هؤلاء و غيرهم من "الرّجال اللّذين ظهروا بفكرة إصلاحية محدودة و لكنّها على كلّ حال محمودة...و ذلك قبل أن يظهر

¹ - المصدر السابق-ص41.

² - توفي عام 1907م في مدينة قسنطينة، لقي في سبيل دعوته الإصلاحية الوطنية التّقي و التّشريد من قبل الإدارة الفرنسيّة و صودرت مكتبته. محمد بن رمضان شاوش و العوئي بن حمدان -إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر- مطبعة داود بريكسي-الجزائر-2001-ط1-ص505.

³ - 1848-1913م. كان يؤمن بأنّ الإصلاح يكون عن طريق العلم و التّعليم و له في ذلك مؤلّفات عديدة. المرجع نفسه-ص509.

⁴ - 1866-1933م. من أهمّ مؤسّسي الحركة الإصلاحية في الجزائر، له مؤلّف "فلسفة الإسلام" يعرض فيه التّظرة الإصلاحية السّلفية. المرجع نفسه-ص564.

⁵ - 1865-1917م. كان من المقرّبين للشّيخ محمد عبده و اهتمّ بالحياة الاجتماعيّة و الأخلاقيّة، يدعو لمنح المرأة حقوقها في كتاب "الاكتراث في حقوق الإناث". المرجع نفسه-ص513.

الإصلاح التعاوني و يزخر عبايه و تتساق أسبابه فقاوموا البدع من دوائر ضيقة و كان لهم في القضاء على بعضها مساع موقفة...⁽¹⁾ كان تأثير هؤلاء العلماء محدودا لأن الظروف لم تكن مواتية. فبعضهم كان يعمل مدرّسا في مدارس الإدارة الحكومية مما اضطرهم إلى تخفي نشاطهم، و كان البعض الآخر يحتفظ لنفسه بأفكاره لأنهم يؤمنون أن الوقت لم يحن بعد لنشرها.

و ثمة عامل آخر لا يمكننا تغافله و نحن نعرض لبدايات الحركة الإصلاحية في الجزائر، يتمثل في الثورة التعليمية التي أحدثها الشيخ عبد الحميد بن باديس "بدروسه الحية و التربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه و التعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية و الإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي أرواحهم الوثابة الفتية، فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكر صحيحة و عقول نيرة و نفوس طامحة و عزائم صادقة، و ألسن صقيلة و أقلام كاتبية..."⁽²⁾ و لقد أمدت تلك الثورة التعليمية و عزّزها البعثات العلمية التي استفاد منها أبناء الجزائر حين "زحفت من أولئك التلاميذ في ذلك العهد كتيبة جرّارة سلاحها الفكرة الحية الصحيحة إلى جامع الزيتونة لتكمل معلومتها و لتبني على تلك الفكرة الحية و ذلك الأساس العلمي الصحيح بناء علميا محكما و رجعت تلك الطائفة إلى الجزائر فكان من

¹ - سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين-ص41.

² - المصدر نفسه-ص42.

بمجموعها و ممّا تخرّج بعدها من تلاميذ الأستاذ و من تلاميذ جامع الزيتونة جنود الإصلاح و قادته و ألوّيته المرفرفة و أسلحته النّافذة.⁽¹⁾

و ممّا يجدر بنا ذكره في هذا المقام أنّ الحركة الإصلاحية منذ نشأتها و بزوغ فجرها لقيت نوعين من المعارضة، كانت الأولى معارضة سياسية تتمثّل في السّلطة الاستعمارية الّتي اجتهدت بكلّ ما أوتيت من جيّروت على تعطيل مسار الحركة بدءا باضطهاد أصحابها و ملاحقتهم و توقيفهم لينتهي بهم الأمر إلى السّجون و الإبادة. أمّا الثّانية فكانت معارضة دينية و هي ذات جانبين: جانب أجنبي يمثّله المستعمر و آخر محلي يمثّله رجال الصّوفية و الطرقيّون.⁽²⁾

2.I. رواد الحركة الإصلاحية

احتضن العلماء الفكرة الإصلاحية و عملوا على نشرها مستعينين في ذلك بالمقالات الصحفية و الأبيات الشعريّة و المؤسّسات التّعليمية، و كانت فكرة الإصلاح قد سبقت الحركة كما أشرنا آنفا، فقد سعت ثلاثة من المصلحين على إرساء المبادئ الإصلاحية الدّينية و الاجتماعية منهم الشّيخ صالح بن مهنا، و الشّيخ عبد القادر المجاوي، و الشّيخ عبد الحليم بن سماية، و الشّيخ محمّد بن الخوجة...

¹ - المصدر السابق-ص42.

² - ينظر محمّد عبّاس -البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص19.

على أنه يصعب حصر أسماء رواد الحركة الإصلاحية التي سبقت نشأة الجمعية ذلك لأنّ زعماء الإصلاح من أبناء الجمعية الذين حملوا فكرة الإصلاح منذ بدايتها، هذا من ناحية، و من ناحية ثانية نجد جلّ شعراء تلك الفترة دعاة إصلاح أمثال عمر بن قَدُور⁽¹⁾، و المولود بن الموهوب⁽²⁾، و اللقباني السّائح⁽³⁾. و هكذا امتزج الأدب بالإصلاح و أصبح الواحد منهم أديبا صحافياً مصلحاً⁽⁴⁾. و قد التزم المصلحون تلك الوجهة تلقائياً استنكاراً للحالة المتعفّنة التي آلت إليها الجزائر - متأثرين بالحركات الإصلاحية في الشرق العربي و الإسلامي. يقول الشّيخ البشير الإبراهيمي: "لا نزاع في أنّ أوّل صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الدّيني و العلمي في الجيل السّابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبده رضي الله عنه و أنّه أندى الأئمّة المصلحين صوتاً و أبعدهم صوتاً في عالم الإصلاح. و حمل لواء الإصلاح بعد موت الإمام تلميذه الأكبر و وارث

¹ - 1886-1932. مفكّر و صحفي و شاعر، أسّس مجلّة الفاروق، كان كاتباً بليغاً و شاعراً إحيائياً. عمر بن قينة - أعلام و أعمال في الفكر و الثقافة و الأدب - منشورات اتحاد الكتاب - دمشق - 2000 - ص 35.

² - 1866-1939. عمل مدرّساً و أستاذاً للفقهاء، و أسندت له وظيفة الإفتاء. مؤلّف و أديب و عالم. له: مقدّمة ابن آجروم و مختصر الكافي في العروض و القوافي و شرح منظومة التوحيد و آداب الطريقت. محمّد بن رمضان و الغوثي بن حمدان - إرشاد الحائر غلى أدباء الجزائر - مرجع سابق - ص 565.

³ - شاعر جزائري، ولد بالجزائر في 1895 و ترّبّى بتونس. بعد عودته إلى الوطن أسّس مدرستين بتماسين و قمار. له قصائد نشرها بجريدة "صدى الصحراء" و "الشهاب" - المرجع نفسه - ص 595.

⁴ - صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - مرجع سابق - ص 33.

علومه السيّد محمد رشيد رضا. و قد كان في حياة الإمام ترجمان أفكاره باعتراف الإمام... و اضطلع بعد موته بحمل أعباء الإصلاح حين نكل عن حملها أقوام، و ضعف عن حملها أقوام.⁽¹⁾ فتصريح الشيخ الإبراهيمي يبرز درجة تأثر الحركة الإصلاحية في الجزائر بأختها في الشرق العربي. فقد كان لمحمد عبده و جمال الدين الأفغاني قبله و رشيد رضا بعدهما الأثر البين في النهضة الوطنية ببلادنا- بالرغم من الطوق الحديدي الذي طوّق به المحتلّ الشعب الجزائري لعزله عن إخوانه بالشرق العربي- فالحركة الإصلاحية بالجزائر تعدّ امتداداً لأختها في الشرق العربي و روادها في بلادنا أشقاء زعمائها بالشرق، و ما ابن باديس و البشير الإبراهيمي إلاّ الكفّة التي لا يستقيم ميزان الإصلاح في العصر الحديث إلاّ بوجودها، و قد ساعدهما في مسيرتهما الإصلاحية ثلّة من الأوّلين و ثلّة من الآخرين من العلماء المصلحين⁽²⁾ من أمثال الشيخ الطيّب العقبي، و الشيخ محمد خير الدين و العربي التبسي، و محمد مبارك الملي، و إبراهيم بيّوض، و أحمد بوشمال، و أحمد توفيق المدني، و الفضيل الورتلاني، و محمد الهادي السنوسي، و أحمد حمّاني، و حمزة بوكوشة، و أبو اليقظان، و عبد اللطيف سلطاني، و السعيد الصّالحي، و علي المغربي، و محمد العيد آل خليفة، و أحمد رضا حوحو، و أحمد سحنون... فهؤلاء جميعاً و غيرهم

¹ - السجل-مصدر سابق-ص36.

² - ينظر محمد بن سميّة-في الأدب الجزائري الحديث-النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر- مؤرّاتها. بدايتها. مراحلها-مطبعة الكاهنة-الجزائر-2003-ص53.

من المصلحين أمثال المولود بن الموهوب، حمدان الو نيس، و ابن براهيمات، جعلوا حياتهم كلّها وقفا على الإصلاح الدّيني سعيا منهم لتحرير العقول من الأوهام والخرافات و الرّجوع إلى العقيدة الصّافية، و نشر العلم و نبذ الجهل، و طالبوا بتحرير الدّين من السيّطرة الفرنسيّة⁽¹⁾، كما طالبوا بتكوين مدارس حرّة و تدريس علوم العربيّة في المساجد، و اعتبار اللّغة العربيّة لغة رسمية و اعتبار الجزائر جزءا من الأمة العربيّة الإسلاميّة لا امتدادا لفرنسا.⁽²⁾

3.I. أهداف الحركة الإصلاحية و وسائلها

عمدت الحركة الإصلاحية منذ نشأتها بل حتّى قبل ذلك -حين كانت مجرد أفكار تراود النّخبة من العلماء و المثقّفين - إلى تحقيق هدفين رئيسين يتمثّل الأوّل في الحفاظ على مقوّمات الأمة من لغة و دين و تاريخ و حضارة و يكمن الثّاني في محاربة الجهل و كلّ مظاهر التّخلف، فكان شعار الفكر الإصلاحي يتلخّص في نقطتين اثنتين:

- الرّجوع إلى الماضي العريق فكرا و ثقافة و تراثا مع صياغته على وجه يسائر العصر و هو ما عرف بعملية " الإحياء".

¹ - ينظر عبد الرحمان بن إبراهيم العقون-الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكّرات معاصر. 1920.1936-الجزائر-المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع-1984-ص24.

² - ينظر عبد الله ركيبي-الشعر الدّيني الجزائري الحديث-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر-1981م-ط1-ص560.

– نقد الواقع للخروج من التخلف المادي و الأدبي و الفكري.⁽¹⁾

و قد اعتمدت الحركة في عملها اتجاهين: أولهما الدعوة و الثاني الصراع، الدعوة إلى التاريخ المجيد و الاستفادة منه، و الصراع ضد الطرق الصوفية و أساليبهم و فهمهم الخاطئ للإسلام، هذا الأخير الذي نشأ بين الفريقين إنما حدث بعد الدعوة الجديدة إلى الإصلاح مما فجر بينهما معركة حادة دامت حتى سنة 1954 تاريخ اندلاع ثورة نوفمبر المظفرة.⁽²⁾

و لم يقتصر الصراع على رجال الزوايا و المرابطين الذين نصبوا أنفسهم حماة للفكر الصوفي، بل تعداه إلى المستعمر الذي كان سببا مباشرا في مظاهر الجهل و التخلف و كل ما تعانيه الأمة الجزائرية من مآسي و آلام. إلا أن المعركة الفكرية كانت موجّهة بصورة خاصة إلى أصحاب الطرق الصوفية المتشبهين بالنصوص القديمة من الفقه أو الدين، دون أن يحاولوا التجديد فيها بما يناسب العصر و يساهم في الفهم الصحيح للإسلام. جاءت الحركة الإصلاحية إذن "لترفع شعار الإسلام دينا و دولة و عقيدة و علاقات اجتماعية فكرا و فعلا، نظرا و عملا قواعد و نصوصا"⁽³⁾ و هي في هذا كله تغرف من منبع واحد لا يشوبه تغيير و لا تبديل ذلك هو القرآن

¹ – البشير الإبراهيمي-آثار الإبراهيمي- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-الجزائر-ط1-ج1-ص23.

² – محمد عباس-الإبراهيمي أديبا-مرجع سابق-ص15.

³ – عبد الله ركيبي-الشعر الديني الجزائري-مرجع سابق-ص583.

الكريم و السنة النبوية الشريفة. لأن الاعتماد على سواهما من التصوص أوقع الناس في البلبلة و الاضطراب و أدى إلى تمزق المسلمين و إلى ظهور شيع و فرق أضرت بالوحدة الإسلامية، لاسيما تلك الفرق المتصوفة المتزمتة التي لا تعتقد إلا في التصوص ذات الصلة بالتصوف و معانيه، و هو ما تعتبره الحركة الإصلاحية عائقا لا عاملا مساعدا لتطور المجتمع الإسلامي. و من ثمة عملت على "تحرير العقول من الأوهام و الضلالات في الدين و الدنيا و تحرير النفوس من تأليه الأهواء و الرجال".⁽¹⁾ و هكذا وجه رجال الإصلاح عنايتهم لمراجعة التراث و غربلته ليستردوا للغة العربية التي اعترها الجمود عصورها الزاهرة، و يستعيدوا لها حيويتها التي مكنتها في العصور الماضية أن تستوعب ثقافات الشعوب و الأمم.⁽²⁾ كما سعوا لتنقية الدين من الأوهام و الخرافات التي طغت عليه و أدخلت فيه ما ليس من جوهره و مبادئه، و عملوا على استرداد مكانته في النفوس ليصبح - كما في الماضي - قوة روحية و مبادئ اجتماعية تمكن من خلق حضارة عربية إسلامية تضيء العقل الإنساني، و تكشف له أسرار النفس و الروح، و توسع مداركه، و تفتح له آفاقا واسعة في العلم. لذلك كان لا بد من المطالبة بتحرير الدين من السيطرة الفرنسية و نشر التعليم العربي بتكوين مدارس خاصة، و تدريس علوم العربية في

¹ - البصائر - سل 2 - عدد 2 - 1366 هـ - 1947 م - ص 2.

² - عبد الله ركيبي - الشعر الديني الجزائري - مرجع سابق - ص 560.

المساجد، و اعتبار اللّغة العربية لغة رسمية.⁽¹⁾ و هي شعارات رفعتها الحركة منذ بدايتها و ألحّت عليها طوال مسيرتها الإصلاحية و عملت على تحقيقها فكان أن شيّدت المساجد و المدارس الحرّة و أنشأت النوادي و الجمعيات و أصدرت الصّحف لتجعل منها وسائل مسخّرة لخدمة الإصلاح و المصلحين و بالتّالي المجتمع الجزائري.⁽²⁾

أ- النوادي و الجمعيات

منذ تعالت التّداءات الوطنية و الإصلاحية مطلع القرن الماضي داعية إلى التخلص من الرّواسب و التّراكمات العفنة الّتي خلّفها الاستعمار الفرنسي في جميع مناحي الحياة، حاولت تسخير كافّة الوسائل المتاحة للاستعانة بها بدءا بالنّوادي و الجمعيات مرورا بالمدارس و المعاهد وصولا إلى الصّحف و المجلّات "و لا شكّ أنّ وسائل التّوعية قد اختلفت حسب درجة التّطوّر و الشّعور بالحاجة ... فكان الفضل الأوّل للمدرسة و المحاضرة و الخطبة تلقى هنا و هناك في موضوعات من صميم السّياسة أو الثّقافة."⁽³⁾ ثمّ ما فتئت أن عزّزتها النوادي و الجمعيات الّتي كانت منبرا لتنمية الوعي القومي الثّقافي و السّياسي لدى أبناء الشعب الجزائري.

¹ - المرجع السابق-ص561.

² - ينظر أبو القاسم سعد الله-دراسات في الأدب الجزائري الحديث-الدار التونسية للنشر. المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-1985م-ص114.

³ - عبد الله ركيبي-الشعر الديني الجزائري-مرجع سابق-ص114.

لقد ساهمت النوادي و الجمعيات الثقافية و المؤسسات الخيرية و الدينية في نشر مبادئ الحركة الإصلاحية من جهة، كما ساعدت على انتشار الثقافة و العناية بالأدب و الشعر من جهة ثانية. ففي جنباتها كانت تلقى المحاضرات و الندوات تناقش قضايا التعليم و الأدب و المجتمع⁽¹⁾ و لعلّ أبرز هاته الجمعيات و النوادي: الجمعية التوفيقية و الرشيدية و نادي الشبيبة الجزائرية بتلمسان⁽²⁾، و نادي الآداب العربية، إلى جانب نادي الترقّي و نادي صالح باي اللذين لعبا دورا حيويًا في الحياة الأدبية و الثقافية، و في الدعوة إلى إحياء اللغة العربية و الثقافة القومية.⁽³⁾ و لئن كان لنادي الترقّي الذي تأسّس سنة 1926 الأثر الكبير في نشر الإشعاع الإصلاحي -باعتباره المنبر العام للإصلاح- فإنّ باقي النوادي و الجمعيات غالبًا ما كان تأسيسها بإيعاز من الإدارة الفرنسية العامّة "لذلك فهي تدور في فلك من النشاط لا يتجاوز رضا الحاكم. و ربّما سخّرت منابرها للدعاية له، و التّنويه برسائله الحضارية و قد غلب عليها طابع التقرير العلمي. و كان نشاطها الفكري أشبه بالنشاط الديني الرسمي، و قد تكون أقرب إلى سياسة المستعمر و أهوائه. فإنّ

¹ - المرجع السابق-ص40.

² - تأسّس سنة 1910.

³ - ينظر عبد الله ركيبي-الشعر الديني الجزائري-مرجع سابق-ص40.

الأعضاء المؤسسين لهذه النوادي و المساهمين فيها جلّهم من الفرنسيين أو من ذوي الثقافة الفرنسية من أبناء الجزائر.⁽¹⁾

و شتّان بين هذه النوادي و بين نادي الترقّي -منبر الحركة الإصلاحية- الذي تجاوز قانونه الأساسي القاضي بتحريم الخوض في المسائل السياسية إلى مسائل تقع في صميم السياسة بشهادة أحد مؤسّسيه "لم يكن الجزائريون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال و كانت قوانين الأندجينا تحرّم الاجتماعات ، فكانت كلّ الحركات الجزائرية تتسم بقلة النظام إلى أن وفقنا الله لوضع معقل بعاصمة الجزائر كان له تأثيره العظيم على الحياتين السياسية و الاجتماعية و ذلك هو نادي الترقّي الذي تمكّنا من تأسيسه بعد جهود عظيمة، في أحسن موقع من العاصمة. فكانت قاعاته الفسيحة تجمع النخبة المفكّرة كلّها سواء بالعاصمة أم بداخل البلاد. و كانت المحاضرات و الحفلات الكبرى تتوالى فيه و يقبل الناس عليها إقبالا عظيما. و كنّا نسير بنادي الترقّي -رغم القوانين الصّارمة- في طريق الدعوة المليّة الوطنية من جهة و في طريق الدّعوة الإسلامية و العروبة الشّاملة من جهة أخرى. و قاوم النّادي نزعات الاندماج كما قاوم طلب الجنسية الفرنسية قصد الإحراز على الحقوق السياسية، و في هذا النّادي المبارك تمكّنا من تحقيق الحلم الذي كان يراود دعاة الحركة العربية الإسلامية ألا و هو تأسيس هيئة إسلامية عربية تنهض بالبلاد

¹ -صالح خرفي- الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص140.

نخضة جبارة داخل عروبتها و قوميتها و إسلامها فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.⁽¹⁾

هي جمعيات و نوادي كثيرة ظهرت إذن منذ منتصف القرن التاسع عشر، و اتسع نشاطها العملي مطلع القرن العشرين لتنتشر عبر كافة ربوع الوطن مغذية النشاط الفكري بالمحاضرات التي تلقى فيها، و المواسم الثقافية التي تنظمها.⁽²⁾ على أن الجمعيات و النوادي التي ظهرت في تلك الحقبة الزمنية تنقسم حسب توجهاتها و مراميها إلى ثلاثة أنواع:

— جمعيات و نوادي من تأسيس المستعمر و إشرافه: سواء الثقافية منها أم الاجتماعية. و يأتي في مقدمة الجمعيات ذات الطابع الثقافي: الجمعية التوفيقية الرشيدية و جمعية الهلال و نادي التقدم و نادي الشباب، و كلها بالجزائر العاصمة. و نادي صالح باي بقسنطينة. و هي جمعيات و نوادي يشرف عليها و يديرها المحتلّ إما مباشرة أو عن طريق أتباعه و مؤيديه من الجزائريين أنفسهم لذلك كان أثرها على الحركة الثقافية والأدبية ضعيفا⁽³⁾ أمّا الجمعيات الاجتماعية أو ذات الاهتمامات المختلفة، فيرأسها بعض الجزائريين منها الجمعيات الدينية الرسمية، كجمعية الميعاد الخيري و جمعية اتحاد الزوايا، و هي جمعيات مماثلة

¹ - القول لأحمد توفيق المدني تقلا عن صالح خرفي-الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص141.

² - ينظر صالح خرفي-المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص17.

³ -أحمد صاري-شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر-المطبعة العربية-الجزائر-2004-ص108.

لسابقاتها من حيث خضوعها للمحتلّ و ضعف تأثيرها في المجالين الأدبي و الثقافي.⁽¹⁾

— جمعيات و نوادي وطنية: و هي تابعة للحركة الوطنية الجزائرية أيّا كانت مشاربها.⁽²⁾ و تابعة من جهود الجزائريين و أهمّها: الجمعية الخيرية بالعاصمة التي ترأسها في أواسط العشرينيات الشيخ الدامرجي، ثمّ أعقبه الشيخ الطيب العقبي و الجمعية الخيرية بقسنطينة، أسّسها و ترأسها الشيخ ابن باديس. و تولّد عن هاتين الجمعيتين نوادي و مؤسّسات تعليمية تنضوي تحتها، تتقدّمها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " و هي أهمّ الجمعيات الوطنية و خير جمعية أخرجت للجزائر في تاريخها الحديث، و عملت على إخراجها من الظلمات إلى النور، و من الجهل إلى العلم، و من التقليد إلى التجديد و من العبودية إلى الحرّية..."⁽³⁾ و قد ساعد على انتشار الثقافة و العناية بالأدب و الشعر بعض النوادي التي أنشئت أوّل ما أنشئت لأغراض أبعد ما تكون عن الأدب. فقد أسّست لتكون متنفساً للوطنيين، و منبرا لاجتماعاتهم و منتدياتهم، و مركزا لانطلاق الأعمال الخيرية، كمساعدة الفقراء و الأيتام. و الثقافية، كإنشاء المدارس و إحياء العادات.⁽⁴⁾ و قد سبقت

¹ - ينظر محمد بن سمينة- في الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص52.

² - أبو القاسم سعد الله-الحركة الوطنية الجزائرية-دار الغرب الإسلامي-بيروت-ج2-ص162.

³ - أبو القاسم سعد الله-دراسات في الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص53.

⁴ - ينظر أبو القاسم سعد الله-دراسات في الأدب الجزائري الحديث -مرجع سابق-ص116.

تلكم النوادي أو واكبتها نواد أخرى منها: نادي الشبيبة الجزائرية بتلمسان، و النادي الإسلامي، اللذان يعدّان منبرا للدعوة. و نادي صالح باي بقسنطينة، الذي كان يؤمّه الشيوخ من الجيل الماضي، أمثال عبد القادر مجاوي و أبو القاسم الحفناوي.⁽¹⁾ و نادي الإرشاد تأسّس بسطيف سنة 1936 برئاسة فرحات عباس و كان يخدم السياسة و الإصلاح معا. و نادي الأخوة في شرشال و نادي الشبيبة و النادي الإسلامي في العاصمة و نادي ابن باديس و نادي الهدى في قسنطينة و نادي الإصلاح ببجاية و نادي الإخاء بيسكرة و غيرها من النوادي التي انتشرت في كلّ مدينة و قرية و كان أغلبها تابعا للكشافة الجزائرية. و قد كان لهذه النوادي ما كان للجمعيات التابعة للحركة الإصلاحية من الأثر الكبير في نشر الوعي الديني و الشعور الوطني و التكوين المعرفي⁽²⁾.

— و إلى جانب تلك الجمعيات، تأسّست أخرى تحمل طابعا أدبيا محضاً، في محاولة للتهوض بالحركة الأدبية- بالرغم من قلّة المتذوقين للأدب و الفنون- منها جمعية إخوان الأدب التي أنشئت بوهران سنة 1936 و كان يترأسها الشاعر محمد سعيد الزاهري، و في السنة ذاتها تأسّست جمعية السعادة لإحياء فنّ التمثيل العربي، كان مقرها بسطيف، كما تأسّست جمعية محبّي الفن و جمعية

¹ - عبد الله ركيبي-الشعر الديني الجزائري-مرجع سابق-ص116.

² - ينظر أبو القاسم سعد الله-دراسات في الأدب الجزائري-مرجع سابق-ص117.

المزهر للموسيقى بمدينة قسنطينة. بالإضافة إلى فرق وجمعيات أخرى، كفرقة محيي الدين باش تارزي و فرقة الطاهر فضلاء للتمثيل العربي.

إنّ المقام لا يتّسع لحصر جميع النوادي و الجمعيات -فليس هذا القصد من البحث- لذا نكتفي بما أوردناه عن بعضها، و يبقى أن نشير إلى الدور الحيوي الذي لعبته هذه الهيئات في النهوض بالأمّة في جميع المجالات السّياسية و الاجتماعيّة و الثقافيّة و من هنا كان الاحتفاء بالنّادي احتفاءً بمنبر جديد للإصلاح، منبر متنوّساً جديداً للذود عن اللّغة و العروبة و الإسلام. فرسالة النّادي تكمن في تشخيص الأدواء الاجتماعيّة و الانحرافات الخلقية و تقصّيها لفضحها و القضاء عليها من ناحية و الالتفات إلى الماضي لاستقراء الأجداد الغابرة و الاعتبار بها من ناحية ثانية و بهذا كان النّادي بمثابة المصحّة و هو أبعد ما يكون عن التّسليّة و قتل الفراغ و كانت جمعية العلماء " ترى أنّ النوادي الّتي أسّستها أو تؤسّسها هي في حكم مدارس التّعليم و مكملّة لوظائفها لأنّ طبقات الأمّة ثلاث: صغار تضمّمهم المدارس الابتدائية و كبار تجمعهم المساجد و شبّان تتخطفهم الأزقة و أماكن الخمر و الفجور، فإذا أرادت الجمعية أن تقوم بواجبها الدّيني معهم لم تجدهم لا في المساجد و لا في المدارس. فمن واجب الجمعيّة أن تنشّط النوادي لتقوم بمهمّتها التّهديبية فيها..."⁽¹⁾

¹ -القول للشيخ البشير الإبراهيمي نقلا عن الشيخ محمد خير الدّين-مذكّرات-مصدر سابق-ص137.

ب- المدارس والمعاهد

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "... حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس، ما في هذا شكّ، إلّا أنّ قلوبا ران عليها الجهل، وغان عليها الفساد، و نفوس ختم عليها الضلال و ضرب على مشاعرها المسخ، و طال عليها الأمد في الرقّ، فصدأت منها البصائر، و عميت الأبصار، فتغيّر نظرها في الحياة و وسائلها، فرضيت بالدّون و لاذت بالسّكون.

الحياة بالعلم، و المدرسة منبع العلم، و مشرع العرفان، و طريق الهداية إلى الحياة الشريفة، فمن طلب هذا النوع من الحياة من غير طريق العلم زلّ، و من التمسها هداية إليه من غيرها ضلّ، و حياة الأمم التي نراها و نعاشرها شاهد صدق على ذلك.⁽¹⁾ و لأنّ المحتلّ كان يدرك تمام الإدراك ما للمؤسّسات الدّينية التعليمية من دور في نشر الوعي بين الجزائريين و تعريفهم بكنوز حضارتهم، عمد إلى إغلاق تلك المؤسّسات و الاستيلاء على الأوقاف التي كانت تموّلها، و ملاحقة القائمين عليها. و بالمقابل فتح مدارس تابعة له تخدم أغراضه الاستعمارية و مراميه الاستيطانية فكان أن افتتحت سنة 1850م "... درّا للرّماد في العيون من نحو، و خدمة لأغراضهم من نحو ثان، ثلاث مدارس تتمركز كلّ منها في واحدة من

¹ -البشير الإبراهيمي-آثار الشيخ البشير الإبراهيمي-الجزائر-الشركة الوطنية والتوزيع-ج1-ط1-1978م ص283.

العمالات الثلاث بالجزائر يومئذ، وقد أطلق عليها اسم المدارس الفرنسية الإسلامية...⁽¹⁾

و اعتبرت اللغة العربية في تلك المدارس⁽²⁾ لغة ثانية بعد اللغة الفرنسية. و كانت النتيجة الحتمية لتلك الخطة الاستعمارية أن انحسر العلم في ربوع الوطن و تفسّى الجهل و عمّت الأمية و بقي الحال على حاله إلى قيام النهضة الوطنية التي كانت إيذانا بانطلاقة رائدة للنهضة التعليمية الحرّة. على أنّنا لا نعدم وجود بعض الجهود الفردية في تأسيس المدارس الحرّة التي فتحت موازاة مع المدارس التي فتحتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منها: المدرسة العربية الصديقية الحرّة التي أسّسها السيد ابن حمّانة و الأخوين عمر و بكير العنق⁽³⁾ بمدينة تبسة سنة 1913م، و مدرسة السلام في حيّ القصبة⁽⁴⁾ و مدرسة الشّيبية الإسلامية الجزائرية بالعاصمة⁽⁵⁾ و معهد الحياة بالقرارة⁽⁶⁾ و مدرسة التربية و التّعليم بقسنطينة⁽⁷⁾. و قد كان لجمعية العلماء المسلمين الأثر البيّن في نشر العلم و تربية النّشء وفق تعاليم الدّين الحنيف و ربطه

¹ - محمد بن سميّة- في الأدب الجزائري الحديث- مرجع سابق-ص37.

² - أولى تلك المدارس كانت بمدينة المديّة ثمّ انتقلت إلى العاصمة سنة 1859، و الثّانية بمدينة قسنطينة شرق الجزائر، أمّا الثّالثة فيتلمسان بالغرب الجزائري. محمد بن سميّة- في الأدب الجزائري الحديث- مرجع سابق-ص37.

³ - المدرسة لم تعمّر طويلا إذ أغلقها المستعمر بعد فترة وجيزة. المرجع نفسه-ص38.

⁴ - تأسّست في العشرينيات من القرن الماضي.

⁵ - سنة 1924م. المرجع نفسه-ص39.

⁶ - سنة 1925. المرجع نفسه-ص40.

⁷ - سنة 1930. المرجع نفسه-ص40.

بمحاضراته العريقة من خلال ما أنشأته من مدارس حرة عبر الوطن سخرتها لبعث أجداد الأمة وإحياء اللغة العربية ، و بثّ الثقافة القومية و تطوير الأدب العربي. و المدارس الجزائرية أكثر من أن تعدّها في هذا البحث لذا نكتفي بما أورده الدكتور محمد بن سمينة في مؤلّفه " النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر " مصنّفًا إيّاها حسب الثلاث التي كانت موجودة في البلاد آنذاك و هي على التّوالي⁽¹⁾:

1- عمالة قسنطينة:

- مدرسة الإخاء للتربية بسكرة 1931.
- مدرسة الحياة بجيجل 1933.
- مدرسة التّهديب بالميلة 1934.
- مدرسة التربية و التّعليم بباتنة 1937.
- معهد ابن باديس بقسنطينة 1947. و هو المدرسة الثانوية العربية الوحيدة في الجزائر يومئذ و كان له الفضل الكبير في خدمة الفكر الإسلامي و المحافظة على اللغة العربية و نشر العلم و مقاومة الجهل و تحصين الجيل من أخطار المخطّط التّغريبي و إعدادة للتّورة و التّحرير...

¹ - محمد بن سمينة- النهضة الأدبية الحديثة-مرجع سابق-ص40.

2- عمالة الجزائر:

- مدرسة شريفة الأعمال بالقصبة في العاصمة 1934.
- المدرسة الصديقية بسلام باي بالعاصمة 1941.
- مدرسة الشباب بالعاصمة 1944.
- المدرسة التّهذبية ببولوجين بالعاصمة 1949.
- مدرسة التّهذيب بالبليدة 1952.

3- عمالة وهران:

- المدرسة الإصلاحية بوهران. 1935.
- مدرسة دار الحديث بتلمسان 1937.
- مدرسة التربية و التعليم بمستغانم 1944.
- مدرسة التربية و التعليم بسيدي بلعباس 1945.
- مدرسة التربية و التعليم بالبيض.

و هكذا توالى المدارس و تعاقبت رغم تعنت المستعمر و تعقبها و مطاردة معلّميها و القائمين عليها، لتنتشر في الثلاثينيات و الأربعينيات بصورة أذنت بوثة عملاقة في تاريخ النّهضة الوطنية، خاصة و أنّها لقيت "التفافا قوميا حولها، و إقبالا من الناشئة عليها..."⁽¹⁾ و في تلك الحقبة الزمنية اكتست المدارس أبعادا قومية

¹ - محمد بن سمينة- النّهضة الأدبية الحديثة-مرجع سابق-ص41.

و سياسية بعدما كانت أوّل الأمر تعمل على رفع الأمّية و تصحيح العقيدة دون الخوض في السياسة.

و كأنّا بالتسلسل التاريخي الذي سار عليه رجال الإصلاح تتضح معالمه في جنبات تلك المدارس الحرّة. إذ بدأت أوّل ما بدأت بإصلاح الذات من خلال توعية الناشئة و العمل على تشخيص أمراض الأمّة، و مطالبتها بالرجوع إلى أصولها الحضارية و الدّينية لتجد فيها الدّواء الشّافي و المورد الكافي، لتنتقل إلى الخطوة الموالية التي كانت قد حرّمت على نفسها الخوض فيها قبلا، و المتمثّلة في إذكاء الحسّ الوطني و القومي، و في أعقاب الحرب العالمية الثانية تسفر عن وجهها الحقيقي لتصبح مدارس حربية تحمل رسالة الجهاد و التّحرير و تعمل على تخريج دعاة الثورة و حملة السّلاح.

ج- الصّحافة الوطنية:

لا شكّ أنّ تأخّر ظهور الصّحافة الوطنية بالجزائر يعود إلى أسباب و عوامل عدّة، لعلّ أوّلها انعدام الحرّية تحت نير الاحتلال. فمصادرة الحرّيات السياسية و التّعبير و التّشّرك كان ديدن المحتلّ، ينضاف إلى ذلك مشكل الطّباعة و النشر"فإحياء التّراث و نشر الصّحف وخلق أدب جديد يواكب التطوّر في المجتمع لم يتمّ سوى في القرن الحالي⁽¹⁾ لظروف كثيرة."⁽²⁾

¹ - يقصد به القرن العشرين.

² - أديب مروة-الصحافة العربية.نشأتها و تطوّرهما-بيروت-منشورات دار مكتبة الحياة-ط1-1961-ص223.

لقد عمد المحتلّ إلى إخماد كلّ جذوة يمكنها أن توقظ الحسّ الوطني و تذكّيه. فإلى جانب مطاردة العلماء و المثقّفين، و إغلاق المدارس و المعاهد التّعليمية، و تشريد القائمين عليها، عمل على رصد حركة الصّحافة و مراقبتها - في حال السّماح بإصدارها- و بالمقابل شجّع الصحف الّتي كانت أبواقا له تزكّيه و تباركه. و كان بعض تلك الصّحف يصدر باللّغة الفرنسية كصحيفة الأخبار الّتي صدرت سنة 1839م، ثمّ المبشر سنة 1847م. و بعضها يصدر باللّغة العربية، إلاّ أنّ توجّها استعماري، مثل صحيفة المغرب الّتي صدرت بالعاصمة سنة 1903م، و كوكب إفريقيا الّتي ظهرت بالعاصمة أيضا سنة 1907م، و كان يشرف عليها الاحتلال و تحرّرها أقلام جزائرية على رأسها الشيخ محمود كحول. و إلى جانب هذه الصّحف ظهرت أخرى لا تختلف عنها و جهة و غاية، سواء أصدرها مستشرقون فرنسيون أم أتباعهم من علماء الدّين الرّسميين، من ذلك جريدة النصيحة الّتي صدرت سنة 1904م، و كوكب إفريقيا الصادرة سنة 1907م و أصدرها محمود كحول المفتي الرّسمي.⁽¹⁾ و أخبار العرب الصّادرة سنة 1912م. و كانت تلك الجرائد الرّسمية سقيمة اللّغة، ركيكة الأسلوب، ذلك لأنّ المحتلّ لم يكن يجد من يحرّر له الصحف من الكتّاب المجيدين للّغة العربية، هذا من ناحية، ثمّ

¹ - عبد الملك مرتاض- أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962) رصد لصور المقاومة في النثر الفني-الجزائر- منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أوّل نوفمبر 1954-2003.ص67.

إنّه لم يكن يكثرث بأسلوب تلك الجرائد ولا بلغتها، فخدمة اللغة العربية لم تكن هدفه أبداً.⁽¹⁾

و أمّا الصحافة الوطنية، و على الرّغم من الحصار الشّدِيد المفروض على الأمة، فقد استطاعت أن تشقّ طريقها إلى الوجود و تبّلع الرّسالة، و تؤدّي الأمانة. و لئن كانت توأد و هي لا تزال فتية، فقد كانت تعوّض بأخرى تحمل المشعل، و تواصل المسيرة الإصلاحية و النّضالية، بفضل عزيمة الوطنيين و صمودهم أمام التّيّار الدّعائي للمستعمر والأقلام التي تخدمه. و كان بعض تلك الصّحف - إن لم نقل أغلبيتها- يسفر عن وجهه الإصلاحي، مثلما هو شأن جريدة الجزائر لعمر راسم الصادرة سنة 1908م التي لم تعمّر طويلاً إذ كانت الرّقابة لها بالمرصاد. و جريدة الحقّ الوهراني الصّادرة سنة 1911⁽²⁾ و جريدة ذو الفقار التي أصدرها عمر راسم سنة 1913م باسم مستعار هو ابن منصور الصنهاجي. كما صدرت قبل الحرب العالمية الأولى جريدة الفاروق لعمر بن قُدّور العربي و الإسلامي.⁽³⁾ أمّا الإقدام فقد أصدرها الأمير خالد بعد الحرب و كانت فرنسية اللّسان في أوّل عهدها ثم أضفي عليها وجهاً عربياً إبتداءً من العدد السّادس و الثّلاثين. و صدّى الصّحراء أصدرها ابن العابد 1925م، و هي أوّل جريدة عربية أثارت المواضيع

¹ - المرجع السابق-ص66.

² - صالح خرفي-المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص64.

³ - محمد بن صالح ناصر-الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954-دار ألفا للنشر-الجزائر-ط2-2006-ص68.

السياسية⁽¹⁾ و المنتقد التي أصدرها ابن باديس بقسنطينة سنة 1925" فكانت الفاتحة الميمونة في سجل حركة الإعلام الوطني و الانطلاقة الرشيدة على درب النهضة العامة الفكرية و الأدبية و الاجتماعية. فقد فتحت صدرها للأدباء و احتضنت أعمالهم فعرفت البلاد على صفحاتها ميلاد النهضة الأدبية.⁽²⁾ و قد استوحت المنتقد اسمها من شعار الطرفين السائد في تلك الفترة "اعتقد و لا تنتقد." و على صفحاتها برز الإنتاج الفكري و الصراع العقائدي بين الحركة و خصومها. و لم يختلف مصيرها عن مصير مثيلاتها، إذ أوقفها المستعمر بعد صدور أعداد قليلة منها. ثم أعقبت مجلة الشهاب الأسبوعية التي عمّرت من سنة 1926 إلى 1929.⁽³⁾

و في تحدّ صارخ للعدوّ، تحوّل الشهاب الأسبوعي إلى مجلة شهرية فرضت أفكارها و مبادئها لمدة عشر سنوات. و كانت بذلك، المدرسة الفكرية و الأدبية التي استقطبت روادّ النهضة الأدبية الجزائرية الحديثة.⁽⁴⁾

و في السنة التي أعقبت ظهور الشهاب الأسبوعي أصدر الشيخ الطيب العقبي جريدة الإصلاح في بسكرة.⁽⁵⁾ و إلى جانب هذه الجرائد و المجالات ظهرت

1 - المرجع السابق-ص 69.

2 - محمد بن سميّة-في الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص 44.

3 - ينظر صالح خرفي-المدخل إلى الأدب الجزائري-مرجع السابق-ص 65.

4 - المرجع نفسه-ص 66.

5 - ينظر محمد ناصر -الصحف العربية الجزائرية-مرجع سابق-ص 93.

سلسلة صحفية من إمضاء أبي اليقظان، كان أولها جريدة وادي ميزاب سنة 1926م، و ميزاب، و المغرب، و النّور، و البستان، و النبراس، و الأُمَّة، و الفرقان. و هي سلسلة ناضلت على مختلف الجهات: السّياسية و الإصلاحية و الفكرية و الأدبية.

و في سنة 1938 صدرت آخر جرائد الفرقان⁽¹⁾. و موازاة مع تلكم الجرائد برزت إلى الوجود صحف ذات نزعة صوفية منها: لسان الدّين⁽²⁾ الّتي أصدرها سنة 1923 مصطفى حافظ، و البلاغ الجزائري⁽³⁾ أصدرها الشّيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة سنة 1926 و الإخلاص⁽⁴⁾ لمولود الحافظي أصدرها سنة 1932 و الرّشاد⁽⁵⁾ لعبد الحفيظ القاسمي (1938). و كان بين هاته الصّحف و الصّحف الإصلاحية خلاف في الفكر و وجهات النّظر و هو ما أثمر عن ظهور مناظرات و نقائض كان لها الأثر الكبير في تنشيط الحركة الفكرية و الأدبية⁽⁶⁾. كما صدرت صحف ذات نزعة سياسية - و إن كانت محدودة الوجود و التّأثير - منها الأُمَّة 1930 و المغرب العربي أصدرها محمد السعيد الزاهري بالعاصمة

¹ - صالح خرفي- المدخل إلى الأدب الجزائري-مرجع سابق-ص67.

² - المرجع نفسه -ص56.

³ - المرجع نفسه -ص87.

⁴ - المرجع نفسه -ص139.

⁵ - المرجع نفسه -ص248.

⁶ - ينظر محمد بن سمينة- في الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص46.

1947 و الشّباب المسلم الّتي أصدرتها جمعية العلماء باللّسان الفرنسي سنة

1952 و المنار أصدرها محمود بوزوزو سنة 1951.⁽¹⁾

و لما بزغ فجر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثلاثينيات، أصدرت سلسلة

من الصّحف تنضاف إلى مجموع الصّحف الّتي أصدرها بعض أعضائها من قبل،

و غيرهم من رجال الإصلاح و المفكّرين، فكانت السنّة، و الشريعة،

و الصّراط، و البصائر. و كان على رأس هذه الأخيرة في سلسلتها الأولى-

من 1936 إلى 1939- العقبي ثمّ أعقبه الملي، أمّا السّلسلة الثّانية فترأسها الشّيخ

الإبراهيمي من 1947 إلى 1956.⁽²⁾

إنّ مجموع تلك الصّحف، و غيرها ممّا لا يتّسع صدر البحث لذكره، كان له عظيم

الأثر في بعث الحركة الأدبية بل النهضة الوطنية في جميع مجالاتها الفكرية

و الاجتماعية و السّياسية. فعلى التّقيض ممّا كان يصبو إليه المحتل راحت الصّحافة

-و خاصّة الإصلاحية منها- تبثّ روح الإصلاح و الوطنية و الجهاد في نفوس

أبناء هذا الوطن العربي الإسلامي، و تتبّع خطواتها و توأكب أحداثها. فكانت

بذلك السّجل الأمين للمسيرة التّضالية و التحرّرية للشّعب الجزائري.⁽³⁾

¹ - المرجع السابق- ص 181- 263- 37- 266.

² - محمد ناصر- الصحف الجزائرية- مرجع سابق- ص 145- 166- 200- 212- 268.

³ - صالح خرفي- صفحات من تاريخ الجزائر دراسات و مقالات من 62 إلى 72- الشّركة الوطنية للنّشر و التّوزيع-الجزائر-ص 101.

II. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تعد الثلاثينيات أزهى فترات الفكر الإصلاحي بالجزائر، إلا أن المتتبع لمساره التاريخي يجد أن بواده قد بدت قبل هذا التاريخ وأخذت تتبلور شيئاً فشيئاً حتى قامت الحرب العالمية الأولى⁽¹⁾ فبدأت تبرز بشكل منظم إلى أن اتضحت معالمها سنة 1925 بظهور جريدة المنتقد⁽²⁾، وهي أول جريدة رفعت شعار الفكر الإصلاحي بكل جرأة ووضوح: "الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء"⁽³⁾ و كانت الجريدة وثبة في النهضة الجزائرية مكنت من تأسيس جمعية تجمع شمل العلماء و الطلبة و توحيد جهودهم، و تقارب بين مناحيهم في التعليم و التفكير و تكون صلة تعارف بينهم..."⁽⁴⁾ و يجمعوا أشتاتهم حتى يكونوا من مجموعهم جبهة دفاع قوية تقف في وجه ذوي العقائد الزائفة لتردّ إفك الأفاكين و تدحض حجج الدجالين المضللين."⁽⁵⁾

غير أن أول من بادر إلى تحقيق الحلم المنشود و تحويله إلى واقع ملموس هو الشيخ عبد الحميد بن باديس. إذ كانت اللبنة الأولى لتأسيس الجمعية على يديه

1 - عبد الله ركيبي-الشعر الديني الجزائري الحديث-مرجع سابق ص559.

2 - المنتقد: جريدة أسبوعية أصدرها ابن باديس، صدر أول عدد منها يوم الخميس 2 جويلية 1925م- و لم نعلم إلا ثمانية عشر أسبوعاً. محمد بن صالح ناصر-الصحف العربية الجزائرية- مرجع سابق-ص58.

3 - عمّار الطالبى-ابن باديس حياته و آثاره-مرجع سابق.ج1-ص82.

4 - البشير الإبراهيمي- آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي-مصدر سابق ج1-ص419.

5 - عبد الله ركيبي-الشعر الديني-مرجع سابق-ص562.

سنة 1913م، حين كان الإمام مقيماً بالمدينة المنورة مع رفيقه البشير الإبراهيمي، وكان الاتفاق المبدئي، و الخطة الأولى لمشروع تأسيس جمعية إسلامية⁽¹⁾. يقول الشيخ الإبراهيمي: "و أشهد الله على أن تلك الليالي من عام 1913 هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين و التي لم تبرز للوجود إلا عام 1931م⁽²⁾ بعد عشر سنوات من رجوع الإمام ابن باديس من الحجاز، بدأ تفكيره يتجه إلى توسيع الخطة الإصلاحية التي شرع في تنفيذها بتعليم الناس و إرشادهم و تصحيح أمور دينهم و استنهاض همم العلماء، و تأكد لديه أن معركة الدفاع عن الجزائر و عن مقوماتها لا يمكن أن يقوم بها شخص واحد أو مجموعة محدودة العدد، لذلك أخذ منذ سنة 1924م يتطلع إلى الدخول في مرحلة جديدة تتكامل فيها وسائل العمل التضالي، و يوجه فيها جهد المخلصين من أبناء الوطن للتصدي للمستعمر و إفشال سياسته، فباشر في عقد اللقاءات مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، تارة في سطيف و أخرى في قسنطينة لدراسة الوضع في الجزائر و البحث عن السبل الكفيلة بمعالجته. يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "زارني الأخ الأستاذ عبد الحميد بن باديس و أنا بمدينة سطيف، أقوم بعمل علمي في زيارة مستعجلة سنة 1924م - فيما أذكر - أخبرني بموجب الزيارة في أول جلسة، هو أنه عقد على تأسيس جمعية باسم "الإخاء العلمي" يكون مركزها العام بمدينة

¹ - عبد الله ركيبي - الشعر الديني - مرجع سابق - ص 562.

² - البشير الإبراهيمي - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 430.

قسنطينة العاصمة العلمية... تجمع شمل العلماء و الطلبة و توحد جهودهم و تقارب بين مناحيهم في التعليم و التفكير، و تكون صلة تعارف بينهم، و مزيلة لأسباب التناكر و الجفاء...⁽¹⁾ و عهد ابن باديس إلى الإبراهيمي بأن يضع قانونا أساسيا لهذه الجمعية فوضعه في ليلة و قرأه في صباحها⁽²⁾. و كانت هذه العملية أول بادرة تنظيمية، و إن لم يكتب للجمعية أن تؤسس في تلك السنة لكنه تمخضت عنها جمعية أخرى أخذت رسميتها و شهرتها تحت اسم "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" سنة 1931م.⁽³⁾ يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "من الأعمال ما يكون الفشل فيه أجدى من النجاح و هذا هو ما شاهدناه في تأسيس جمعية الإخاء العلمي، فقد فشلنا في تأسيسها ظاهرا و فيما يبدو للناس، و لكن المحاولات لم تذهب بلا أثر في المجتمعات العلمية الجزائرية حتى كان من نتائجها بعد أعوام جمعية العلماء المسلمين."⁽⁴⁾

بعد تلك اللقاءات الممهدة التي كانت تتم بين الشيخين ابن باديس و الإبراهيمي، فكر الشيخ عبد الحميد بن باديس أن يخطو خطوة عملية تكون تمهيدا مباشرا للشروع في تأسيس الجمعية. و يذكر الشيخ خير الدين في مذكراته أنه في عام 1928م، دعا الشيخ عبد الحميد الطلاب العائدين من جامع الزيتونة و المشرق

¹ - البشير الإبراهيمي - آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - مصدر سابق - ج1 - ص119.

² - المصدر نفسه ص120.

³ - ينظر محمد عباس - البشير الإبراهيمي أديبا - مرجع سابق ص 43.

⁴ - البشير الإبراهيمي - آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - مصدر سابق - ج1 - ص120.

العربيّ لندوة يدرسون فيها أوضاع الجزائر. و قد سطرّ في الاجتماع برنامج محدد يهدف إلى النهوض بالجمعية المزمع إنشاؤها و كان ذلك هو ميلادها.⁽¹⁾

و في الفترة الممتدة ما بين عام 1926م و 1930م برز نادي الترقّي فكان ملتقى التّخبة المفكّرة، تلقى فيه المحاضرات، و تقام الحفلات. و داوم الشيخ ابن باديس - كلّما قدم إلى الجزائر العاصمة- على المحاضرة فيه و الاجتماع بالشّباب النّاهض المتوتّب من طلبة العلم و المفكّرين. فكان النّادي بذرة صالحة للنّهضة الجزائريّة خاصّة و أنّ تكوين اللّجنة التّحضيرية التي انبثقت عنها الجمعية كان بمقرّ النّادي⁽²⁾.

1.II. تأسيس الجمعية

تأسّست جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين عقب الاحتفال بمضي قرن على احتلال الجزائر.⁽³⁾ فكان ذلك ردّا عمليّا على المحتفلين الّذين كانت أصواتهم تردّد "الجزائر فرنسيّة." و كان شعار العلماء المصلحين "الإسلام ديننا، العربيّة لغتنا، الجزائر وطننا." في الخامس من ماي 1931م اجتمعت بنادي الترقّي الهيئة المؤسّسة للجمعية و المؤلّفة من أشخاص حياديين ينتمون إلى نادي الترقّي غير معروفين بالتّطرف، لا يثير ذكرهم حساسية أو شكوكا لدى الحكومة الفرنسيّة

¹ - ينظر الشّيخ محمّد خير الدّين-مذكّرات-مصدر سابق-ج1-ص103.

² - أبو القاسم سعد الله-الحركة الوطنيّة الجزائريّة-مرجع سابق-ج3-ص83.

³ - عمر بن قينّة -في الأدب الجزائري الحديث- ديوان المطبوعات الجزائريّة-الجزائر-1995م-ص60.

و لا عند الطرفين، أعلنوا أنّ الجمعية دينية تهذيبية تسعى لخدمة الدين و المجتمع لا تتدخل في السياسة و لا تشتغل بها.⁽¹⁾

لبي الدعوة و حضر الاجتماع التأسيسي أزيد من سبعين عالما من شتى الاتجاهات الدينية و المذهبية كما حضر الاجتماع طلبة العلم من مختلف جهات الوطن، و انتخب الشيخ ابن باديس-غياييا- رئيسا للجمعية.

2.II. روادها

تأسست الجمعية، و تشكل مجلسها الإداري المنبثق عن الاجتماع من سبعة أعضاء⁽²⁾ إضافة إلى أعضاء مستشارين⁽³⁾. و نظرا لكون أغلب أعضاء المجلس يتواجدون بعيدا عن العاصمة، تقرر تعيين لجنة دائمة يكون أفرادها ممن يقيمون بالعاصمة، تتألف من خمسة أعضاء.⁽⁴⁾ تكون على اتصال دائم برئيس الجمعية بقسنطينة، و تتولى التنسيق بين الأعضاء و تحفظ الوثائق، و تضبط الميزانية و تحضر الاجتماعات الدورية للمجلس الإداري.⁽⁵⁾ و تجدر الإشارة إلى أنّ بعض أعلام الجمعية لم يكن لهم دور يذكر، بل كان انتخابهم لظروف مرحلية معينة، و من

¹ - أبو القاسم سعد الله- الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ج3-ص83.

² - عبد الحميد بن باديس رئيسا، البشير الإبراهيمي نائبه، محمد الأمين العمودي الطيب العقبي، مبارك الميللي، إبراهيم بيوض .

³ - المولود الحافظي، الطيب المهاجي، مولاي بن شريف، السعيد البحري، حسن الطرابلسي، عبد القادر القاسمي، الفضيل الورتلاني .

⁴ - عمر إسماعيل، محمد المهدي، آيت سي أحمد عبد العزيز، محمد زميل لي الحاج عمر العنق.

⁵ - السجل-مصدر سابق- ص 56.

هؤلاء ممثلو الزوايا من الطرفين، و موظفون حكوميون ممن لم يكن الإصلاح غايتهم⁽¹⁾.

و يعدّ العام الثاني لتأسيس الجمعية بداية انطلاقها الحقيقيّة. ففي تلك السنة قويت شوكتها و انتقلت من الفوضى و الاضطرابات إلى التنظيم المحكم و العمل الدقيق بعدما باءت مؤتمرات الأعداء بالفشل و " تأسّس المجلس الثاني من رجال جمعت بينهم الرغبة الصادقة في الإصلاح و التعاون على البرّ و التقوى، لم يدّخروا جهدا في سبيل تحقيق غايتهم النبيلة..."⁽²⁾ و حتّى يسهل الإشراف على متابعة العمل الإصلاحي و تنشيط العمل التربوي كلّف الشيخ الطيّب العقبي للإشراف على العمل بالعاصمة و ضواحيها، و كلّف الشيخ البشير الإبراهيمي بالجهة الغربيّة من البلاد انطلاقا من تلمسان و أبقى بقسنطينة و ما الغربيّة من البلاد انطلاقا من تلمسان و أبقى بقسنطينة و ما جاورها تحت إشرافه شخصيا.⁽³⁾ و بعد مضي ستّ سنوات من عمر الجمعية، بادر الإمام عبد الحميد بوضع إطار حرّ و شامل للجمعية يعدّ دستورا تسيّر على هديه في نشاطها الإصلاحي و التعليمي.⁽⁴⁾

¹ - أحمد الخطيب - جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي - مرجع سابق - ص 119.

² - الشيخ خير الدين - مذكرات - مصدر سابق - ص 120.

³ - أبو القاسم سعد الله - الحركة الوطنيّة الجزائرية - مرجع سابق - ج 3 - ص 83.

⁴ - سجلّ مؤتمر جمعية العلماء - مصدر سابق - ص 54.

3.II. أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و مبادئها

لخص ابن باديس مبادئ و أهداف الجمعية في قوله "القرآن إمامنا، و السنّة سبيلنا و السلف الصّالح قدوتنا و خدمة الإسلام و المسلمين و إيصال الخير لجميع سكّان الجزائر غايتنا".⁽¹⁾

هو إعلان صارخ و صريح، و دعوة للإصلاح الدّيني و التّعليمي بالجزائر دون الخوض فيما سواهما فقد جاء على لسان رئيس الجمعية أنّها "...يجب ألاّ تكون إلاّ جمعية هداية و إرشاد لترقي الشّعب من وهنة الجهل و السّقوط الأخلاقي إلى أوج العلم و مكارم الأخلاق في نطاق دينها الذهبي، و بهداية نبيّها الأميّ الذّي بعث ليتمّم مكارم الأخلاق عليه و آله الصّلاة و السّلام، و لا يجوز بحال أن يكون لها بالسياسة و كلّ ما يتّصل بالسياسة أدنى اتّصال..."⁽²⁾ فبدأت الجمعية يحرمّ عليها الخوض في الأمور السّياسية و من ثمّ و جهت اهتمامها صوب التّعليم و محاربة البدع و الخرافات. يقول د.روجي جارودي⁽³⁾ "إنّ ابن باديس و الإبراهيمي و رجال الجمعية حاربوا التّعليم الاستعماري الهادف إلى تحطيم مقوّمات الشّخصيّة و قطع الطّفّل الجزائري عن الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، و حاربوا كذلك العقليّة الخرافيّة

¹ - السجل - مصدر سابق - ص 76.

² - المصدر نفسه - ص 54.

³ - فيلسوف و مفكّر معاصر. أشهر إسلامه في جوفيف سنة 1982م - له كتاب بعنوان "حوار الحضارات". عن الشبكة العنكبوتية - ويكيبيديا.

(المرابطة) فتلك العقلية بما فيها من خرافات إشاعات تتنافى مع روح الإسلام".⁽¹⁾
 و يرى السيد جوزيف ديارمي⁽²⁾ أن أهداف الجمعية تتمثل في فهم لغة القرآن،
 و العودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة و اعتبار المغرب العربي قلعة للعبرية الشرقية
 في وجه الغرب، و تنقية و تبسيط الدين الإسلامي، و لقد لاحظ الكاتب أن كلمة
 السرّ لدى العلماء هي "تعلموا... توحدوا".⁽³⁾

و يستنبط الكاتب ذاته أهداف جمعية العلماء من مجلة الشهاب و يؤكد أنها تتمثل
 في إيقاظ الجزائريين من سباتهم ليطلبوا بحقوقهم و يأخذوا مكانهم في الحياة الكريمة
 و تخلص الدين من الخرافات.⁽⁴⁾

إلى هنا يبدو و كأنّ أهداف الجمعية تظل بعيدة عن السياسة، لكنّ المستقرئ
 لتلك الأهداف سرعان ما يجدها تصبّ في صميم السياسة -سواء عن قصد أم عن
 غير قصد- يقول د. جوان جيلبسي⁽⁵⁾:

"كان مذهب العلماء أصلاً مذهباً دينياً و لكنّ نداءاتها السياسيّة أفادت في إيقاظ
 المشاعر القوميّة في الجماهير الجزائريّة. و في سنة 1938م، أكّد ابن باديس أنّ

¹ - روجي جارودي -مجلة الثقافة -ع76-أوت 1983م"الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم".

² - مستشرق فرنسي، تناول تاريخ الجزائر، و لاسيما اللغة العربية في كتابه "ردّ الفعل اللغوي-أبو القاسم سعد الله-
 الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ص264.

³ - المرجع نفسه-ص86.

⁴ - المرجع نفسه-ص87.

⁵ - فيلسوف و مفكّر أمريكي. قدّم أطروحة دكتوراه بعنوان "الثورة الجزائرية" بجامعة واشنطن
 في 1959م. عن الشبكة العنكبوتية-ويكيبيديا.

الإسلام دين الله، و يجب بالأولى أن يكون دين الإنسانية. إنه يشرف العقل و يمجده، و يدعو إلى أن تكون كل تصرفات الحياة قائمة على العقل، إنه يستنكر استعباد الإنسان للإنسان، كما يستنكر الاستبداد في كل صورته... و هو في جوهره ديمقراطي و لا يسمح بالحكم المطلق على الإطلاق حتى لأكثر الناس عدلا... و في سنة 1936م أعلن ابن باديس أن الشعب الجزائري ليس هو فرنسا، و لا يرغب أن يكون فرنسا، بلغته و عاداته و أصله و دينه، و في سنة 1937 كتب يقول:

الإسلام نظام اجتماعي يستجيب لكل احتياجات الحياة في كل البلاد و في كل الأوقات. و مبادؤه هي وحدها التي تمكن الإنسانية أن تبني سعادتها. و في 1938م هاجم بشدة إعطاء الجنسية الفرنسية بحكم قانون المسلمين.⁽¹⁾

فالمفكر الأمريكي يؤكد أن الشيخ ابن باديس كان يخوض - في حركاته و سكناته - في الأمور السياسية، حتى و إن كان - رسمياً - يدعي الابتعاد عنها و تحاشيها، مثلما ينص الفصل الثالث من القانون الأساسي للجمعية، و قد ترك كامل الحرية لأعضاء الجمعية للخوض في السياسة بصفتهم الشخصية لا بوصفهم أعضاء فيها، حفاظاً على كيان الجمعية و استمراريتها.

¹ - القول لجوان جيلبيسي - ثورة الجزائر - ترجمة عبد الرحمن صدقي وراشد البراوي - الدار المصرية للتأليف و الترجمة - ص 63-64.

على أنّ ثمة نقطة لا يجب التّغاضي عنها و هي المؤتمر الإسلامي الجزائري⁽¹⁾،
 ففيه برز توجه جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين نحو السياسة المحليّة بمشاركة كلّ
 الهيئات السياسيّة اجتماعاتها و مؤتمراتها بشكل علني "فالمؤتمر أحدث تحوّلا كبيرا في
 العقليّة السياسيّة للعلماء الذين أصبحوا يستعملون عبارة -الحقوق السياسيّة- بدل
 -الحقوق- بصورة عامّة التي كانوا يستعملونها قبل المؤتمر."⁽²⁾ فالجمعيّة أفصحت
 عن توجهها في المؤتمر لاسيما و أنّها تقدّمت بمطلبين أساسيين: يتمثّل الأوّل في
 المطالبة بضرورة تعليم اللّغة العربيّة و جعلها لغة رسميّة في الجزائر إلى جانب اللّغة
 الفرنسيّة، و يشمل الثّاني الشّؤون الدّينيّة الإسلاميّة كتسليم المساجد و أوقافها إلى
 جمعيّات دينيّة إسلاميّة و تأسيس كليّة دينيّة لتخريج الموظفين الذين يتولّون مهام
 دينيّة و تنظيم القضاء الإسلامي و رفع مستواه.⁽³⁾ ثمّ إنّ الموقف الذي سجّلته
 الجمعيّة في بداية الحرب العالميّة الثّانية يعدّ موقفا سياسيا أيضا. فقد رفضت الجمعيّة
 تأييد فرنسا ضدّ ألمانيا و إيطاليا، بل إنّ الشّيخ ابن باديس ذهب إلى أبعد من ذلك
 حين صرّح لرفقائه أنّه يفكّر في الثّورة ضدّ فرنسا و أنّه سيعلمها لما تحين الفرصة.⁽⁴⁾
 و يختصر الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي مهمّة الجمعيّة في قوله " مبدأ جمعيّة العلماء

¹ - انعقد يوم الأحد 07 جوان 1936م. مازن صلاح المطبقاني-جمعيّة العلماء و دورها في
 الحركة الوطنيّة الجزائريّة- مؤسسة عالم الأفكار للطباعة و النشر-الجزائر-2011م -
 ص168.

² - أحمد الخطيب- جمعيّة العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع سابق ص244.

³ - الشّهاب ج 4م 12 1936 ص211-212.

⁴ - ينظر أبو القاسم سعد الله-الحركة الوطنيّة-مرجع سابق ج3-ص197.

يرمي إلى غاية جليلة. فالمبدأ هو العلم، و الغاية هي تحرير الشعب الجزائري. و التحرير في نظرها قسمان: تحرير العقول و الأرواح، و تحرير الأبدان و الأوطان، و الأوّل أصل الثاني، فإذا لم تتحرّر العقول و الأرواح من الأوهام في الدّين و في الدّنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية و الأوطان من الاحتلال متعذراً أو متعسّراً. حتّى إذا تمّ منه شيء اليوم، ضاع غداً لأنّه بناء على غير أساس، و المتوهّم ليس له أمل، فلا يرجى منه عمل، لذلك بدأت جمعية العلماء من أوّل يوم نشأتها بتحرير العقول و الأرواح، تمهيدا للتحرير النهائي..."⁽¹⁾ فقد أدركت الجمعية أنّ علّة بقاء المستعمر جاثماً على صدر الأمة، هو استسلامها له جرّاء ما أصاب الشّعب من انحراف في عقيدته و فكره، و تيقنت أنّ علاج تلك العلّة يكمن في إيقاظ الهمم و حشدها لدفع الخنوع عنها. و قد تعرّض المفكّر الجزائري مالك بن نبي إلى المسألة ذاتها و نبّه إليها حين أكّد أنّ: " القضية عندنا منوطّة أولاً بتخلّصنا ممّا يستغلّه الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته."⁽²⁾ فالاستعمار لم يتمكّن من الأمم المستضعفة لقوّته، و إنّما لضعف تلك الأمم و خضوعها له.

و كان لابدّ من خطوة عملاقة للتّخلّص من الاستسلام و إيقاظ الشّعب من غفوته، فرسمت الجمعية لأجل ذلك برنامجاً محدّداً يركّز على النّقاط التّالية:

¹ - محمد البشير الإبراهيمي - آثار الإبراهيمي - مصدر سابق - ج 4 - ص 344.

² - القول لابن نبي نقلاً عن محمّد الدّراجي الحركة الإصلاحية رجال و أفكار - دار قرطبة للنشر و التوزيع - الجزائر - 2008 - ط 1 - ص 17.

1- إصلاح عقيدة الشعب الجزائري و تنقيتها من الخرافات و البدع و تطهيرها

من مظاهر التخاذل و التواكل التي تغذيها الطرق الصوفيّة.⁽¹⁾

فالإصلاح الديني هو نقطة الانطلاق و فاتحة أعمال الجمعية التي عملت على "تحرير

العقول من الأوهام و الضلالات في الدين و الدنيا و تحرير النفوس من تأليه الأهواء

و الرجال".⁽²⁾

2- محاربة الجهل بتثقيف العقول و الرجوع بها إلى القرآن و السنّة الصّحيحة

عن طريق التربيّة و التعليم، يقول الإمام " العلم وحده هو الإمام المتبع في

الحياة في الأقوال و الأفعال و الاعتقادات"⁽³⁾ و بهذا يكون الإمام - و معه

الجمعيّة- قد أقرّ حقيقة علميّة جريئة مفادها أنّ العلم هو السبيل الوحيد

للإنسانيّة إن هي ابتغت الكمال و السعادة.

3- المحافظة على الشّخصيّة العربيّة الإسلاميّة للشّعب الجزائري بمقاومة سياسة

التنصير و الفرنسة التي تتبّعها سلطات الاحتلال.⁽⁴⁾

¹ - القول لابن نبي نقلا عن محمّد الدراجي الحركة الإصلاحية رجال وأفكار-دار قرطبة للتّشعر والتّوزيع-الجزائر-2008-ط1-ص17.

² -محمد دراجي-الحركة الإصلاحية-مرجع سابق-ص44.

³ - عبد الحميد بن باديس - مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير-تحقيق أحمد شمس الدين-لبنان-دار الكتب العلمية-2003-ص139.

⁴ - أحمد الخطيب-جمعيّة العلماء و أثرها الإصلاحي في الجزائر- مرجع سابق-ص91.

و إدراكا منها لأهمية التربية و التعليم في تحقيق مقاصدها العقيدية و الفكرية، ركزت الجمعية على التعليم الإسلامي، و إنشاء المدارس لتعليم و تثقيف أكبر عدد ممكن من أبناء المسلمين. كما وضعت برامج واسعة لنشر التعليم الديني للصغار المبتدئين، و تقويم لسان من درسوا اللغة الأجنبية، و لم تحرم الكبار من دروس الوعظ و الإرشاد و محو الأمية فشيدت لذلك المدارس و فتحت النوادي لإلقاء المحاضرات في التهذيب و شؤون الحياة العامة بأساليب تعليمية جديدة قضت على

تلك الأساليب العتيقة العقيمة التي كان يباشرها التعليم فيما سبق.⁽¹⁾

و لم يقتصر دور الجمعية التربوي و التعليمي على الوطن، فحسب بل تعداه إلى فرنسا ليغمر أبناء الجزائر ممن هاجروا معرضين أنفسهم إلى خطر الانصهار في الحضارة الأوروبية و الابتعاد عن أصول دينهم، فأرسلت إليهم المعلمين و الوعّاظ والمرشدين، و أسست النوادي و المدارس لتعليم أبنائهم.⁽²⁾

و كانت جهود الجمعية في هذا المجال تتركز على محاور ثلاثة:

- 1- إحداث مكاتب حرّة للتعليم المكتبي للصغار.
- 2- دروس الوعظ و الإرشاد الديني في المساجد العامة.
- 3- تنظيم محاضرات في التهذيب و شؤون الحياة العامة في النوادي.⁽³⁾

¹ - المرجع السابق-ص92.

² - السجل -مصدر سابق-ص57.

³ - محمد الدراجي- الحركة الإصلاحية في الجزائر-مرجع سابق-ص46.

أسست الجمعية المدارس الحرّة و التّوادي و المساجد في كلّ أصقاع البلاد و أخذت تشجّع على التّعليم و تسعى لإصلاحه إدراكا منها أنّه أساس النهضة الإصلاحية المنشودة⁽¹⁾. و قد صوّبت اهتمامها نحو العلماء باعتبارهم الرّبّان الذين يقودون الأمة إلى برّ الأمان "لن يصلح المسلمون حتّى يصلح علماءؤهم، فإنّما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كلّه، و إذا فسد فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقهم الإسلام و عملهم به، و إنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم."⁽²⁾

و المنبت الأصيل الذي يغرف منه العالم و المتعلّم - في نظر الجمعية هو الأسرة. فهي المدرسة الأولى و المصنع الأصلي لتكوين الرّجال، و من هنا كان اهتمام المصلحين بها، و بالمرأة على وجه الخصوص- نواة الأسرة و عمادها- "البيت هو المدرسة الأولى لتكوين الرّجال و تدبّين الأمّ هو أساس حفظ الدّين و الخلق والضّعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التّربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات و قلة تديّنهن."⁽³⁾

اهتمّ ابن باديس و رفاقه بالمرأة اهتماما كبيرا فقام بحملة توعية شاملة في كافّة القطر الجزائري لترغيب و إقناع الآباء بواجب تعليم البنات لتتكوّن منهم

¹ - المرجع نفسه-ص47.

² - آثار الإمام ابن باديس-الجزائر-من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية-1994 ج4.ص74.

³ - الشّهاب - ج 8- م 12-نوفمبر 1935م-ص449.

المسلمة المتعلّمة⁽¹⁾. "فإذا أردنا أن نكون رجالا فعلينا أن نكون أمّهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليما دينيا و تربيتهنّ تربية إسلامية."⁽²⁾ وبهذا أذابت جمعية العلماء الجمود الذي كان يعترض سبيل المرأة و يمنعها من التّعليم، فأخرجتها من سجن الجهل إلى فضاء العلم في ظلّ التّربية الإسلامية.

و لم يكن الاحتلال الفرنسي في غفلة عن دور الجمعية الخطير، بل كانت أعينه السياسية منها و الفكرية و الإعلامية على مقربة من الجمعية منذ تأسيسها. و إن كانت تلك العيون الاستعمارية المتنوّعة تنظر-تبعا لتخصّص كلّ منها- إلى أعمال الجمعية وتحركات رجالها من زوايا مختلفة، إلا أنّها كانت جميعها تلتقي عند نقطة واحدة و هي إدراك خطورة المهمة التي اضطلعت بها الجمعية، و أهميّة الدور التّهضوي الذي كانت تقوم به، و خطر كلّ ذلك على الوجود الفرنسي في الجزائر. و قد عبّرت عن ذلك الإجماع صحيفة "صدي باريس" الفرنسية و نقلته صحيفة البصائر.⁽³⁾ "إنّ الحركة التي يقوم بها العلماء المسلمون في الجزائر أكثر خطرا من جميع الحركات التي قامت إلى الآن، لأنّ العلماء المسلمين يرمون من وراء حركتهم هذه إلى هدفين كبيرين الأوّل سياسي و الثاني ديني ... فهم لا يسعون

¹ - الزّبير رحّال - الإمام عبد الحميد بن باديس رائد التّهضة العلمية و الفكرية 1840-1889 - الجزائر - دار الهدى-2009-ص26.

² - الشهاب-ج8-م12-نوفمبر 1935 ص453.

³ - البصائر-ع61-م2-محرم1365ه/2أفريل1937م.

إلى إدماج الجزائر بفرنسا، بل يفتشون في القرآن نفسه عن مبادئ استقلالهم السياسي".

أدرك المستعمر إذن أنّ ما تقوم به الجمعية يرمي إلى إحياء الشخصية الجزائرية و هو ما يهدّد كيانه و يفسد مخطّطاته في أرض الجزائر،⁽¹⁾ فسارع للقضاء عليها في مهدها، و أصدر قوانين جائرة علّها تضع حدًا لنشاط الحركة الإصلاحية و قد استعان في ذلك بعملائه من الجزائريين لتشتيت جهودها و القضاء عليها.⁽²⁾

ففي الوقت الذي جنّدوا أعوانهم من موظفي السلك الديني و رؤساء الزوايا المرابطين... و أمدهم بالمال و سمحوا لهم بإصدار الصّحف لمجاهة المصلحين... عمدوا إلى تضيق الخناق على العلماء ورجال الحركة الإصلاحية، فأصدروا قانونا يقضي بتعطيل جريدة السنّة - لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - و آخرًا يمنع الشيخ طيب العقبي من إلقاء دروسه الدينية في المساجد بالعاصمة و ضواحيها، و ثالثًا يطالب الشيخ ابن باديس أن يقدّم رخصة لمزاولة التدريس بالجامع الأخضر مع أنّه كان مواظبا على إلقاء الدّروس به منذ سبع عشرة سنة خلت،⁽³⁾ مذكّرين إياه و من يسير على دربه بالأوامر و القرارات السابقة التي تمنع تعليم الدين الإسلامي و اللّغة العربيّة إلّا برخصة من السّلطة الفرنسيّة (المحلّيّة).

¹ - الشيخ محمد خير الدين-مذكرات-مصدر سابق-ج1-ص110.

² - المصدر نفسه ص111.

³ - المصدر نفسه.

و بالرغم من تلك المضايقات، و ذلك التّعنت الذي أربك جمعيّة العلماء المسلمين في بدايتها، إلاّ أنّها استطاعت أن تتخطّى الصّعاب و تلملم جروحها و توّحد صفوفها، و قد "شهد العام الثاني من تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين بداية ميلادها الحقيقي ومساهمتها في الحركة الإصلاحية في بلادنا، فقد كان هذا العام حدًا فاصلا بين عهدين و مرحلة انتقال من الفوضى و الاضطراب إلى التنظيم والعمل الدقيق، فقد خابت مؤامرات أعداء المصلحين و تأسّس المجلس الثاني من رجال جمعت بينهم الرّغبة الصادقة في الإصلاح... " (1) و في سنة 1933م راسلت جمعيّة العلماء كلاً من الوالي العامّ الفرنسي في الجزائر و وزير الدّاخلية توضّح "بأنّ جمعيّة العلماء المسلمين من أهمّ غاياتها الوعظ و الإرشاد. و إنّ القيام بهذه المهمة لا يكون إلاّ في المساجد، و بما أنّ قرار عامل عمالة الجزائر أحدث اضطرابا شديدا في أفكار المسلمين الذين اعتبروه مسّا بحريتهم الدّينية، فإنّ جمعيّة العلماء المسلمين تطلب بكلّ إلحاح و بكلّ احترام فتح المساجد في وجوه الوعّاظ و المرشدين بدون إلجائهم إلى طلب إذن خاصّ" (2) و على عادته قابل المستعمر طلب الجمعيّة بالرفض، بل إنّ اتّخذ منه ذريعة للتّشديد من إجراءاته التعسّفية ضدّ علماء الإصلاح علّه ينجح في وقف نشاطهم. و أمام هذا التّعنت في موقفه و التّشنج، تعاملت الجمعيّة مع تلك القرارات بحكمة و رويّة، مستعملة أساليب

¹ - المصدر السابق-ص120.

² - جريدة الصّراط-السّنة 1-ع11-قسنطينة-نوفمبر 1933-ص8.

مختلفة، محاولة التخفيف من حدة تلك القرارات و عدم الرّضوخ لها في الوقت ذاته.⁽¹⁾ فحوّلت بعض قاعات التّدرّيس في المدارس العربيّة الحرّة إلى مساجد حتّى يستمرّ العلماء في تقديم دروس الوعظ و الإرشاد فيها بدلا من المساجد المحظورة. و قد يتساءل سائل عن أسباب تغافل الإدارة الفرنسيّة وتساهلها مع المدارس العربيّة الحرّة، في حين ضيّقت الخناق على المساجد و أوصدت أبوابها في وجه طالبي العلم. ذلك لأنّ فرنسا كانت تؤمن بعدم جدوى التّعليم العربي الحر فهو في نظرها " لا يفتح ذهنها و لا يغذّي عقلا و لا يرّبي ملكة لغويّة".⁽²⁾ فلمّا تطوّر التّعليم و قويت شوكته، قلقت الإدارة حياله و التجأت إلى عدّة قرارات ترمي إلى غرض واحد " و هو قتل اللّغة العربيّة بالتّضييق على تعليمها و مطاردة رجالها و إجمام صحافتها."⁽³⁾ و قد ارتأت الإدارة أن تصوّب ضربتها إلى اللّغة، مظهر كرامة الأّمة و عنوان بقائها، فأصدرت قانونا يجعل اللّغة الرّسمية في الجزائر هي الفرنسيّة، و اللّغة العربيّة لغة أجنبيّة.⁽⁴⁾ و هو قرار قمّة في الجور و التّعسف ينمّ عن حقّ المستعمر الدّفين، و حرصه الشّديد على طمس معالم الشّخصيّة الجزائريّة و القضاء على مقوماتها و لن يتأتّى له ذلك إلّا إذا أجم علماءها و صادر الصّحف الإصلاحيّة. فضلّت و الحال كذلك في مدّ و جزر مع الإدارة الفرنسيّة، كلّما أقدمت هذه

¹ - أحمد الخطيب-جمعيّة العلماء وأثرها الإصلاحي-مرجع سابق ص191.

² - الشّيخ خير الدّين-مذكّرات -ص 137- ج1.

³ -الفضيل الورتلاني : الجزائر النائرة - دار الهدى -الجزائر ص90.

⁴ - المصدر نفسه ص 90.

الأخيرة على مصادرة صحيفة من صحفها بادرت الجمعية إلى إنشاء أخرى. وهي في ذلك كله تلتزم المهادنة لإخفاء نواياها الحقيقية - المتمثلة أساسا في اعتناق البلاد والعباد - حتى سنة 1936م، تاريخ انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري.⁽¹⁾ الذي أبان عن أهداف الجمعية الحقيقة ذات الصلة المباشرة بالسياسة - كما أشرنا سابقا وقد اتخذت الحكومة الفرنسية من موقف الجمعية ذاك ذريعة لاعتقال أعضائها ونفيهم. فحدّدت إقامة الشيخ ابن باديس في قسنطينة ليظلّ تحت الإقامة الجبرية منذ بداية الحرب حتى وافته المنية سنة 1940م. و نعت الشيخ البشير الإبراهيمي إلى مدينة أفلو الصّحراويّة لمدة ثلاث سنوات، و حجّتها في ذلك أن الشّيوخين وأمثالهما من رجال الحركة الإصلاحية و الوطنية خطر على الأمن العامّ للبلاد.⁽²⁾

أفل نجم الجمعية بعد وفاة رئيسها، و لم تعد تلعب دور الريّادة في الحركة الوطنية، بل اكتفت بالتّشاط السّري حتى سنة 1944م حين تشكّلت جبهة موحّدة تضمّ بعض التّواب، و حزب الشّعب و جمعيّة العلماء هي " أحباب البيان و الحرّية " التي طالبت بحرية القول و التّعبير لكافة الجزائريين.⁽³⁾

على أن الخطوة الأولى و الحقيقية في أفول نجم الجمعية تتمثّل في انخراطها في العمل السياسي مع صدور نظام الجزائر الجديد من قبل السّلطة الفرنسيّة سنة 1947 م

¹ - ينظر أحمد خطيب - جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي - مرجع سابق - ص 244.

² - المرجع نفسه - ص 250.

³ - المرجع نفسه - ص 255.

و الذي اعترفت بمقتضاه بما يشبه الحكم الذاتي للجزائر، و اعترفت باللّغة العربيّة لغة أساسيّة في الجزائر، و من ثمّ اتّجهت الجمعيّة إلى ممارسات سياسيّة ورطتها في مواقف و تحالفات و تصادمات سياسيّة.

أمّا الخطوة الثّانية فهي سفر كلّ من رئيس الجمعيّة الشّيخ الإبراهيمي و نائبه أحمد المدني إلى مصر سنة 1951م، فأورث غيابهما المستمرّ فراغاً في التّوجيه و القيادة، و بدأت الصّراعات الحفيّة حول رئاسة الجمعيّة. و كانت الخطوة الثّالثة هي الانقلاب الدّاخلي الذي أحدثه الشّيخ محمّد خير الدّين غير بموجبه كثيراً من الهياكل، و أدان الغائبين عن أداء واجبهم خارج البلاد، و كان ذلك في اجتماع أخير عقدته الجمعيّة في سبتمبر 1954م. و في منتصف عام 1956م، أصدرت السّلطات الفرنسيّة أمراً بحلّ الجمعيّة، و لم يستطع القائمون عليها إعادة تنظيم أنفسهم خاصّة مع اندلاع الثورة المظفّرة و انشغال الجميع بالمشاركة فيها حتّى أتى النّصر المين.⁽¹⁾

و مع بزوغ شمس الحرّية واصلت الجمعيّة نشاطها في عهد جديد، إلّا أنّ وفاة الشّيخ الإبراهيمي سنة 1965م و العديد من العلماء و المناضلين المؤسّسين، تقلّص نشاط الجمعيّة سيما عقب ظهور مؤسّسات وطنيّة حكوميّة للجزائر المستقلّة من مثل وزارة الشّؤون الدّينية، و المدارس، و الجامعات التي تولّت أمر

¹ - أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي -مرجع سابق- ص260.

التعليم، و هكذا اختفت الجمعية عن الأنظار و تلاشت، لتعود في الثمانيات من القرن الماضي إلى سابق عهدها⁽¹⁾ ضمن إشراقة جديدة بفضل صدق الرجال النابع من إرث العلامة الجليل الشيخ ابن باديس وخيرة الصفوة من العلماء و المناضلين من تلامذته و تلامذة زملائه من أمثال الشيخ أحمد حماني⁽²⁾ الذي تولّى رئاستها أن انتقل إلى رحمة الله، فخلفه على رأسها الشيخ علي المغربي، و بعد وفاته انتقلت رئاسة الجمعية إلى الشيخ عبد الرحمن شيبان.⁽³⁾

عادت الجمعية إلى النشاط عبر جلّ ولايات الوطن، غايتها نشر الدين الإسلامي على وجهه الصحيح، البعيد عن البدع والخرافات، و محاربة الآفات الاجتماعية، ومكافحة الجهل و البطالة. و قد اتخذت الجمعية لأجل بلوغ أهدافها وسائل عديدة منها:

* إلقاء محاضرات.

* نشر الجرائد و المجلات.

¹ - محمد بن سميّة- في الأدب الجزائري الحديث- مرجع سابق-ص53.

² - مفكّر جزائري، من أعلام الفقه والفتوى ، تلميذ ابن باديس ، من رواد الإصلاح، ترأس المجلس الإسلامي الأعلى ، ج.م.ع.ج بعد تجديد نشاطها سنة 1990م. محمد دراجي- الحركة الإصلاحية في الجزائر-مرجع سابق-ص199.

³ - (1918-2012م) من رواد الإصلاح، مؤسس جريدة العصر، من الكتاب الدائمين في جريدة البصائر، من مؤسسي مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ساهم بفعالية في تجديد نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1991م. عبد الرحمن شيبان-حقائق وأباطيل-الجزائر-مطبعة تالة - ط2-2009-ص336.

* تأسيس التّوادي لتثقيف الشباب.

* نشر التّعليم القرآني و الدّيني.

* ربط أواصر الصّلات العلمية و الثقافيّة مع غيرها من الجمعيات داخل الوطن

و خارجه.

* تنظيم ملتقيات علمية و ندوات ثقافية لدراسة القضايا الّتي تهتمّ المجتمع

المسلم.

و هي تواصل نشاطها حالياً و تسهم في مجالات الحياة العامّة. قامت بنشر

مجموعة مجلّة الشهاب في ستّة عشر مجلّدا، كما تشرف على إصدار البصائر

الأسبوعيّة، و أعادت فتح أبواب نادي الترقّي ليستأنف نشاطه العلمي و الثّقافي من

جديد. و هي تقيم به و بغيره التّدوات و الملتقيات و تحيي الذّكريات و تدلي برأيها

فيما يهمّ الدّين و الوطن و الأمّة من قضايا و تطلّعات تحت غطاء جمعيّة و طنية

دينية، علمية تهذيبية، و قد فتحت عدّة فروع.⁽¹⁾ و تبقى البصائر لسان حال جمعيّة

العلماء المسلمين الجزائريين، البصائر⁽²⁾ الّتي عادت "... إلى الميدان، بعد المشوار

الطّويل الّذي قطّعت في خدمة الجزائر و العروبة و الإسلام، في مختلف المراحل

و العهود... إنّ البصائر قد أسّست حتّى جاءت الحرّية و جاء الاستقلال، و في هذا

¹ - عبد الرحمن شيبان-حقائق و أباطيل-مرجع سابق-ص54.

² - صدر ع1 من السّلسلة الثّالثة يوم الخميس 27ماي1992، يديرها المرحوم أحمد حمّاني و يرأس تحريرها الشّيخ عبد الرّحمان شيبان و المرحوم أ.علي المغربي.

السبيل تستأنف العمل بكلّ ما تؤتي من طاقة، من أجل أن تصون الحرّية
و الاستقلال من عبث العابثين، و عدوان المعتدين، و عراقيل الجامدين، و تضليل
الجاهلين المتعالمين، كلّ ذلك في كنف الحرية و التّضامن.⁽¹⁾

¹ - البصائر - ع 474-14 ديسمبر 2009 - مسيرة البصائر .

الفصل

الثَّانِي

الأبعاد الموضوعية

لأدب الصحافة

الإطاحة

إنَّ اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالإصلاح في جميع مجالاته؛ الدينية و السّياسية و الفكرية و الاجتماعية كان بهدف الحفاظ على مقومات الشّخصية العربية الجزائرية الّتي سعى الاستعمار العسكري و الفكري إلى طمسها و بالتّالي إيجاد جيل غريب عن الإسلام و تعاليمه⁽¹⁾. و لا شكّ أنّ الانتصاب لردّ العدوان الفكري هو من أجلّ الأعمال و أكثرها مشقّة و عنتاً، و من هنا سارع المصلحون إلى بعث الإسلام في النفوس و السلوك، بشحن الفعّالية الروحية للمسلم، و بعثه في الأفكار و المفاهيم. و لن يتمّ ذلك إلّا بتنقية الفكر الدّيني من الشوائب و البدع و الثّقافة الدّخيلة مع ربطه بما يستجيب و متطلّبات العصر الحديث. و هكذا انطلقت الجمعية تنشط في تلك المجالات.⁽²⁾

I. الإصلاح الدّيني:

تأسّست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في أوضاع دينية مزرية بعد أن ركّز المستعمر ضغطه على الإسلام معتبرا إياه الحاجز المنيع الّذي يقف حجرة عثرة أمام أطماعه السّياسية، و من ثمّة كان لا بدّ من القضاء عليه. و مضت فرنسا في خطّتها تبدل كلّ ما أوتيت من جبروت في سبيل تحقيقها، فأخذ الإسلام يتراجع شيئاً

¹ - ينظر مازن صلاح مطبقان- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق - ص48.

² - المرجع نفسه- ص78.

فشيئاً، ولم يجد من يحتضنه سوى الزّوايا و الكتاتيب فأصبح يدور في فلك الصوفية و ما تحدّر به الشعب من أضاليل و طقوس واهية بعدما أغلقت فرنسا المساجد و ضمّتها إلى أملاك الدولة و بالمقابل فتحت الحانات لتشجيع العريضة و الانحلال الخلفي، يقول الشيخ الإبراهيمي: "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت، والاستعمار سمّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، و هو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية و عبث بجرمة المعابد و حارب الإيمان بالإلحاد و الفضائل بحماية الرذائل و التّعليم بإفشاء الأمّية و البيان العربي بهذه البلبلة الّتي لا يستقيم معها تعبير و لا تفكير." (1)

و إزاء هذه الأوضاع المتردّية و ذاك الهجوم الممجّي على الدّين، كثّفت الجمعية نشاطها لتغيير المفهوم الدّيني السّائد، و العودة بالدّين إلى أصله النقي. فأخذت على عاتقها الدّعوة إلى التّوحيد و غرس العقيدة الصحيحة في النفوس، وفق ما ينصّ عليه قانونها الأساسي، يقول الشيخ الإبراهيمي: "إنّ الحدّ الأخير الّذي يحدّده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الّذي يصبح فيه المسلمون كلّهم بهذا الوطن و لا مرجع لهم في التماس الهداية إلّا كتاب الله و سنّة رسوله و لا سلطان على أرواحهم إلّا الله الحيّ القيّوم، و لا مصرف لجوارحهم و إرادتهم إلّا الإيمان الصّحيح تنشأ عنه

¹ - الشيخ الإبراهيمي نقلا عن صالح خرفي-المدخل إلى الأدب الجزائري-مرجع سابق-ص38.

الأعمال الصّحيحة فتثمر آثارا صحيحة... يوم يصبح المسلمون متساوين في العبودية لله، لا يعبدون غيره و لا يدعون سواه و لا يسلمون وجوههم إلاّ إليه و لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله." (1) فمنهج الجمعية في الإصلاح قائم على التوحيد و إخلاص العبودية لله الواحد الأحد، يقول الشيخ الطيب العقبي : "هذا و إنّ دعوتنا الإصلاحية قبل كلّ شيء و بعده هي دعوة دينية محضة... و هي تتلخص في كلمتين: أن لا نعبد إلاّ الله وحده، و أن لا تكون عبادتنا له إلاّ بما شرعه و جاء من عنده." (2) فقد أدركت الجمعية أنّ نشر العقيدة الصحيحة لا يتحقّق إلاّ بتطهيرها و تخليصها ممّا علق بها من شوائب الشّرك و البدع ممّا أحدثه في دين الله المحدثون و أشرك مع الله غيره المشركون" و العقيدة الحقّة لها ميزان دقيق و هو الكتاب و السنّة. فإذا عرضنا عقائد النّاس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأيّ سبيل نسلكه لتقويمها؟ إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصّحيحة و اجتهدنا في إقامة الأدلّة، فإنّ التأثير يكون قليلا، لأنّ النفوس قد اصطبغت بعوائد و تقاليد مستحكمة، و الفطر قد فسدت بما لابسها من خرافات و أوهام، فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع و الخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق النّاس، فإذا

1 - الشيخ الإبراهيمي - آثار الإبراهيمي - مصدر سابق - ج 1 - ص 138.

2 - جريدة السنّة - 2 - 7 - ص 17.

مات البدع و الخرافات و صفت الفطر من ذلك الشّوب سهل تلقين العقيدة الصحيحة و تلقّتها الأمة بالقبول. "(1)

و بالرغم من أن جمعية العلماء تأسست في وقت اشتدّت فيه وطأة الاستعمار على الشعب الجزائري إلا أنّها أعرضت عن مواجهته أوّل الأمر، لتوجّه ضرباتها إلى "الاستعمار الروحي الذي يمثله مشايخ الطّرق المؤثرون في الشعب، المتغلغلون في جميع أوساطه، المتجّرون باسم الدّين، المتعاونون مع الاستعمار المادي عن رضا و طواعية من أجل تجهيل الأمة لئلاّ تفيق بالعلم، و تفقرها لئلاّ تستعين بالمال على التحرّر، فكان من سداد الرأي و إحكام التدبير البدء بمحاربة الاستعمار الثاني لأنّه أضرّ خطراً و أهون دفاعاً. "(2) لأجل هذا اختارت الجمعية أن يكون تقويم الجانب الدّيني فاتحة عملها الإصلاحي، يقول الشيخ ابن باديس "و بعد، فإننا اخترنا الخطة الدّينية على غيرها عن علم و بصيرة و تمسّكاً بما هو مناسب لفطرتنا و تربيتنا من النّصح و الإرشاد و بثّ الخير، والثبات على وجه واحد، و السير في خطّ مستقيم... و لو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً و لضربنا فيه المثل بما عرفنا من ثباتنا و تضحيتنا، و لقدنا الأمة كلّها للمطالبة بحقوقها، و لكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التّأثير عليها فإنّ ممّا نعلمه و لا يخفى على غيرنا أنّ القائد الذي يقول للأمة:

¹ - الشيخ الإبراهيمي - آثار الإبراهيمي - مصدر سابق - ص 86 - من المادّة 69 من القانون الداخلي للجمعية.

² - الشيخ الإبراهيمي - آثار الإبراهيمي - مصدر سابق - ج 1 - ص 69. أو مجلّة الثقافة - ع 87 - ص 23 - 24.

إنك مظلومة في حقك و إنني أريد إيصالك إليه يجد منها مالا يجده ممن يقول لها إنك ضالة عن أصول دينك و إنني أريد هدايتك، فذلك تلبّيه كلّها، و هذا يقاومه معظمها أو شطرها، و هذا كلّه نعلمه، و لكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا و بيننا، و إننا -فيما اخترناه- بإذن الله لماضون وعليه متوكّلون." (1) فابن باديس إذ ينادي بالتفكير و التخطيط و التنظيم و الدقّة فهو عند تحديده للدواء يكتفي بعلاج واحد هو القرآن قياسا على مجتمع الدعوة و مرحلة الخلاف الرّاشدة. (2) و هو لا يرى إصلاحا للمجتمع دون إصلاح الفرد و عقائده.

و عن منهج الجمعية يقول الشيخ الإبراهيمي " كان معقولا جدّا أنّ الإصلاح الدّيني لا يطمئنّ به المضجع في هذه الدّيار و لا ترسخ جذوره إلّا إذا مهّدت له الأرض و نقيت. و لا بدّ بعد وجود المقتضيات من إزالة الموانع. و موانع الإصلاح بهذه الدّيار و عوائقه هي طائفة أو طوائف تختلف أسما و صفة و تتحد رسما و غاية." (3)

و هو ما حمل المصلحين المجدّدين على الاهتمام بدعوة المسلمين إلى التّوحيد و تخليصه من براثن الشّرك فسخّروا لأجل ذلك عديد المقالات في جرائد الجمعية كالشّهاب و البصائر و غيرهما، الأمر الذي زعزع عقائد كانت تحسب من صميم

¹ - جريدة الصراط-15-4.

² - الشّهاب-ج2-مجلّد8-ص57.

³ - السجل-مصدر سابق-ص50.

الإيمان و نفس صروحا مشيِّدة من الخرافات و الأوهام و وضع الأساس للإصلاح الديني في الجزائر و زرع البذرة الأولى لتطهير العقائد و الأفكار.⁽¹⁾

و يواجه الشيخ الذين يعيرون عليهم انشغالهم بالردّ على المنحرفين في العقيدة صرف الجهود و الأوقات في ذلك فيقول "و قد يظنّ الظّاتون و تنطق ألسنتهم بهذا الظنّ أنّ هذه المنكرات التي نحاربها و نشدّ في حربها هي قليلة الخطر ضعيفة الأثر، و أنّنا غلونا في إنكارها و أنفقنا من الأوقات و الجهود في ما كان حقيقا أن يصرف في ناحية أخرى أهمّ كالإصلاح العلمي. و فات هؤلاء أنّ اللّوازم القريبة لتلك المنكرات التي تشدّ الجمعية في محاربتها، التّرهيد في العلم و إفساد الفطر و فشل العزائم و قتل الفضائل التّفسية و إزالة التّقة بالنّفس من النّفس و تضعيف المدارك و تخدير المشاعر، و هي ردائل لا تجتمع واحدة منها مع ملكة علميّة صحيحة، فكيف بها إذا اجتمعت؟

فكان من الحكمة أن تبتدئ الجمعية بتطهير النّفوس من الرّدائل و أن تجعل من صرخاتها عليها نذيرا للنّاشئة أن تتلّخّ نفوسهم بشيء من أوضاعها.⁽²⁾

فمحاربة الطريقين أمر لا يستهان به بل لقد جعلته الجمعية من أولى أولوياتها حتّى تطهّر النّفوس من الشّوائب و تخلّصها من الاعتقادات الخاطئة⁽³⁾ إذ "كيف يخلص في

¹ - ينظر الشهاب-ج4-2.

² - آثار الإبراهيمي - مرجع سابق -ج1-ص144-أو السجل-ص61.

³ - مازن صلاح مطبقاني-جمعية العلماء ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ص85.

عبادة ربّه من يعتقد أنّه لا يصلح هو لمناجاته، و أنّه لا بدّ من واسطة تقرّبه زلفى إليه و تعطيه و تمنعه... أم كيف تتهدّب أخلاق من يعتقد أنّ كلّ ما هو عليه من عوائد فاسدة هو الدّين و من سنّة المتقدّمين، و أنّ من يريد إصلاح تلك العوائد من الملحدّين أم كيف تستقيم أعمال من يعتقد أنّ شيخه ينجيّه من التّيران، أو أنّ الذّكر الفلاني أو الصّلاة الفلانية إذا قاله محيت عنه جميع الأوزار و زجّ في زمرة الأخيار، أو أنّ زيارة قبر شيخه تعدل عبادة سبعين سنة، أو أنّ الطواف بقبره كالطواف بالبيت الحرام... أو كيف يعمل لعزّ أو ينتصر من بغى من يعتقد أنّ ذلك و استعباده و مهاتته أمر مقدّر عليه لا يسعه إلاّ الصّبر عليه حتّى يتمّ أجله أو يأتي المهدي فيخلّصه و يعتقد أنّ الأموات تتصرّف له و أنّها تدفع عنه كيد الظالمين و قوّة الجبارين بل إنّها هي التي غضبت عليه فجاءته بالبلايا و قادت إليه جيوش المحن يتقدّمها سيدي فلان و يسوقها سيدي فلان...⁽¹⁾

و قد بنت الجمعية دعوتها على أصول ثلاثة هي الكتاب و السنّة و منهج السّلف الصّالح من الصّحابة و التّابعين و أئمة الدّين، يقول الشّيخ ابن باديس "قد رأينا و نحن نخدم أمة مسلمة أن نسعى لتهديبها من طريق الإسلام، و لم نشكّ قطّ أنّ الإسلام ليس هو ما تمثّله بسيرة مجموعها و أفرادها، و أنّ الإسلام إنّما هو في كتاب الله و سنّة رسول الله-صلى الله عليه و سلّم- و ما كان عليه سلفها من

¹ - الشهاب-ع3-ص190-191.

أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان الصادق المصدوق فـمـدنا ندعو الأمة إلى الرجوع إلى هذه الأصول و طرح كلّ ما يخالفها من قول و عمل و اعتقاد.⁽¹⁾

و هكذا يمكن حصر منهج الجمعية في الأصول التالية:

– الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده و أرسل به جميع رسله و كملّه على يد نبيّه محمّد- صلى الله عليه وسلّم-.

– القرآن هو كتاب الإسلام.

– السنّة القولية و الفعلية الصّحيحة تفسير و بيان للقرآن.

– سلوك السلف الصّالح-الصّحابة و التابعين و أتباع التابعين- تطبيق لهدى الإسلام.

– فهوم أئمة السلف الصّالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام و نصوص الكتاب و السنّة...⁽²⁾

و انطلاقاً من هذه الأصول سعت الجمعية إلى تخلص المجتمع من الأوهام و الخرافات و المعتقدات الفاسدة و تبسيط الأحكام الفقهيّة. ف " التّعقيد الذي

¹ - الشهاب-ع2-ص3.

² - الشهاب-ع1-ص3-خطبة صلاة الجمعة ألقاها ابن باديس بالجامع الأخضر بقسنطينة.

أصاب المذاهب الفقهية هو أحد الأسباب التي دفعت الناس إلى التحلل منها و الانخراط في الطرق الصوفية التي أباحت لهم التحلل من التكاليف.⁽¹⁾

لذا لا غرو إن وجدنا زعماء الجمعية⁽²⁾ يوجهون ضرباتهم إلى بعض الزوايا -معقل الصوفية- التي خرجت عن تعاليم الدين. و قد اتّسمت المواجهة بانعدام التكافؤ بين الطرفين إذ لم يتمكن الطرقيون من مجابهة خصومهم المصلحين، ما أدى بهم إلى اعتماد قرارات تعسفية من مثل إغلاق المساجد في وجه الدعاة كما فعل مفتي قسنطينة 'المولود بن الموهوب' حين منع الشيخ ابن باديس من تقديم دروس الوعظ في الجامع الكبير.⁽³⁾ على أن الاحتدام بين الإصلاحيين و الطرقيين تلاشى قليلا على إثر احتفالات الفرنسيين بالذكرى المئوية للاحتلال و ما انجر عنها من إهانة للجزائريين في دينهم و وطنيتهم⁽⁴⁾ ما مهّد لتأسيس جمعية ينضوي تحت رايها الفريقان و هي "جمعية العلماء." غير أن مشاركة الفريقين في تأسيسها لم يمنع من استمرار النشاط الإصلاحي المناوئ للطرقية. هذه التي أحدثت وثنية في الإسلام بما سنت من طقوس بعيدة عن أصالة الدين ، طقوس هاجمها الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله "القوم عارفون بالله و إن لم يدخلوا كتابا، و لم يقرؤوا كتابا، و كل ما ينتسب إليهم عارف بالله بمجرد الانتساب أو بمجرد اللحظة من شيخه، و قد كان

1 - القول لحبيب غانم نقلا عن أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص177.

2 - نشير أن الصراع بين دعاة الإصلاح و الطرقيين بدأ قبل تأسيس الجمعية.

3 - أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص179.

4 - أحمد توفيق المدني-حياة كفاح-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-1977-ق2-ص167.

قدماءهم يتخذون من مراحل التربية مدارج للوصول إلى معرفة الله فيما يزعمون و في ذلك تطويل للمسافة، و إشعار بأن المطلوب شاق، حتّى جاء الدجال ابن عليوة و أتباعه بالخاطئة فأدخلوا تنقيحات على الطّريق ... و من تنقيحاتهم تحديد مراحل التربية (الخلوية) لمعرفة الله بثلاثة أيام (فقط لا غير)، تتبعها أشهر أو أعوام في الانقطاع لخدمة الشيخ من سقي الشجر و رعي البقر و حصاد الزرع، و بناء الدور مع الاعتراف باسم الفقير، و الاقتصار على أكل الشعير، و لئن سألتهم لم نزلتم مدة الخلوة إلى ثلاثة أيام ليقولنّ فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر الذي يتطلّب السرعة في كلّ شيء فقل لهم قاتلكم الله و لما نقصتم مدة الخلوة و لم تنقصوا مدة الخدمة أيّها الدّجاجلة؟⁽¹⁾ و قد اعتبر الإصلاحيون التوسّل شركا بالله و حذّروا من كلّ متريبط يقف بين الإنسان و خالقه و يسيطر على عقله و قلبه و جسمه و ماله بقوة يزعم التّصرّف بها في الكون.⁽²⁾ كما هاجموا التّنظيم الهيكلي للطّرق الصوفية المبني على أساس نظام هرمي⁽³⁾ يقوم على مبدأ الخضوع اللامشروط للشيخ الملقّب بألقاب تتّصف بها الذات الإلهية مثل مولانا و سيّدنا...⁽⁴⁾ ذاك النّظام خلق طقوسا وسّعت الهوة بين أبناء الشّعب الواحد "فبدل التّساوي في الكرامة و الحقوق

¹ - السجل - مصدر سابق - ص 243.

² - الشهاب - ع 49-23 أوت 1926.

³ - النظام الهرمي فيه قاعدة خاصة 'بالإخوان' و قمة خاصة بالشيخ و بينهما مجموعة تقوم بوظائف دينية.

⁴ - أحمد خطيب - جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي - مرجع سابق - ص 184.

و الواجبات، انقسم المجتمع إلى مشايخ و مقدّمين و إخوان، و بدل الأخوة بين كافة أعضاء المجتمع عم التّحزّب و التعصّب لتعدّد الطّرق و اختلافها...⁽¹⁾

و إلى جانب هذه الفوارق الاجتماعية استحدثت عادات و ابتدعت واجبات مالية مثل التّويزة أو "المعرفة" فكان "حقّ" الشّيخ قبل الزّوجة و الأولاد و الآباء و الأجداد، و حقّ الشّيخ في المال قبل حقّ الفقير المسكين⁽²⁾.

و قصد القضاء على تلك الطّقوس و العادات المبتدعة استعانت الجمعية بالجمعيات الدّينية التي أسّستها للإشراف على المسائل الدّينية و المدارس الحرّة و النوادي الثّقافية كما استعانت بالدّعوة في المساجد متّخذة إيّاها منابر للوعظ و الإرشاد. ولم يكن المحتلّ - و معه الطرقيون - ليتغاضى عن تلك النّشاطات، فقد أصدر أحكاما تقضي بحظر المساجد الرّسمية على العلماء المصلحين، و فرض الرّقابة على تحرّكات العلماء، و إغلاق كثير من مدارس جمعية العلماء. و لقد واجهت الجمعية قرارات الإدارة التّعسّفية بأساليب مختلفة، و حاولت التّخفيف من حدّتها و عدم الاستسلام لها في الوقت ذاته، من ذلك أنّها حوّلت بعض قاعات التّدرّيس في المدارس العربيّة الحرّة إلى مساجد لتقدّم دروس الوعظ و الإرشاد التي كانت قد توقّفت نتيجة لتلك القرارات. كما أنّها طالبت بفصل الدّين عن الدّولة - و هو مطلب لم يدرج في قانونها الأساسي لدى إنشائها - و جعلت هذا المطلب غايتها

¹ - المرجع السابق-ص185.

² - السجل-مصدر سابق-ص26.

الرئيسية، فقد ألحّت على أن "تسلّم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لما يتناسب مع أوقافها، و تتولّى أمرها جمعيات دينية مؤسّسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدّين عن الحكومة."⁽¹⁾ كما طالبت بأن "تؤسّس كليّة لتعليم الدّين و لسانه العربي لتخريج موظّفي المساجد من أئمّة و خطباء و مدرسين و مؤدّنين و قيّمين..."⁽²⁾ و أن "ينظم القضاء بوضع مجلّة أحكام شرعية على هيئة إسلامية يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدّينية، و إدخال إصلاحات على المدارس الّتي يتخرّج منها رجال القضاء، منها تدريس تلك المجلّة و التّحقّق بالعلوم الشرّعية الإسلامية و طبع التّعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثّلين لها."⁽³⁾

بذلت الجمعية جهدا كبيرا في مساعيها الرّامية إلى إصلاح المفهوم الدّيني فتصدّت للطريقة الّتي كانت تهيمن على فكر المواطن الجزائري، و هاجمتها في عقر دارها و كان سلاحها العلم و الحوار المقنع. و سعت للحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية بمطالبتها بفصل الدّين عن الدّولة. و بفضل جهادها المنظّم و المخطّط استطاعت الجمعية أن تحاصر الطريقة و أضاليلها "فخدمت نيران أهل الزردة و زالت عن البلاد حمّى الدّراويش و تخلّصت منها الجماهير، بعد أن ظلّت طوال

¹ - البصائر - س1 - ع24-1936.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه.

خمسة قرون ترقص على دقات البنادير و تبتلع العقارب و المسامير مع الخرافات و الأوهام.⁽¹⁾

و هكذا اعتمدت الجمعية في جهادها المستميت ضدّ الطرقية خطة محكمة مبنية على أسس متينة قوامها القرآن و السنّة "قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف و الصحيح من السنّة الشريفة..."⁽²⁾ لكنّ الجمعية لم تحجّر و اسعا مثلما فعل الطرقيّون، و إنّما جعلت في الحسبان واقع الأمة المعاش لإصلاحه وفق ما تملّيه مقتضيات العصر. فلا غرو إذا اعتبرت الفقهاء المتزمّنين حجرة عثرة في طريق الإصلاح، هؤلاء الذين يتشبّهون بالماضي و بالنصوص القديمة من الفقه أو الدّين دون أن يلتفتوا إلى مستجدّات العصر و ما يتطلّب من تفسير يتناسب مع الحاضر و يدفع النّاس إلى الفهم الصّحيح للإسلام. و كانت الجمعية "ترفع شعار الإسلام دينا و دولة و عقيدة و علاقات اجتماعية فكرا و فعلا، نظرا و عملا، قواعدا و نصوصا."⁽³⁾ فهي ترى أنّ "الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته و رقيّه. و قد دلّت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدّنة أن لا نجاة للعالم ممّا هو فيه إلاّ بإصلاح

¹ -مالك بن نبي- شروط النهضة-بيروت-دار الفكر-ص28.

² -السجل-مصدر سابق-ص31.

³ - عبد الله ركيبي-الشعر الديني-مرجع سابق-ص583.

عام على مبادئ الإسلام...⁽¹⁾ لذا وجب على المسلم المعاصر أن ينطلق من أرضية الإسلام و دائرة أحكامه و توجيهاته "فهو غنيّ به عن كلّ مذهب من مذاهب الحياة.."⁽²⁾ فمذهب الجمعية يقوم على الاجتهاد كركيزة من ركائز الفكر الإصلاحي. و هو ما يرفضه خصومهم من الطرفين اللذين يروا أنّ باب الاجتهاد قد أغلق.

إنّ هذا التباين في مواقف المصلحين و خصومهم من الطرفين جعل كفة الميزان ترجح لصالح المجموعة الأولى لا سيما و أنّها قد تجاوزت مع فئة الشباب "سواء فيما يتصل بتفسيرهم للدين تفسيرا جديدا حيا، أو بإنشائهم مدارس تأوي آلاف الأطفال و تنقدهم من الجهل..."⁽³⁾ على أنّ هناك نقاط اختلاف كثيرة بين الإصلاحيين و الطرفين، جعلت من الفكر الإصلاحي قوّة تعبّر عن الحاضر بينما جعلت من رجال الطرق كتلة تعبّر عن الماضي الجامد⁽⁴⁾، ممّا أضفى على رجال الإصلاح صفة الزعامة التي تؤهّلهم لأن يقودوا الفكر و الثقافة في تلك الفترة. و يمكننا أن نحصر أوجه الاختلاف بين الفريقين في النقاط التالية:

¹ - آثار الإمام ابن باديس-الجزائر-من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية-ط1-1985-ج4-ص200.

² - المصدر نفسه-ص20.

³ - عبد الله ركيبي-الشعر الديني الجزائري-مرجع سابق-ص585.

⁴ - عبد الملك مرتاض-أدب المقاومة الوطنية في الجزائر-مرجع سابق-ج1-ص356.

- تشبّث الطرقيين بالماضي و بالتّصوُّص القديمة دون محاولة التّجديد فيها و تفسيرها تفسيراً يناسب العصر و يدفع النَّاس إلى الفهم الصّحيح للإسلام.
- التّغيير مبدأً من مبادئ الفكر الإصلاحي، و هو لدى خصومهم ثورة و انقلاب في الحياة ممّا يضرّ بالمجتمع أكثر ممّا ينفعه.
- اعتماد رجال الطرق على التّصوُّص ذات الصّلة بالتّصوُّف و معانيه لتطهير المسلم- في نظرهم- ممّا يعانى في حياته روحياً و مادياً، في حين يرى رجال الإصلاحي أنّ التّصوُّف- و إن وجد في التّراث الإسلامي- فهو عائق لا عامل مساعد للمجتمع الإسلامي، و من هنا اعتمدوا على الكتاب و السنّة دون سواهما درءاً للفتن الّتي تحدثها كثرة المذاهب و الّتي من شأنها الإضرار بالوحدة الإسلامية الّتي كانت شعاراً من شعارات الفكر الإصلاحي.⁽¹⁾
- البرجعاوية الّتي يعيش فيها الطرقيون - و كانت تمثّل مركز قوّتهم في بداية الأمر- قضت على نفوذهم المعنوي و الاجتماعي، في حين تعزّزت الحركة الإصلاحية و قويت بالتفاف المواطنين حولها -لاسيما الشّباب-
- بالنّظر لما تحمله من أفكار و مبادئ ترمي كلّها لخدمة الصّالح العام.⁽²⁾
- و الجمعية حين أعلنت الحرب على الطرقية، صوّبت ضرباتها نحو المغالين الّذين خرجوا عن تعاليم الدّين الحنيف من أصحاب الزّوايا المتطرفين ممّن شوّهوا معالمه

¹ - عبد الملك مرتاض-أدب المقاومة الوطنية في الجزائر-مرجع سابق-ج1-ص361.

² - عبد الله الركيبي-الشعر الديني-مرجع سابق-ص585.

بما أدخلوا عليه من خرافات و بدع "لا نريد هدم الزوايا و إنما نريد إصلاحها، لا كلام لنا مع الأموات و إنما كلامنا مع الأحياء، لا ننكر الولاية و إنما ننكر الغلوّ في تقدير أهلها، لا ننكر الكرامة و إنما نتحرّى في توفّر شروطها، لا ننهي عن زيارة السنّة و إنما ننهي عن زيارة البدعة.

في الزوايا و فينا و في غيرنا شيء من الفساد غير أنّ الفساد إذا نشأ من الزوايا عمّ انتشاره لما لها من كثرة الأتباع، فهي جديرة أن تقدّم على غيرها في الإصلاح، و تخصّص بجانب كبير من دعوة المصلحين و نحن بحمد الله قد أسمعنا أصحابها -مع احترامهم- كلمة الحقّ و حرّكنا الكتاب على اختلاف مشارهم إلى تبادل الأفكار في إصلاحها. و عرفنا الأمة أنّ فيها ما ليس من الدّين، فأصبحت مسألة مطروحة على بساط البحث، معروضة على المحكّ الإصلاحي بعد سكون طويل في زمن بعيد..."⁽¹⁾

استطاعت الجمعية إذن أن تهاجم الطريقة في عقرب دارها و تشلّ معاقلها. سلاحها في ذلك العلم و الدّين اللذان مكّناها من أن تنتشل المواطن من برائين الطريقة و شطحاتها، و تحمّله سلاح الفكر و النشاط الذي يؤهّله لخوض المعارك و تحرير وطنه من ربة الاستعمار.

¹ - الشهاب-جانفي 1926. و ينظر أيضا مفدي زكريا -تاريخ الصحافة العربية في الجزائر- مرجع سابق -ص90.

II. الإصلاح الفكري:

يقوم المشروع التّهضوي الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على منظور حضاري شامل⁽¹⁾، جعلها تدرك أنّ ما تعيشه الجزائر من وهن و تخلف مردّه إلى ما انحدرت إليه قواها الشّعورية و الفكرية من ضعف الرّوح الدّينية و إهمال الحياة العقليّة و طغيان سلطان الجهل و التّقليد...وكانت الجمعية تدرك أنّ للعلم مكانة بالغة الأهميّة فيما تصبو إليه الأمّة على طريق النهوض و التحرّر. و من هنا كانت المعرفة إلى جانب العقيدة من أهمّ ما أقامت عليه دعائم مشروعها الحضاري، فكانت الخطوة الأولى لتحقيق مراميها هي نشر العلم في أوساط الأمّة "لأنّ البناء السليم لقدرات الإنسان الفكرية هو الذي يصحّح له وعيه بنفسه و بمن حوله و يدفعه من ثمّ إلى السموّ بسلوكه نحو مصاف الرّقي و الكمال"⁽²⁾ ذلك أنّ "سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً يستقيم باستقامته و يعوجّ باعوجاجه و يثمر بإثماره و يعقم بعقمه لأنّ أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، و اعتقاداته و أقواله إعراب عن تلك

¹ - البصائر-ع147- جوان2003- محمد بن سمينّة- "المشروع التربوي الباديسي مرام ومرتكرات".

² - الشّيخ ابن باديس- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير- تحقيق أحمد شمس الدين- دار الكتب العلميّة-2003- ص139. و ينظر آثار الإمام-ج1-ص193.

الاعتقادات، و اعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره و نظره.⁽¹⁾ و بناء على هذا التصور الشمولي انطلقت الجمعية في مشروعها التربوي من نقطة البداية في تاريخ الدعوة الإسلامية، من أول آية نزلت على خير الأنام - عليه أفضل الصلاة والسلام "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق."⁽²⁾ و هي آية تدلّ دلالة واضحة أن الإسلام دين أقام حضارته على العلم، إذ أحدث ثورة على الآبائية و التقليد للأولين ودعا إلى البحث و التأمل و إعمال النظر، و رفض كل شيء لا يخضع للدليل.⁽³⁾

فالإنسانية و هي تسعى لتحصيل الكمال و تحقيق الحضارة يجب أن تعي أن العلم الصحيح و الخلق المتين هما الأصلان اللذان يتحقق بهما مبتغاهما ف " العلم وحده هو الإمام المتبع في الحياة في الأقوال و الأفعال و الاعتقادات."⁽⁴⁾

و ما التخلّف و الانحطاط اللذان آل إليهما العالم الإسلامي إلا بسبب ابتعاده عن العلم في سائر المجالات، فساد الاستبداد الميدان السياسي، و ساد التقليد و الابتداع المجال الديني بعد أن غيّب العقل. و إدراكا منها لهذه الحقائق جعلت الجمعية من التعليم أساس النهضة و أوكلت المهمة إلى العلماء، يقول الشيخ ابن باديس "الن يصلح المسلمون حتّى يصلح علماؤهم، فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب، إذا

¹ - المصدر السابق-ص139.

² - سورة العلق-آية 1.

³ - محمّد درّاجي-الحركة الإصلاحية في الجزائر-مرجع سابق-ص44.

⁴ - مجالس التذكير-مصدر سابق-ص136.

صلح صلح الجسد كلّه، و صلاح المسلمين إنّما هو بفقهم الإسلام و عملهم به، و إنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم.⁽¹⁾ و لن يتمّ إصلاح العلماء ما لم يشمل هذا الأخير سائر عناصر العمليّة التربوية بما تتضمّنه من محتوى، و بما تقوم عليه من طرق، و بما تتطلّع إليه من مرام⁽²⁾ و لن يصلح العلماء إلّا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته و ما يستقبل من عمله لنفسه و غيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فنصلح التعليم.⁽²⁾

فالعلم يصحّ عقائد المسلمين، و ينور عقولهم و يزكّي نفوسهم بالأخلاق الفاضلة و الأعمال الحسنة، و من ثمّ كان لا بدّ من الاعتماد عليه لأنّ المراهنة على غيره سييؤء لا محالة بالفشل⁽³⁾ و لن يصلح هذا التعليم إلّا إذا رجعنا به إلى التعليم النبوي في شكله و موضوعه، في مادّته و صورته، فيما كان يعلم -صلى الله عليه و سلّم- و في صورة تعليمه.⁽³⁾ و ليس التدريس في نظر المفكرين المسلمين وظيفاً و إنّما هو رسالة و جهاد من أجل خدمة الإنسانية و ترقيتها⁽⁴⁾، فالعلماء ورثة الأنبياء⁽⁴⁾ و ليس الأنبياء إلّا تاريخ جهاد و مجاهدة في هداية الناس.⁽⁵⁾ و كذلك العلماء لمنزلتهم

1 - آثار الإمام ابن باديس - مصدر سابق - ج4 - ص74.

2 - المصدر نفسه - ص74.

3 - المصدر نفسه - ص75.

4 - البصائر - ع147 - جوان 2003 - ص15.

5 - المصدر نفسه - ص15.

الرّفِعة عند الله، ثمّ لتكليفهم بواجب الدّعوة إلى دين الله و هوضهم بأمانة التّبليغ و التّبين.

على أنّ العلم في مفهوم الجمعية لم يقتصر على العلم الدّيني فقط-على أهمّيته في المحافظة على الهويّة الإسلاميّة- بل يتعدّاه إلى المعنى القرآني الشّامل، يقول الشّيخ "فاحذر كلّ متعلّم يزهدك في كلّ علم من العلوم، فإنّ العلوم كلّها أثمرتها العقول لخدمة الإنسان، و دعا إليها القرآن بالآيات الصّريحة و خدمها علماء الإسلام بالتّحسين و الاستنباط ما عرف عنها في عهد مدنيّتهم الشّرقية و الغربيّة حتّى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم."⁽¹⁾

و الإمام و هو يدعو إلى الأخذ بالعلوم كلّها، يحثّ على ضرورة استقراء الحضارة الإسلاميّة "و هكذا كما كان العرب و المسلمون أيّام بل قرون مدنيّتهم عربّوا كتب الأمم إلى ما عندهم و نظروا و صحّحوا و استدرّكوا و اكتشفوا فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم ، و أناروا بالعلم عصرهم، و مهّدوا الطريق و وضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدّوا لنوع الإنسان بالعلم و المدنيّة أعظم خدمة تؤدّيها له أمة في حالها و ماضيها و مستقبلها..."⁽²⁾ فعمل الجمعية لم يكن مقتصرًا على الإصلاح الدّيني فقط، بل عمدت - بحكم تكوينها العلمي الوطني - إلى بعث الثّقافة العربيّة في بلد تتولّى فيه المدرسة الفرنسيّة وحدها مهمّة نشر التّعليم، و ذلك

¹ - آثار الإمام ابن باديس-مصدر سابق-ج4-ص43.

² -مجالس التذكير-مصدر سابق-ص138.

إيماناً منها بأن نشر الإصلاح الديني و الفكري لا يمكن أن يتخذ سبيله إلى عقول المواطنين إلا إذا كان مصحوباً بالتعليم القومي الذي يشمل بالإضافة إلى مبادئ القراءة و الكتابة، دراسة التاريخ العربي الإسلامي. فعن طريق استقراء التاريخ تُستنهض الأجداد الوطنية التي لا بدّ من التعرف عليها قبل تلمس طريق المستقبل. و لذلك نرى الجمعية تحرص حرصاً شديداً على البعد التاريخي الذي كان الشيخ ابن باديس يثبته دوماً لدى افتتاحه لخطبه، ومحاضراته و كلماته التي يلقونها في المساجد و النوادي و المدارس: "أيها الجزائري التاريخي القديم المسلم الصّميم..."⁽¹⁾ و هو حين يدعو للعودة إلى التاريخ فذلك لأجل أن يستقرأه ليحاكم ما يعرض عليه من آراء و أفكار و مشاريع، لأنّه الحكم الفصل⁽²⁾ يقول "أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربي الأبّي حذار من الذين يمنونك و يخدعونك، حذار من الذين ينومونك و يخدرونك، حذار من الذين يأتون بوحى من غير نفسك و ضميرك، و من غير تاريخك و قوميتك، و من غير دينك و أبطال دينك و ملتك، استوح الإسلام ثمّ استوح تاريخك ثمّ استوح قلبك، اعتمد على الله ثمّ على نفسك..."⁽³⁾ و لم يكن ابن باديس يريد التّعني بالأجداد و الإغراق في الماضي مع إغفال الحاضر و عدم التطلّع إلى المستقبل، و إنّما كان يهدف إلى البناء و التربية على أسس متينة

¹ - آثار الإمام ابن باديس - ج5 - ص216.

² - محمد درّاجي - الحركة الإصلاحية في الجزائر - ص58.

³ - آثار الإمام ابن باديس - ج5 - ص338.

راسخة في القدم حتى يكون البناء متميزاً و قادراً على مواجهة محاولات المسخ والتشويه "إنما ينفع المجتمع الإنساني و يؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه و حاله و مستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من الماضي و أصلح شأنه في الحال و مدّ يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه و أمم عصره ما يصلح لبنائه، معرضاً عمّا لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه و مصلحته." (1) فالتاريخ في المنظور الباديسي هو روح الحياة لذا أراد أن تأخذ منه الأجيال المعاصرة الأصول الثابتة لإقامة بنيان يصلح شأنها في الحاضر و يساعدها على بناء مستقبل زاهر. و يبقى التاريخ -على أهميته- يمثّل عنصراً واحداً من عناصر النهضة الفكرية. فثمة عناصر أخرى لا تقل أهمية، و لا بدّ من تضافرها جميعها لبلوغ الأهداف المنشودة، من ذلك فتح المدارس الحرّة. فقد بدأت الجمعية حرّكتها التعليمية بفتح مدارس عربية حرّة غير خاضعة لرقابة الإدارة الحكومية، و كان علماءها يتولّون التدريس بها و بالمساجد في آن واحد. (2) و لم تحاول الجمعية فتح مدارسها الحرّة في المدن الجزائرية مباشرة بل كانت تسعى إلى ذلك عن طريق تكوين جمعيات إصلاحية محلية، إذ تتولّى كلّ جمعية من الجمعيات التي تطلق على نفسها اسم جمعية الإصلاح أو جمعية التربية و التعليم، فتح مدرسة حرّة. أمّا دور جمعية العلماء، فيكمن في اختيار المعلمين، و الإشراف على سلوكهم

1 - البصائر - ع 171 - جوان 1939.

2 - أحمد الخطيب - جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي - مرجع سابق - ص 198.

و نشاطهم، وكذا الإشراف الفني من انتقاء للبرامج التعليمية و تأمين الكتب، و تفتيش تربوي و مراقبة دورية. و على غرار الحركة الإصلاحية الدينية التي كانت عرضة للاضطهاد من ناحية، و المنافسة من ناحية ثانية، كانت الحركة الإصلاحية التعليمية هي أيضا عرضة للمنافسة من قبل الطرفين "الذين حاولوا إدخال تحسينات عصرية على طريقة التعليم البدائي في زواياهم، خاصة في مناطق القبائل و واد سوف، و تيارت و لكن محاولتهم بقيت متخلفة على مجارة التعليم الإصلاحي".⁽¹⁾

كما تعرضت للمضايقة من قبل المستعمر الذي أصدر "تعميمي ميشال" يفرض فيهما مراقبة مشددة على نشاطات رجال الإصلاح⁽²⁾، و غيرهما من الإجراءات التي كانت مكتملة لما جاء به التعميمين و التي من شأنها تضيق الخناق على الحركة الإصلاحية. و على الرغم من تلك الإجراءات التعسفية واصلت الجمعية نشاطها. يقول الشيخ الإبراهيمي "سعت الجمعية بما استطاعت من أسباب أن توسع دائرة الأمكنة بإحداث مكاتب حرة للتعليم المكتبي للصغار و بتنظيم دروس في الوعظ و الإرشاد الديني في المساجد، و بتنظيم محاضرات في التهذيب و شؤون الحياة العامة في النوادي. و صحبتها توفيق الله تعالى، فنجحت مساعيها في هذا الباب بنجاحا عظيما، و أثمرت أعمالها إثمارة نافعا، و لولا موانع من الأحكام الإدارية

¹ - أحمد الخطيب-جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص200.

² - مازن مطبقاني-جمعية العلماء ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ص179.

الجائزة في غلق بعض المكاتب، و التّضييق في إعطاء الرّخص، و إيصاد المساجد في وجوه الوعّاظ لكانت النّتيجة اليوم ممّا تغتبط الجمعية العاملة المخلصة.⁽¹⁾ و قد اعتمدت الجمعية في عملها منهجا جديدا لتلقين العلم للناشئة بطرق صحيحة، حيث سعت إلى إصلاح أساليب التّعليم بقسميه المكتبي و المسجدي ممّا سمح بالقضاء على الأساليب العتيقة العقيمة الّتي كان يباشر بها التّعليم.⁽²⁾ بل سعت إلى أكثر من ذلك حين جعلت من تعميم التّعليم هدفا لها فعمدت إلى مكافحة الأمّية لدى المسنّين عن طريق تعليمهم "مقدار ما يرفع الأمّية عنهم."⁽³⁾

و لأنّ المعلّم يظّل من أبرز العناصر الّتي تتركز عليها النهضة التّربوية، كان من الطبيعي أن توليه الجمعية عناية خاصّة كونه المعني الأوّل بالسهر على غرس بذور التّربية السّليمة في نفوس الناشئة. و من ثمّ كانت الدّعوة إلى إعدادة إعدادا اجتماعيا و علميا بما يهيئه للقيام بالمهمّة المنوطة به.⁽⁴⁾ فكانت الجمعية تختار المعلّمين من بين خريجي الجامعات الإسلامية بالوطن العربي، و كان ابن باديس يؤهّل طلابه في الجامع الأخضر لمهمّة التّعليم.⁽⁵⁾ إلى جانب مؤتمرات دورية كانت تقام لتبادل الآراء فيما يهمّ التّعليم العربي.

¹ - سجل جمعية العلماء المسلمين-مصدر سابق-ص57.

² - المصدر نفسه-ص57.

³ - المصدر نفسه-ص61.

⁴ - البصائر-ع147-جوان2003-ص15.

⁵ - أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص202.

و الجدير بالذكر أنّ الجمعية حين تحدّثت عن العلم و جعلت منه هدفا لها، لم تستثن من برنامجها و لا منهجها العنصر النسوي، بل على العكس من ذلك فقد كان تعليم المرأة الجزائرية على رأس اهتماماتها، و اعتبرت ذلك من ضرورات الإصلاح السّلفي.⁽¹⁾

و أمام ذاك العزم و تلك المثابرة والإصرار على التّخلّص من الجهل، أصدرت الحكومة الفرنسية عدّة مراسيم للحدّ من نشاط الجمعية الثّقافي، و كان قرار شوطان arrêté Chautemps⁽²⁾ قمّة في الجور، إذ يعتبر ضربة خطيرة وجّهت للإضرار بالنّشاط الإصلاحي الثّقافي " و قد أدّى بالفعل إلى اضطراب التّعليم العربي الحرّ و ببلته فترة استمرّت حتّى الحرب العالمية الثانية."⁽³⁾ و من أهمّ بنود ذلك القرار: إغلاق المدارس العربية الحرّة التي لا تتمتع برخصة عمل. و منع كلّ معلّم من مزاولة التّعليم في المدارس المرخّصة إلّا بعد الحصول على رخصة تعليم من السّلطات المسؤولة.

و بالفعل تمّ إغلاق بعض مدارس الجمعية كما هو الشّأن بالنّسبة لمدرسة دار الحديث بتلمسان و غيرها من المدارس، التي يشير إليها الشّيخ ابن باديس حين يقول "فمدرسة دار الحديث مازالت مغلقة، و مثلها مدرسة القليعة و المعلّمون في

¹ - المرجع السابق-ص203.

² - قرار أصدره وزير الداخلية شوطان في مارس 1938م، بمنع بموجبه تعليم اللغة العربية (على أساس أنّها لغة أجنبية في الجزائر). مازن المطبقاني-جمعية العلماء و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ص220.

³ - أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص205.

بجاية و غيرها مازالوا يعاودون بالتّغريم و يساقون إلى المحاكمة كالمجرمين، و طلبات الرّخص مازالت تقابل بالرّفص أو السّكوت.⁽¹⁾ و أخطر ما ورد في ذلك القرار هو اعتباره اللّغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

و لم يوجّه المستعمر ضرباته إلى المدارس و المعلّمين و حسب بل، تعدّاهم إلى الأهالي الذين يرسلون أولادهم إلى مدارس الجمعية، يمارس عليهم ضغوطه، حتّى أنّه منع التّعويضات العائلية عن العمّال الذين يتعلّم أولادهم في مدارس الجمعية.⁽²⁾

و أمام هذا التّعنت و الإصرار على غلق المدارس، لجأت الجمعية إلى التّعليم بالمساجد، تقيم حلقات التّدريس في رحابها. و يعتبر الجامع الأخضر بقسنطينة أوّل مركز انطلق منه التّعليم الإصلاحي المسجدي في الجزائر، و قد زاول ابن باديس نشاطه التّعليمي به منذ سنة 1913م إلى أن وافته المنية عام 1940م. و إلى جانب الجامع الأخضر، كانت هناك مساجد أخرى في تبسة و سطيف و تلمسان و مازونة و غيرها، يتعلّم فيها عدد كبير من الطلبة الكبار في المستوى الثّانوي على الطريقة المعروفة في الجوامع الإسلامية الكبرى كالأزهر و الزيتونة و القرويين.⁽³⁾ و بعد أن استعادت جمعية العلماء بعضا من حرّية التّصرّف في أعقاب الحرب العالمية الثّانية، و بعد أن أفرج عن الشّيخ الإبراهيمي في أوائل 1943، عادت إلى نشاطها

¹ - البصائر - ع14 - نوفمبر 1938 - ص1.

² - أحمد الخطيب - جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي - مرجع سابق - ص205.

³ - المرجع نفسه - ص209.

التعليمي عبر المدارس لاسيما و أنّها أسّست في عام واحد ثلاثا و سبعين مدرسة عبر الوطن و هو ما سمح لها بتكثيف نشاطها التربوي رغم العقبات التي كانت تعترض طريقها.⁽¹⁾ و قد ركّزت في نشاطها التربوي على اللغة العربية و سعت لإحيائها إدراكا منها لأهميتها في بناء الشخصية، و صناعة الفكر، و تحقيق الوحدة و التواصل بين الأجيال " و لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغرّ و المستقبل السعيد، إلاّ هذا الحبل المتين اللّغة العربية، لغة الدّين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة. إنّها وحدة الرّابطة بيننا و بين ماضينا و هي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، و بما يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا و أحفادنا العرّ الميامين أرواحهم بأرواحنا، و هي وحدها اللّسان الذي نعتزّ به، و هي التّرجمان عمّا في القلب من عقائد و ما في العقل من أفكار، و ما في النّفس من آلام و آمال. إنّ هذا اللّسان العربي العزيز الذي خدم الدّين و خدم العلم و خدم الإنسان. فهو الذي نتحدّث عن محاسنه منذ زمان و نعمل لإحيائه منذ سنين فليحقّق الله أمانينا."⁽²⁾

و لما كانت اللّغة العربية عنوان الحضارة العربية الإسلامية و شعارها، فقد جعلت الجمعية المنافحة عنها أحد أهدافها لأجل استعادة مكانتها بعدما صوّب المستعمر ضرباته لها، يقول الشيخ ابن باديس "إني أعاهدكم على أنّي أقضي بياضي على

¹ - مازن المطبقاني-جمعية العلماء ودورها في الحركة الوطنية -مرجع سابق-ص106.

² - آثار الإمام ابن باديس-ج4-ص147.

العربية و الإسلام، كما قضيت سوادى عليها، إنها لواجبات... و إننى سأقصر حياتى على الإسلام و القرآن و لغة الإسلام و القرآن هذا عهدى لكم، و أطلب منكم شيئاً واحداً و هو أن تموتوا على الإسلام و القرآن و لغة الإسلام و القرآن⁽¹⁾.

و كانت الجمعية تنادى بضرورة ترقية اللغة العربية لتكون لغة العلوم و الفنون كلها لأنه لا يتم استقلال أمة دون استقلال كامل عناصر هويتها و مقومات شخصياتها و فى مقدمتها اللغة القومية، فالشيخ ابن باديس يرى بأن "اللغة العربية من اللغات الحية التي تقرن بالانجليزية و الألمانية."⁽²⁾ و بالتالى فهي قادرة على استيعاب كل العلوم و تدريسها و لعل هذا الموقف من الشيخ ابن باديس و جمعية العلماء ككل، يدحض رأى بعض النقاد الذين يعيبون على الجمعية منهجها التربوي و يرون فيه قصورا ساهم فى تكريس سياسة الحصار العلمى بالتسليم لفرنسا بعدم تنمية البحث العلمى و العلوم الحديثة و الاكتفاء بالعلوم التقليدية.⁽³⁾ و كأنا هؤلاء الذين رموها بهذا الاتهام قد تغافلوا عن الظروف التي كانت تحيط بالجمعية، فالجزائر بلد محتل، يتعرض لهجمة حاكمة ترمى لتحطيمه و طمس هويته، هجمة صوّبت ضرباتها إلى

¹ - آثار الإمام ابن باديس - مصدر سابق - ج 6 - ص 366.

² - المصدر نفسه - ج 4 - ص 40.

³ - نشر الدكتور مصطفى بن حموش مقالا فى الشهاب الثقافى بعنوان "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هل كانت مشروعا ناقصا." يسلط فيه الضوء على ما اعتبره قصورا فى عمل الجمعية التعليمى.

دين و لغة الشعب الجزائري، فكان من الطبيعي - و الحال كذلك - أن تضع الجمعية خطة تربوية تقاوم التخريب و تصلح ما أفسدته يد المستعمر - سواء بتشجيعه للانحراف أم بمحاربته للغة العربية - و تردّ كيده، يقول الشيخ ابن باديس " فهمنا و الله، ما يراد بنا و إنّنا نعلن لخصوم الإسلام و العربية أنّنا عقدنا العزم على المقاومة المشروعة عزمنا و سنمضي بعون الله في تعليم ديننا و لغتنا رغم كلّ ما يصيبنا." (1)

و إذن فمقاومة الهجوم الاستعماري على اللغة العربية و الدين الإسلامي كان أولى أولويات الجمعية لذا كان من الطبيعي أن تركز اهتمامها على التعليم الشرعي و تصحيح العقيدة أكثر من اهتمامها بتعليم العلوم و الهندسة و الرياضيات. ثمّ إنّ الفكرة الأساسية التي انطلق منها الشيخ ابن باديس و رفاقه من أعضاء الجمعية هي أنّ الأمة بحاجة إلى تعليم و تذكير، و لا بدّ لهذا التعليم و التذكير من أدوات. و مع قلة الإمكانيات و محاصرة العدو كان لا بدّ من البدء بالأولى و الميسّر فكان الاهتمام بالتعليم الديني لحماية الهوية الوطنية و العمل على نهضة المجتمع. على أنّ منهج الجمعية و إن كان ركّز على الإصلاح الديني و اهتمّ بالعلوم الشرعية و اللغة العربية، فإنّه لم يهمل جانب التّقدّم العلمي بالقدر الذي كان متاحا للجمعية.

¹ - القول للإمام ابن باديس نقلا عن محمد الصالح رمضان - الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس (من آرائه و مواقفه) - دار البعث - الجزائر - 1983م - ص 49.

أما إشارة الشيخ الإبراهيمي إلى سياسة العلم القليل المفيد و التي يرى فيها البعض⁽¹⁾ عامل إضعاف للمشروع النهضوي الجزائري، فإنها سياسة كانت تتناسب مع وضع الجزائر و حاجته، و مع حجم الأمية في البلاد. و لم تكن تلك السياسة تعني الاكتفاء ببعض العلوم أو الاقتصار على العلوم الشرعية دون سواها بل كانت تعني الاهتمام بالتنوع أكثر من الاهتمام بالكم. إن قاعدة " العلم المفيد القليل " لا تعني تحصيل قدر قليل من العلوم أو نوع واحد منها، بل إنها تعني إعطاء الطالب ما يحتاجه من أدوات معرفية تساعده على التفاعل مع مجتمعه و خدمته بما يستطيع، و تشجعه على متابعة تحصيله العلمي و الثقافي طوال حياته. و هي تهدف إلى تصحيح سلوكه بعد تصحيح تفكيره، يؤكد ذلك قول الشيخ ابن باديس السابق "احذر كل متعلم يزهدك في علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية، و دعا إليها القرآن الكريم بالآيات الصريحة."⁽²⁾ فالقرآن يدعو إلى تعلم العلوم الدينية و الدنيوية على حد سواء لأن كلاهما يحققان السعادة للإنسان و ينتشلانه من الجهل و التخلف، لذا وجب عليه أن يستزيد من العلم "يتعلم الإنسان حتى يصير عالما و يصير معلما، و لكنه مهما حاز و توسع فيه و تكمل به

¹ - إشارة إلى موقف مصطفى بن حموش دائما في مقاله الآنف الذكر.

² - القول لابن باديس نقلا عن محمد دراجي-الحركة الإصلاحية-مرجع سابق-ص64.

فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه وعلّمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبداً أن يطلب المزيد.⁽¹⁾

فهل بعد قول الشيخ هذا مجال للشكّ في منهج الجمعية ورميه بالتقصير، وكونه يمثّل عاملاً لتكريس سياسة الحصار العلمي؟

و كما سعت الجمعية للقضاء على الأمية و تنوير أذهان الشّباب، عمدت إلى تقويم أذهان الناشئة ممّن تعلّموا في المدارس الفرنسية و تصحيح المفاهيم لديهم، يقول محمّد السعيد الزاهري "في الجزائر اليوم شباب ناهض مبارك يزكو كلّ يوم عدده و يزيد، و هذا الشّباب فئتان: فئة قرأت العربية، و تربّت تربية إسلامية... و فئة أخرى قرأت بالفرنسية، و تربّت تربية غير إسلامية لا تعرف الإسلام، و لا رجال الإسلام المشهورين إلّا من طريق اللّغة الفرنسية. و أنت تعلم ما كتب أئمّة هذه اللّغة الفرنسية من الهزأ بالأديان و برجال الأديان فنشأت هذه الفئة من شباب الجزائر لا تعرف الإسلام و لا تحترمه، و لا تعرف التاريخ الإسلامي و لا تعتزّ به، بل و لا تعرف تاريخ الجزائر."⁽²⁾ فقول الزاهري، و إن كان فيه إجحاف في حقّ هذه الفئة الشّبانية، إلّا أنّه يسلّط الأضواء على منهج الجمعية القائم على أساسين؛ يتمثّل الأوّل في تعليم أبناء الوطن المحرومين من حقّهم، فيما يقوم الثّاني على

¹ - القول للإمام ابن باديس نقلاً عن مصطفى محمّد حميداتو-عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية-سلسلة كتاب الأمة-ص185.

² - محمّد السعيد الزاهري-الإسلام في حاجة إلى دعاية و تبشير- مكتبة الاعتدال-دمشق-ص22.

تصحيح المفاهيم لدى الجزائريين المتعلمين في المدارس الفرنسية. و هؤلاء لم يحظوا بعناية الجمعية داخل الوطن فحسب، بل إنَّ رعايتها لهم تعدّت حدود الجزائر لتصل إلى فرنسا لاسيما أثناء إقامة الشيخ الفضيل الورتلاني-مندوبها-بأراضيها⁽¹⁾ وكانت مهمته الأساسية متابعة الطلاب و العمّال الجزائريين هناك. و قد تمكّن الشيخ من فتح الكثير من النوادي الثقافية في باريس وضواحيها لتعليم اللّغة العربية و الدّين الإسلامي، حتّى أنّ نشاطه أثار مخاوف السّلطات الفرنسية لدرجة أنّ منظمّة اليد الحمراء⁽²⁾ أرادت اغتياله فاضطر إلى مغادرة فرنسا متّجها نحو مصر.⁽³⁾

فاللّغة العربية- في نظر الجمعية- تمثّل مبدأ جوهريّاً و مكوّناً رئيسياً من مكوّنات هويّة الجزائر الأصيلة، و هو ما يدحض مزاعم المستعمر الّذي كان يعتبرها لغة دخيلة، و يردّ أباطيله "فاللّغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة و لا دخيلة، بل هي في دارها و بين حمائها و هي ممتدّة الجذور مع الماضي، مشتدّة الأواحي مع الحاضر، طويلة الأفتان في المستقبل، ممتدّة مع الماضي لأنّها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم و تقيم بإقامتهم، فلمّا أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد و ضرب بجرانه أقامت معه العربية لا تريم و لا تبرح،

1 - أقام الورتلاني بفرنسا في الفترة الممتدّة ما بين سنة 1936 إلى 1938.

2 - منظمّة كانت تقوم بتصفيّة المناضلين الجزائريين و الأوربيين الّذين يساعدون الثورة الجزائرية عسكرياً و سياسياً. و قد استعانت بما فرنسا في أعمالها الوحشية.

3 - عمر بن قينة-أعلام و أعمال في الفكر و الثقافة والأدب-مرجع سابق-2000م-ص44.

مادام الإسلام قائما لا يتزحزح، و من ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس،
و تستساغ في الألسنة و اللهوات و تنساب بين الشّفاة و الأفواه...⁽¹⁾
فلا غرو أن نجد الجمعية بل الشعب الجزائري بأكمله يقاوم المستعمر الفرنسي -
دفاعا عن لغته- مقاومة لا تقلّ عنفا و ضراوة عن مقاومته من أجل حرّية أرضه.

III. الإصلاح السياسي:

مهّدت سياسة التّعسف الاستعمارية لتعبئة سياسية هادفة شملت مختلف
الأطراف و المذاهب حتّى تلك التي كانت تنفي عن نفسها صبغة سياسية⁽²⁾
و كانت " الشّخصية القومية " قوام الحركة الإصلاحية و هدفها الأبعد، و قد
اتّخذت إلى ذلك " منهجا " تاريخيا يعتمد الالتفات إلى أمجاد الماضي لاستخلاص
العبر، و التركيز على الحاضر و مقارنته مع ذاك الماضي التليد في بدايتها⁽³⁾، ثمّ
مافتتت أن صوّبت نظرها نحو المستقبل في خطوة حاسمة تتمثّل في النهضة السياسيّة
- بعد الفكريّة أو موازاة معها -⁽⁴⁾ و بعد أن كانت الحركة الوطنيّة الجزائريّة-
و معها الصّحافة الإصلاحية- في العشرينيات لا تستهدف أبعد من المساواة مع
الفرنسيين " ليس لنا من سياسة إلاّ السياسة الفرنسيّة الديمقراطيّة الحقّة التي انبنت

¹ - البصائر - ع 41-1948-ص1 - "اللغة العربية عقيلة حرّة ليس لها ضرة".

² - نعي بها جمعية العلماء.

³ - صالح خرفي - الشّعور الجزائري الحديث - مرجع سابق - ص 188.

⁴ - المرجع نفسه - ص 191.

على الحرّية و الأخوة و العدالة." (1) عدلت في الثلاثينيات عن موقفها و أبانت عن نواياها الحقيقيّة المتمثّلة في رفض الإدماج و التّجنيس و التّجنيد... و الحقّ أنّ موقف الاستعمار من الحركة و روّادها و معاملته القاسية لها، و جّه المقال السّياسي توجيهها مميّزا فكرة و أسلوبا (2)، توجيهها يتحاشى الخوض في المواضيع السّياسيّة و يستعمل ضروبا من التّعريض و التّلميح، فها هو الشّيخ الطّيب العقبي ينشر مقالا بجريدة الشّهاب يلحّ فيه على الشّباب الإصلاحي أن يتعد عن السّياسة كلّ الابتعاد، "... و تباعدوا كلّ التّباعد عن سياسة الحكومة، و مزاحمة الغير حتّى نسلم و يسلم حزبنا الإصلاحي." (3) و يؤكّد الشّيخ رأيّه و موقفه حيال السّياسة حين يصدر جريدة " الإصلاح " فيقول في افتتاحيتها "... لا نكتب أبدا في السّياسة التي يفسّرها قاموس الحكومة بمعادة الدّولة، و العمل على خلاف مصلحتها لأننا لسنا من يقول بوجوب إلقاء الأجنبي في البحر... " (4) و الإصلاحيون إنّما اعتنقوا هذا المبدأ لدرائتهم بتربّص السّلطات لهم و كبت أنفاس الأفكار التي لا توافق هواها إلاّ أنّ " هذا الإعراض عن السّياسة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يرونه ضارّا بهم من القوانين و المعاملات." (5) و الابتعاد عن السّياسة في نظر ابن باديس

1 - الشّهاب الأسبوعي - ع12 - 1926/01/28.

2 - محمد ناصر - المقالة الصّحفية الجزائرية - مرجع سابق - ص285.

3 - الشّهاب - ع6 - 1925/12/17.

4 - المقال من جريدة الإصلاح نقلا عن المقالة الصحفية - ص286.

5 - أحمد الخطيب - جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي - مرجع سابق - ص234.

و الجمعية لا يعني إهمال الشؤون الوطنيّة و القوميّة يقول: " و لأننا جزائريون نعمل
 للمّ شعب الأمة الجزائرية و إحياء روح القوميّة في أبنائها و ترغيبهم في العلم النافع
 و العمل المفيد حتّى ينهضوا كأمة لها حقّ الحياة و الانتفاع في العالم و عليها
 واجب الخدمة و التّفح في الإنسانيّة." (1)

و يؤكّد الشيخ وطنيته و حبه للجزائر فيقول: " نحبّ من يحبّ وطننا و يخدمه
 و نبغض من يبغضه و يظلمه، فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري،
 و تحبيب بنيه فيه، و نخلص لكلّ من يخلص له و لناوئ كلّ من يناوئه من بنيه و من
 غير بنيه." (2) و يرى الإمام في ارتباط الأمة الجزائرية بفرنسا ضرورة حتميّة يملئها
 الواقع و تفرضها الظروف " إنّ الأمة الجزائرية أمة ضعيفة و متأخرة. فتري من
 ضرورتها الحيويّة أن تكون في كنف أمة قويّة عادلة متمدّنة لترقيتها في سلم المدينة
 و العمران، و ترى هذا في فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة و الوداد، فنحن
 نخدم للتّفاهم بين الأمّتين و نشرح للحكومة رغائب لديها، و لا نرفع مطالبنا أبدا
 إلّا إليها، و لا نستعين عليها إلّا بالمنصفين من أبنائها." (3) و لعلّ موقف الجمعية هذا

1 - الشّهاب - ع1 - 1925/07/02.

2 - المصدر نفسه - ع1 - 1925/07/02.

3 - المصدر نفسه - ص1.

الذي أملتّه الظروف هو الذي ساعد في الحفاظ عليها و تعميمها فلو كانت

اتّخذت موقفا مغايرا لكانت الإدارة قد حلتّها و قضت عليها في مهدها.⁽¹⁾

على أنّ الحركة الإصلاحية بزعامة ابن باديس (في 1925) لم تهمل القضايا

السياسية الداخليّة أو تغفل عنها، و قد أعلنت جريدة "المنتقد" منذ ظهورها أنّها

تسعى جاهدة لربط أواصر المودّة بين المسلمين و الأمّة الفرنسيّة بما يخدم مصلحة

الفتيّين.⁽²⁾

و قد راحت و غيرها من الصّحف الإصلاحية⁽³⁾ تطالب ببعض الحقوق التي يمكننا

حصرها في ثلاث نقاط أساسية و هي:

– طلب التسوية بين الأهالي و الفرنسيين في التّعليم، و التّمثيل النّيابي، و العمل

العمراني، و حرية حقيقيّة في التّفكير و النّشر...

– الحفاظ على مقوّمات الجزائريين الدّينية و الجنسيّة.

– مجاهمة دعاة التّطرف (من مستعمرين و عملائهم) مّن يعتبرون الأهالي عبيدا

لهم.

مطالب أجملها الشّيخ في أصول أربعة يرى أنّها من حقّ الشّعب الجزائري، و أنّ

هذا الأخير قد هيمّا فعليّا لتحقيقه: "إنّ العلم و العمل و النّظام و التّهذيب، أصول

¹ – أبو القاسم سعد الله – الحركة الوطنيّة الجزائرية – مرجع سابق – ج3 – ص96.

² – محمّد ناصر – المقالة الصحفيّة – ص310.

³ – منها الشّهاب.

أربعة محبوبة و محترمة لدى الشعب الجزائري المسلم بفطرته الإسلامية و إن كان متقاعسا عنها بانحطاطه في الرتبة المدنية. و ها هي صحفه، و هاهم نوابه، ينادون في كلّ فرصة بلزوم تعميم هذه الأصول، فكيف يمكن أن يظنّ بهم أنّهم غير متهيّين لقبولها، أو يخشى خطر من تنفيذها. "(1) و قد أضاف الإمام إلى الأصول الأربعة أصلا خامسا و هو الحرية المحبوبة "... فإنني سكتّ عنها لأنّها عزيزة على من يطلبها، عزيزة على من يعطيها، يعشقها الأوّل و يرى في نيلها السّعادة و الأمن و المحبّة، و يقدرها الثاني و يرى في منحها الضّرر و الخطر..." (2) و قد عمدت الصحافة الإصلاحية - بتيقّظ و حذر- إلى فضح دسائس المستعمر ضدّ الجزائريين فهو سبب البلايا و اليد الخفيّة التي تحرك الحكومة الفرنسيّة "... إنّ أجلى فرق بين القانون و أثر العدالة ما تراه بالوطن الجزائري، يمكنك أن تنظر في قانونه فتجده بالتّظر للأهلي به شيء من الحيف يستطاع التّغاضي عنه، و يمكن للأمة أن تأخذ حظّا من الحياة العصريّة، فلو أردت أن تقيس به العدالة لحكمت بأنّ هناك عدالة لم تبلغ منتهاها فهي صالحة لا بأس بها، فإذا نظرت إلى آثارها و جعلتها دليلا للحكم أفضت بك إلى نتيجة بعيد المناسبة من النتيجة السّابقة ... لعلّك تظنّ أنّ شذوذ هذه الأمة عن غيرها لفساد طبيعتها و جمود قريحتها فإنّه ظنّ من قبيل الإثم المحض، إنّما ذلك لعبت بعض ولاّته بقوانينه و جشع غالب المستعمرين الذين يرون يقظة

¹ - الشهاب- ع24-29/04-1926م.

² - آثار ابن باديس-مصدر سابق-ج6-ص454.

الأهلي أشدّ عليهم بلاء من نزول البرد على غلائهم، و من كلّ جائحة، حتّى رشح إناء بعضهم بهذه الكلمة: إذا وجدت عربيّا و أفعى فاقتل العربي." (1) إنّ نشاط الجمعية السياسي مرّ بمرحلتين: المرحلة الأولى (من 1931-1940) (2) و فيها لم تتعاط السياسة بصورة مباشرة، بل اكتفت بالتلميح- كما أشرنا سابقا- و لعلّ مردّ ذلك إلى انشغالها بتنظيم صفوفها و إبعاد الطرقيين و أنصار الإدارة عنها ممّا جعلها تتحاشى مجابهة الاستعمار، و قد اكتفت بنقاش قضيتين هامتين تمسّان كيان الشعب الجزائري و وجوده و هما التّجنيس و الاندماج. (3)

1.III. التّجنيس:

صدر في 14 جويلية 1865م قانون شرّعه نابليون الثالث باسم "السيناتوس كونسولت LE SENATUS CONSULTE" و قد جاء في الفصل الأوّل منه أنّ "الأهلي المسلم الجزائري فرنسي، لكنّه يستمرّ خاضعا لأحكام القانون الإسلامي... و يمكنه إن طلب ذلك أن يتمتّع بحقوق الوطني الفرنسي، و في هذه الحالة تجري عليه الأحكام المدنية و السياسية الفرنسية." (4) و يلزم القانون كلّ من يرغب في الحصول على حقوقه كمواطن أن يتجرّد من إسلامه

¹ - الشّهاب - ع4 - 1925/12/03م- المقال للشيخ مبارك الملي "العدالة بآثارها".

² - تاريخ إنشاء الجمعية و إلى غاية وفاة رئيسها.

³ - مازن مطبقاني-جمعية العلماء و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية - مرجع سابق- ص86.

⁴ - أبو القاسم سعد الله-الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ص30.

و أن يبدل الشريعة الإسلامية بالقانون المدني الفرنسي، و كانت هذه بداية

قضية التجنيس.⁽¹⁾

إنّ القانون - و على الرغم من خطورته- لم يكن محلّ اهتمام الصحافة العربية

الصادرة قبل الحرب العالمية الأولى، و مردّد ذلك إلى عوامل كثيرة منها عدم إقبال

المواطنين على التجنيس، بل و عدم اكتراثهم به -عدا القلة القليلة من الشباب- ثمّ

إنّ الصيغة التي صدر فيها القانون لم تكن إجبارية، إذ أنّ التجنيس لا يتحقّق إلاّ

بطلب من المسلم نفسه. و قد قابل الجزائريون ذلك القانون بسلبية تامّة، و هو ما

جعل الإصلاحيين يتغاضون عن إثارة القضية أو معالجتها.⁽²⁾ إلاّ أنّ هذه الأخيرة ما

لبثت أن تطوّرت مع مرور الزمن بعدما تضاعف عدد المثقّفين باللّغة الفرنسية،

و"من هنا شتمّ المصلحون بكلّ حدّ عن ساعد العمل الجماعي يقفون صفاً واحداً

أمام كلّ الأفكار المنحرفة، و كانت المقالة الصحفية إحدى وسائلهم الفعّالة."⁽³⁾

فقد انبرت الجرائد لمهاجمة فرنسا و محاولتها تجنيس الجزائريين، و أخذت

'الشهاب' و 'الإصلاح' و 'المغرب' تحذّر المواطنين من الخطر الذي أصبح يحدق بهم

جرّاء ذلك القانون الجائر فقد حذّر توفيق المدني⁽⁴⁾ "الشبيبة الجزائرية من سلوك سبيل

¹ - ينظر محمد ناصر- المقالة الصحفية الجزائرية- ج1-ص361.

² - محمد ناصر- المقالة الصحفية الجزائرية- ج1-ص364.

³ - المرجع نفسه-ص365.

⁴ - في مقال له بالشهاب تحت عنوان "نحن بين الموت و الحياة". أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع

سابق-ص238.

التّجنيس الذي يؤدّي حتماً إلى التخلّي عن الوطنية و اللّغة و التّاريخ و الشّريعة الإسلامية. " كما هاجم أبو اليقظان المتجنّسين و اعتبرهم طبقة خارجة عن المجتمع، فيما صرّح الشّيخ ابن باديس أنّ الذين قبلوا القانون و تجنّسوا هم حتماً من الكفرة.⁽¹⁾

و أكّدت جمعية العلماء أنّ الشّعب الجزائري على الرّغم من كلّ المغريات، لن يقبل بديلاً عن دينه، و أنّه يؤثّر العيش في الفقر و الحرمان و الظلم و الضيم على أن يتخلّى عن وطنيته و دينه. و هكذا وجد المتجنّسون أنفسهم مذنبين لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء. فلا هم نالوا الحظوة الّتي نالها الفرنسيّون من حقوق و امتيازات. و لا هم اكتسبوا حبّ و احترام بني جلدتهم. و يعدّ المصلح الاجتماعي عمر بن قُدّور من أوائل الكتّاب الجزائريين مقاومين للتّجنيس و الفرنسة "... إنّ اندماج المسلمين بالعائلة الفرنسية خطر محض، و بوار لقومية عنصر شريف ينتمي إلى أمّة عظمى، و يتمسك بأهداب ملّة تأتي عليه المروق منها، فلو أنصف هؤلاء النّفر لأحلّوا أمّتهم و قوميتهم المحلّ اللائق بمما، ثمّ تشبّثوا بكلّ ما يصحّ لهم التشبّث به في طلب سعادة أبناء جلدتهم و رفاهيتهم."⁽²⁾

¹ - المرجع السابق-ص239.

² - من مقال "طور جديد للجزائر و الجزائريين لعمر بن قُدّور نقلا عن المقالة الصحفية الجزائرية-مرجع سابق-ص366.

و يؤكد ابن قدور أنّ الرقيّ لن يتمّ بالحصول على الحقوق السياسية و إنّما عن طريق التعليم، و أنّ القوّة لا تتحقّق بانصهار المسلمين في الجنس الفرنسي بل بالحفاظ على تعاليم الدّين الحنيف و التمسك بها.⁽¹⁾ كانت الجمعية شديدة الحرص على الشخصية الإسلامية حتّى أنّها جعلت منها القاعدة الأساسية لعملها، فلا خير للمسلمين عموماً و الجزائريين على وجه الخصوص بدونها. يبدو ذلك جلياً في ردّ العلامة ابن باديس على الوزير الفرنسي⁽²⁾ و على دعاة الانسلاخ من القومية الدينية مقابل نيل الحقوق المدنية حين يقول "...قال الوزير كلمته- و هو عالم بمقتضاها- للوفد الجزائري الممثل للجزائر بجزائريتها و لغتها و دينها، و تقاليدها و قوانينها⁽³⁾، و لم يكن شيء من هذا مانعاً لها في نظره من أن تعتبر فرنسوية لها ما لجميع أجزاء فرنسا و عليها ما عليها. فضلّ قوم - لهم احترامنا- حسبوا أنّ الجزائر لا تستحقّ حقوقها مع قيامها بجميع الواجبات حتّى تنسلخ من جميع تلك الخصوصيات، و ضلّ آخرون - لهم احترامنا أيضاً- حسبوا أنّ الجزائري إذا حافظ على لغته و ديانته و تقاليدته لا يكون سائراً فيما يرضي فرنسا و يوافق سياستها.⁽⁴⁾

¹ - المرجع السابق-ص366.

² - وزير الداخلية الفرنسي قال للشيخ حين استضافه في أعياد 14 جويلية "إنّ عرضتكم لوزارة الداخلية لها معنى مخصوص، حيث أنّها تعتبر دار الفرنسيين و أنتم تعتبرون واحداً منهم." الشهاب-ج9-م6-ص575.

³ - جمع فنور و هي قطعة كتان طويلة يلفّ بها الرأس، و هي لباس عربي.

⁴ - الشهاب-ج9-م6-ص575.

و إذا كان الشَّيخ ابن باديس قد اكتفى في ردّه على الوزير الفرنسي بالتلميح للقضية، فإننا نجد في موقف آخر يبدي رأيه صراحة حين أعرب المتجنسون عن خيبة أملهم، و اعترفوا بخطأ رأيهم. يقول "أقرّ الخصم و ارتفع النزاع، داعية التّجنس يعترف بالخيبة... لقد بات معلوما ضروريا أن رفض أحكام الإسلام هو ارتداد عنه، و ما كان أكثر الذين فعلوا هذه الفعلة على قلتهم عالين بهذه الحقيقة و ما أقدموا على ما أقدموا عليه من رفض الإسلام إلاّ ببواعث الرّغبة في عرض الدّنيا، و دواعي الطّمع في نيل الحقوق الفرنسيّة كالفرنسيين الحقيقيين، و لكنّ هذه الرّغبة لم تتمّ، و هذا الطّمع لم يتحقّق و بقي القوم و يا للأسف معلقين لا من ملّة آبائهم و لا من الملّة الأخرى." (1)

و هكذا فإنّ الإصلاحيين حين عرضوا القضية التّجنيس تناولوها من الزاوية الدّينية و قاسوها بمقياس الدّين، يستلهمون منه الحكم و يستمدّون منه الفتوى. (2) بل إنّ الشَّيخ ابن باديس ذهب إلى حدّ تكفير من يطلب التّجنيس لأنّ "التّجنيس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشّريعة، و من رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عدّ مرتدّا بالإجماع... و الذي يقع عليه القضاء بحكم يتحقّق أنّه حكم الشّريعة الإسلامية، فيسعى في نقضه بحكم من غيرها، هو برفضه لذلك الحكم

¹ - الشهاب نقلا عن المقالة الصحفية-مرجع سابق-ص378.

² - محمد ناصر-المقالة الصحفية-مرجع سابق-ص379.

و طلبه لغيره مرتدّ عن الإسلام، و توبة هذا بإقلاعه عن طلب الحكم الآخر أو بتنفيذه لحكم الإسلام إن كان غيره قد وقع.⁽¹⁾

و كان الشّيخ قد عرض للموضوع ذاته في أكثر من موضع بجريدة البصائر. منها ما أفقّى به في معرض إجابته عن سؤال حول جواز دفن المتجنّسين بالجنسية الفرنسية في مقابر المسلمين. فكان ردّه بالإيجاب إذا كان قاصرا غير مكلف أمّا إذا توفّي و"كان مكلفا و لم يعلم منه إنكار ما صنع أبوه و البراءة منه، فهو مثل أبيه لا يصلّي عليه و لا يدفن في مقابر المسلمين."⁽²⁾

2.III. الاندماج:

تأفّت كثير من رجال السياسة على الاندماج و رأوا فيه السبيل الوحيد للوصول إلى حقوق الجزائر المسلوبة. و يأتي في طليعة هؤلاء دعاة التّجنّيس من أمثال الزناتي -صاحب جريدة "صوت الأهالي la voix indigène" - بالإضافة إلى النوّاب و شخصيات أخرى، كالدكتور بن تامي و الفاسي و غيرهما. كما كانت التّخبة الجزائرية المثقفة ثقافة فرنسية ترغب في الاندماج بفرنسا- مع الاحتفاظ بأحوالها الشخصية الإسلامية- و كان على رأس هؤلاء الدكتور بن جلّول

¹ - البصائر-ع95-س3-1938-"التجنّس و التّوبة منه."

² - البصائر-س2-ع79-1937.

و فرحات عباس... " وكانت رغبتهم في الاندماج نابعة من اعتقادهم بأنه السبيل الوحيد للتخلص من النظام الاستعماري و من قوانين الأندجينا.⁽¹⁾

و قد تصدّ الشيخ ابن باديس لهؤلاء و أمثالهم في جريدة "لادفانس-الدفاع"⁽²⁾ حين تحدّث عن فكرة عقد مؤتمر إسلامي جزائري، لأنّ المرجع في مسائل الأمة هو الأمة، و الوسطة لذلك هي المؤتمرات. و بقيت الفكرة تتردّد في النوادي حتّى فازت الجبهة الشعبية بفرنسا و تأسّس المؤتمر الإسلامي الجزائري يوم 7 جوان سنة 1936، و كان غالبية من به من دعاة الاندماج و أنصار مشروع بلوم فيولت⁽³⁾، و قرّر العلماء أن يشارك فيه الشيخ عبد الحميد بن باديس و الشيخ الطيب العقبي و الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ محمّد خير الدّين، و غيرهم من العلماء باسمهم باسمهم الخاص. و كان لمشاركة العلماء أثر فعّال في تعطيل الاندماج، و إبراز الدّاتية الإسلامية العربية الجزائرية، لاسيما و أنّهم حرصوا على المطالب التّالية⁽⁴⁾:

¹ - أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص240.

² - 'الدفاع'مجلة ناطقة بالفرنسية كان يصدرها العمودي، و قد ورد الحديث عن المؤتمر في عددها الثاني في جانفي 1936. مازن مطبقاني-جمعية العلماء و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ص172.

³ - مشروع بلوم فيولت وضعته حكومة الجبهة الشعبية في 1936. و ينصّ على الموافقة على أن تمارس بعض الفئات من الرعايا الفرنسيين في الجزائر الحقوق السياسية الممنوحة للفرنسيين دون أن يغيّر ذلك في أحوالهم الشخصية أو حقوقهم المدنية. أبو القاسم سعد الله-الحركة الوطنية-مرجع سابق-ج3-ص.

⁴ - مطالب المؤتمر رفعت إلى الحكومة الفرنسية. ينظر حمزة بوكوشة-عبد الحميد بن باديس-مجلة حضارة الإسلام-ع1-س5-1964.

– المحافظة على الحالة الشّخصية الإسلامية مع إصلاح هيئة المحاكم الشّرعية بصفة حقيقية تطابق روح القانون الإسلامي.

– إرجاع سائر المعاهد الدّينية إلى الجمعيات الإسلامية.

– إلغاء كلّ ما اتّخذ ضدّ اللّغة العربية من وسائل استثنائية و اعتبارها لغة رسمية مع اللّغة الفرنسية.

و ينضاف إلى هذه المطالب، إلزامية التّعليم للبنين و البنات و كذا حرّية الصّحافة العربية.⁽¹⁾ و قد وقف دعاة الاندماج وقفة عدائيّة أمام هذه المطالب متّهمين العلماء بالجهل السّياسي، و أبدوا رفضهم لمشاركة هؤلاء في المؤتمر، فردّ عليهم الشّيخ ابن باديس قائلاً "فويحكم... إنّ العلماء الذين تعنون من الأمّة في الواقع و الحقيقة في حال أنّكم لا تعدّون منها إلّا على الزّعم و الدّعوى، و أنّ العلماء يمثّلون الوصف الذي ما كانت أمّة إلّا به و هو الإسلام و لسانه..."⁽²⁾

إنّ المتتبع لمسيرة جمعية العلماء السّياسية قد يجد فيها شيئاً من التّناقض ذلك لأنّها أكّدت مرارا وتكرارا رفضها للاندماج جملة و تفصيلا، و هاهي في المؤتمر الإسلامي تبدي موافقتها على مطلب إلحاق الجزائر بفرنسا. و في هذا الشّأن نقول إنّ الجمعية ظلّت متمسّكة برفضها للتّجنيس و الاندماج، و لم تر بأسا من إلحاق الجزائر بفرنسا "سياسيا" ذلك أنّها تفرّق بين الجنسية القومية و الجنسية السّياسية.

¹ – أحمد الخطيب-جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص247.

² – مجلّة حضارة الإسلام-مرجع سابق-ص87.

فالجنسية القومية في نظر الجمعية هي مجموعة المقومات التي تطبع شعبا معينا وتشمل " اللغة التي يعرب بها و يتأدّب بأدبها، و العقيدة التي يبني حياته على أساسها، و الذكريات التاريخية التي يعيش عليها و ينظر لمستقبله من خلالها و الشعور المشترك بينه و بين من يشاركه في هذه المقومات و المميزات." (1)

و بذلك فإنّ الأمة الجزائرية تتمتع بكافة مقومات و مميزات الجنسية القومية التي يستحيل إضعافها فيها فضلا عن اندماجها أو محوها. (2)

أمّا الجنسية السياسية فهي في تعريف الجمعية "أن يكون لشعب ما لشعب آخر من حقوق مدنية و اجتماعية و سياسية، مثلما كان عليه ما على الآخر من واجبات اشتركا في القيام بها لظروف و مصالح ربطت ما بينهما." (3)

و من هنا جاءت موافقة الجمعية على إلحاق الجزائر بفرنسا من باب الرغبة في حصول الشعب الجزائري على الحقوق و الواجبات التي يتمتع بها المواطنون الفرنسيون مثلما أقرّ قانون 1865م الذي بقي مجرد حبر على ورق. بل طبّق تطبيقا جائرا، إذ فرض على الجزائريين جميع الواجبات المفروضة على الفرنسيين دون أن يقابلها بالحقوق التي يتمتع بها هؤلاء لذلك فقد " نهضت الأمة نهضتها بمؤتمرها الفخم الجليل، و قرّرت فيه بالإجماع المحافظة التامة على المميزات

1 - الشهاب-ج12-م12-1937"الجنسية القومية و الجنسية السياسية."

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه.

الشخصية و المطالبة بجميع الحقوق السياسية.⁽¹⁾ و مما لا يدع مجالاً للريب و الشكّ في موقف الجمعية الرافض للاندماج و الانصهار في الشخصية الفرنسية، قول الشيخ ابن باديس "إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، و لا يمكن أن تكون فرنسا، و لا تريد أن تصبح فرنسا، و لا تستطيع أن تصبح فرنسا و لو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كلّ البعد في لغتها و في أخلاقها و في عنصرها و في دينها، لا تريد أن تندمج و لها وطن محدود معيّن هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة و الذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية."⁽²⁾ و يؤكّد هذا الموقف الشيخ عبد الرحمن شيبان الذي يرى "أنّه من التجنّي على التاريخ و مجافاة الحقيقة و الموضوعية اتّهام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية بأنّها كانت من دعاة الاندماج فهناك العديد من الوقائع و البراهين تعارض هذا الزّعم، في طليعتها نشيد الإمام عبد الحميد بن باديس -عليه رحمة الله- أوّل رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذا التّشيد⁽³⁾ الخالد الذي مازالت تردّده أجيال الجزائر منذ أن نظمه في حفل مدرسي أقيم احتفاءً بذكرى المولد النبوي الشريف -على صاحبه أفضل الصّلاة و أزكى التّسليم- في سنة 1937م. و هذا التّشيد تجسيد لأعمال الجمعية في تغذية القيم

¹ - الشهاب-ج12-م12-1937"الجنسية القومية و الجنسية السياسية."

² - الشهاب -ج1-م12-1936-ص45-46.

³ - يقصد به نشيد 'شعب الجزائر مسلم. البصائر-5-3-1430-7/3-2009-ع433ص2.

القومية العربية الإسلامية... و من الجهة الأخرى، فهناك شهادة جريدة صوت المتواضعين "La voix des Humbles" لسان حال التيار الاندماجي في الجزائر التي تقول في سنة 1934: إن أخطر تنظيم على سياسة الاندماج هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأنها تحارب اللغة الفرنسية التي تعتبر الوسيلة الأساسية لتحقيق الاندماج.⁽¹⁾

و إذن فكما وقفت جمعية العلماء ضدّ التّجنيس، كذلك رفضت الاندماج في المجتمع الفرنسي خشية على الشعب الجزائري من الذّوبان و الاضمحلال، فكان أن صارت محاولات التّجنيس و الاندماج منذ مطلع الثلاثينيات أي منذ تأسيسها. و لئن كان موقف الجمعية من التّجنيس و الاندماج هو الرّفص، فما موقفها من ثورة نوفمبر المظفّرة و ما مدى إسهامها فيها؟

3.III. الجمعية و الثّورة:

بعد اندلاع الثّورة التّحريرية، و إعلان ميلاد جبهة التّحرير الوطني ممثّلا شرعيا و وحيدا لكفاح الشعب الجزائري، وفق ما ينصّ عليه بيان أوّل نوفمبر،⁽²⁾ اختلفت مواقف الأحزاب و الجمعيات الجزائرية القائمة آنذاك بين مؤيّد

¹ - البصائر - 5-3-1430/7-3-2009 - ع433 ص2.

² - عبد الرحمن شيبان - حقائق و أباطيل - الجزائر - مطبعة ثالة - ط2 - 2009 - ص85.

و معارض و متحفّظ⁽¹⁾. فلقد كانت الطلقات الأولى التي بثّرت بانديلاع الثورة مفاجأة كبرى بالنسبة لمسيرى كافة التشكيلات السياسية المعروفة في البلاد لاسيما و أنّ معدّي الثورة حرصوا على التحلّي بالسريّة التامة طوال فترة التحضير لها. و جمعية العلماء كانت في طليعة التشكيلات السياسية و الهيئات الثقافية و الاجتماعية التي وجدت نفسها صبيحة الاثنين من الفاتح نوفمبر 1954 و جهها لوجه مع ذلك الوضع، و كانت افتتاحية البصائر في الخامس نوفمبر 1954 معبّرة عن دهشة الجمعية و عن الحالة النفسية التي كان عليها أعضاؤها⁽²⁾، يقول الورتلاني "إننا إلى حدّ هذه الساعة لا نملك التفاصيل المقنعة عن هذه الحوادث و أسبابها و ليس بين أيدينا إلاّ ما تتناقله الصحف و شركات الأخبار، فلا نستطيع أن نعلّق عليها أدنى تعليق إلى أن يتبيّن لنا طريق الصواب، فليس من شأن البصائر أن تتسرّع في مثل هذه المواطن."⁽³⁾ و بهذا يرى البعض أنّ موقف الجمعية من الثورة-عند اندلاعها- لم يتحدّد بصفة رسمية و علنية، رغم دفاعها المستميت عن مقوّمات الشعب الجزائري. فانقسم أنصارها إلى تيارين: يرى الأوّل أنّ مفعّري الثورة يفتقدون إلى الجديّة في مطالبهم، و يدعو السّطات الفرنسية إلى التّعجيل

1 - أحمد الخطيب - جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي - مرجع سابق - ص 250.

2 - البصائر - ع 76 ص 173 - "حوادث الليلة الليلية" - محمّد الفضيل الورتلاني.

3 - الفضيل الورتلاني - الجزائر الثائرة - مصدر سابق - ص 181.

بالإصلاحات الشاملة المبنية على العدالة و المساواة و احترام مقومات الشعب

الجزائري.⁽¹⁾

أما التيار الثاني فقد أعلن عن مساندته للثورة داعياً الشعب الجزائري إلى تلبية نداء جبهة التحرير الوطني، و وجه هذا التيار بيانا بهذا الصدد وقّعه حوالي ثلاثمائة معلّم

من معلّمي الجمعية، و كان الشيخ العربي التبسي من أبرز المنتخبين للثورة.

على أن التاريخ يسجّل بأن جمعية العلماء قد سارعت - كقيادة - لمساندة

الثورة منذ الوهلة الأولى من انطلاقها. بل هناك من مسؤوليها من يجزم بأن مجموعة

من أعضاء الجمعية قد التحقوا مبكّرين بصفوف جبهة التحرير الوطني، و أن

سنة 1954م لم تطلع إلاّ و هم يشرفون على مناصب حسّاسة في الثورة خاصّة في

المنطقة الثانية بقسنطينة حيث مقرّ الجمعية العملي.⁽²⁾ و من جملة الأعضاء البارزين

نذكر السيد إبراهيم مزهودي الذي حضر مؤتمر وادي الصومام، و السيد محمّد

الميلي الذي جنّد قلمه لخدمة المقاومة الجزائرية، و الشيخ أحمد حمّاني، و الشيخ

الطاهر حرّاث، و الشيخ بركاني عبد الرّحمن، و غيرهم ممّن سارعوا لتلبية نداء

الفتاح من نوفمبر 1954م.⁽³⁾ و بذلك يمكننا الجزم أن الجمعية كانت في الطليعة

¹ - عن القرص المضغوط-عبّاس محمّد الشريف-تاريخ الثورة الجزائرية 1830.1962-

المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية لثورة 01 نوفمبر.

² - محمّد العربي الزبيري-الثورة في عامها الأوّل-المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-1986-ص186.

³ - محمّد خير الدين-مذكرات-مصدر سابق-ج2-ص185.

الثورية، و أن رئيسها الشيخ الإبراهيمي واصل، رفقة أعضائها، الدفاع عن مبادئها و حقّ الشعب في التمتع بشخصيته السياسية و الحضارية خارج البوتقة الاستعمارية الفرنسية. و قد وقف الشيخ مع هذا المبدأ سواء حين كان داخل القطر الجزائري أم خارجه. و عندما أعلن الشعب ثورته كان الشيخ أوّل من احتضنها من الزعماء بالرغم من أنه كان في المشرق بعيداً عن الوطن.⁽¹⁾

و لعلّ البيان الذي أصدره الشيخ الإبراهيمي بمعية الشيخ الورتلاني، في اليوم الموالي لاندلاع الثورة يؤكّد ما نذهب إليه من أن الجمعية قد تبنت الثورة منذ الأيام الأولى من انطلاقها. و ممّا جاء فيه "ثمّ قرأنا اليوم في الجرائد بعضَ تفصيل ما أجملته الإذاعات، فحفقت القلوب لذكرى الجهاد الذي لو قُسمت فرائضه لكان للجزائر منه حظّان بالفرض و التعصيب، و اهتزّت النفوس طرباً لهذه البداية التي سيكون لها ما بعدها، ثمّ طرقنا الأسي لأن تكون تلك الشجاعة التي هي مضرب المثل لا يظاها سلاح، و تلك الجموع التي هي روق الأمل لا يقودها سلاح، إنّ اللحن الذي يشجي الجزائري هو قعقعة الحديد في معمعة الوغى، و إنّ الرائحة التي تعطر مشامه هي رائحة هذه المادّة التي يسمّونها البارود."⁽²⁾

¹ - محمد العربي الزبيري-الثورة في عامها الأوّل-مرجع سابق-ص188.

² - البيان أصدره الإبراهيمي والورتلاني بمصر في 2 نوفمبر 1954. أنيسة بركات درار-أدب النضال في الجزائر(من سنة 1945 حتى الاستقلال)-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1984-ص164.

و مثله أيضا بيان جمعية العلماء الذي وقّعه الشّيخ الإبراهيمي في القاهرة بتاريخ الثّامن نوفمبر 1954م، دعا فيه إلى الالتفاف حول الثّورة.⁽¹⁾

و الحقيقة أنّ احتضان الجمعية للثّورة يتجلّى في أكثر من موقف لعلمائها، فإلى جانب الشّيخ الإبراهيمي نجد الفضيل الورتلاني يوجه خطابا "إلى الثّائرين الأبطال من أبناء الجزائر: اليوم حياة أو موت، بقاء أو فناء." و هو مقال تبنّته جمعية العلماء من خلال مكتبها بالقاهرة منذ اليوم الثّالث من اندلاع الثّورة و قد وقّع عليه مكتب الجمعية بالقاهرة⁽²⁾ و ممّا جاء فيه "...حيّاكم الله أيّها الثّائرون الأبطال، و بارك في جهادكم، و أمدّكم بنصره و توفيقه، و كتب ميّتكم في الشّهداء الأبرار، و حيّكم في عباده الأحرار...أيّها الأحرار الجزائريون، أيّها المكافحون في جميع أقطار المغرب العربي اعلموا أنّ الجهاد للخلاص من هذا الاستعباد قد أصبح اليوم واجبا عاما مقدّسا فرضه عليكم دينكم، و فرضته قوميتكم، و فرضته رجولتكم، و فرضه ظلم الاستعمار الغاشم الذي شملكم، ثمّ فرضته أخيرا مصلحة بقائكم، لأنّكم اليوم أمام أمرين: إمّا حياة أو موت، إمّا بقاء كريم أو فناء شريف."⁽³⁾

¹ - محمّد يوسفى-الجزائر في ظلّ المسيرة النضالية-تقديم و تعريب محمّد الشريف بن دالي حسين-د.ط-د.ت-ص102.

² - الفضيل الورتلاني-الجزائر الثّائرة -مصدر سابق-ص170.171.

³ - الجزائر الثّائرة-ص170. و ينظر أيضا. الشّيخ عبد الرحمن شيبان-حقائق و أباطيل-ثالثة-مرجع سابق-ص298.

كما أصدر مكتب الجمعية بالقاهرة بيانا آخر في الحادي عشر من نوفمبر 1954 بعنوان "أوسع المعلومات عن بداية الثورة في الجزائر" يبرز أهمية الثورة التي شملت الجزائر كلها شرقا و غربا، شمالا و جنوبا.⁽¹⁾

و في 15 نوفمبر صدر بيان آخر عنوانه: "نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد نعيذكم بالله أن تتراجعوا"⁽²⁾ جاء فيه: "حيّاكم الله و أحيّاكم، و أحيى بكم الجزائر، و جعل منكم نورا يمشي من بين يديها و من خلفها، هذا هو الصّوت الذي يُسمع الآذان الصمّ، هذا هو الدّواء الذي يفتح الأعين المغمّضة، هذه هي اللّغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، و هذا هو المنطلق الذي يقوم القلوب الغلف، و هذا هو الشعاع الذي يخترق الحجب و الأوهام... إنكم كتبتم البسمة بالدماء في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملئوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، و هي إرث العروبة و الإسلام فيكم... أيّها الإخوة الأحرار، هلّموا إلى الكفاح المسلّح، إنّنا كلّما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، و ذكرنا فظائعها في معاملة المسلمين - لا لشيء إلا لأنّهم مسلمون - كلّما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا و احتقرنا المسلمين و خجلنا من الله أن يرانا و يراهم مقصّرين في الجهاد لإعلاء كلمته، و كلّما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها و ألزمها في أعناقنا إنّما هو الكفاح المسلّح، فهو الذي يسقط علينا

¹ - آثار إبراهيمي - مصدر سابق - ج 5 - ص 41.

² - محمّد العربي الزبيري - الثورة في عامها الأوّل - مرجع سابق - ص 190.

الواجب، و يدفع عَنَّا و عن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، و بعونه و توفيقه إلى ميدان الكفاح المسلّح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين: إمّا موت، و إمّا حياة و راءها العزّة و الكرامة."⁽¹⁾

أمّا داخل الوطن فقد تمثّل موقف الجمعية المساند للثورة في بيان المؤتمر السنوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في اجتماعها العام يوم السابع يناير 1956م بعنوان "الاستعمار مسؤول عن كلّ شيء" و هو بيان يبرز تبني المؤتمر السنوي للجمعية في الدّاخل للثورة، و يحمّل الاستعمار مسؤولية ما يحدث في الجزائر، و قد وقّع البيان كلّ من توفيق المدني و العربي التبسي.⁽²⁾ و إذا نظرنا إلى مساهمة الجمعية في الجهاد نجدها مادّية، و التحامها مع جبهة التّحرير الوطني أمر مؤكّد، فما الجبهة و الجمعية إلّا وجهان لعملة واحدة فالجمعية التزمت بالتّعليم و بثّ الوعي و نسف الخرافات و ترسيخ العقيدة الصّحيحة، و الجبهة التزمت بتنظيم الشّباب و تعويدهم على مشاق الحياة و تحمّل المسؤوليات و الصّعاب.⁽³⁾ "و إنصافا للتّاريخ نقول إنّه لولا أولئك الفتية الذين آمنوا برّبهم و وطنهم و كونوا أنفسهم في الخفاء و اجتمعوا تجاوبوا و قرّروا الثّورة لكانت الجزائر بدون جمعية العلماء كريشة في مهبّ الرّيح سنة 1954، و ينبغي أن نعرف مستقبلا كم من الّذين فجّروا ثورة

¹ - محمّد العربي الزبيري-الثّورة في عامها الأوّل-مرجع سابق-ص190.

² - البصائر-ع56-1956-ص124-"اليوم الخالد في تاريخ النهضة الجزائرية."

³ - عثمان باهي-الفكر الإصلاحي و السياسي-أشغال الملتقى الوطني الثالث للفكر الإصلاحي في الجزائر-2006-ص94.95.

التحرير 1954 كانوا من خريجي خلايا حزب الشعب وكم منهم من خريجي

مدارس جمعية العلماء وكم من هؤلاء و أولئك صدقوا ما عاهدوا الله عليه." (1)

¹ - القول لأبي القاسم سعد الله نقلا عن أبي محمد-منير السياسة العالمية-مجلة المصادر-ع7-
رمضان 1423-ص110.

الفصل الثالث

نقد الذم

أدبية

لم تنشأ المقالة الأدبية في الجزائر إلاّ مطلع القرن العشرين، و يكمن سبب تأخرها في الظروف الاستعمارية التي منعت الكتاب الجزائريين من التعبير عن قضايا مجتمعهم و عن أحاسيسهم. و لم تستطع المقالة الأدبية أن تفرض وجودها إلاّ مع ظهور الصحافة الوطنية التي تعدّ منبرا لبثّ أفكار و مواقف و آراء أصحابها⁽¹⁾، أضف إلى ذلك صلة الجزائريين بالشرق و اقتفاء الكتاب و الأدباء أثر المشاركة، و كذا الحركات السياسية و الإصلاحية التي أسهمت في النهضة الفكرية، و هو ما ساعد على ظهور أشكال أدبية مثل المقال الذي ظهر ليعالج مسائل سياسية ثمّ إصلاحية ثمّ أدبية إصلاحية ثمّ أدبية صرفة.

و المقال نشأ أولاّ و أخيرا في أحضان الحركة الإصلاحية⁽²⁾ التي كان كتابها يصدر عن رؤية دينية إصلاحية، و يفعلون بما يكتبون و يعبرون عن مشاعرهم و أحاسيسهم تجاه المجتمع و الحياة و من ثمة بدأ المقال الإصلاحي يتّجه إلى مخاطبة العاطفة و التأثير في الوجدان ثمّ التعبير عن الذاتية أو شخصية كاتبه.

و يمكننا أن نميّز بين نوعين من المقال الأدبي ظهرا في النثر الجزائري الحديث، و هما المقال الأدبي الإنشائي و المقال الأدبي الإصلاحي⁽³⁾. و قد ساعد على انتشار

¹ - عبد الملك مرتاض- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-مرجع سابق-ص96.

² - ينظر محمد عبّاس- البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص135.

³ - عبد الله ركيبي-تطور النثر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص135.

النوعين عامل أساسي يتمثل في الصحافة التي أدت دورا هاما في ذبوع هذا الشكل النوعي كما ساعدت على انتشار غيره من أشكال التعبير نثرا و شعرا.⁽¹⁾

و تختلف تيارات هذا الشكل النثري (المقالة) باختلاف اتجاه الكاتب و انتمائه الفكري، فإذا كان ينتمي إلى الاتجاه المحافظ تجد أسلوبه تقليديا مباشرا و لغته متكلفة لا روح فيها، و يمثل هذا الاتجاه تلك الفئة التي درست في الزوايا و في مراكز الطرق الصوفية، و المثقفون ثقافة مزدوجة ممن اتسمت مقالاتهم بالتقليد و الضعف في الأسلوب- و إن كانوا مجددّين من حيث الأفكار و النظرة إلى الواقع⁽²⁾- أمّا الكتاب المتمون للتيار الإصلاحى الذين تأثروا بالثقافة العربية و نهضتها الحديثة (الفكرية و الأدبية) فيمكن أن نميز فيهم نوعين من كتاب المقالة:

- النوع الذي اهتم بالفكرة و توصيلها بأسلوب صريح مباشر و عناية ببعض خصائص الأساليب و البيان العربيين دون اهتمام كبير بالتعبير الجميل و الأسلوب المنمّق. و هذا النوع السائد في الكتابات الإصلاحية و يأتي في طليعة هذه الفئة من الكتاب و الأدباء الشّيخ عبد الحميد بن باديس، و العربي التبسي و مبارك الملي و غيرهم من كتاب المقال الإصلاحى الذي

¹ - عبد الله ركيبي-تطور النثر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص136.

² -المرجع نفسه-ص137.

يغلب عليه الطابع الذهني و الروح الدينية و القليل من العناية بالجانب

الفني الأدبي. (1)

— أما النوع الثاني من هؤلاء الكتاب فقد اهتموا بالفكرة و التعبير معا و عنوا

باللغة من حيث الإيجاء و جمال التعبير و مراعاة الصور البيانية، و هم

فريقان، فريق لاءم بين الفكرة و الأسلوب العربي التقليدي و البلاغة العربية

القديمة و يأتي في مقدمتهم الشيخ البشير الإبراهيمي. و آخر حاول

التجديد في الأسلوب و المضمون معا، و يمثل هؤلاء أحمد رضا حوحو

و رمضان حمود. (2)

هذا و قد شارك الشعراء أقرانهم من الكتاب الاهتمام بقضايا المجتمع فنظموا

القصائد في شتى المجالات و اهتموا بالإصلاح الديني و الاجتماعي و السياسي، بل

إن البعض منهم جمع بين الشعر و النثر معا كالشيخ الطيب العقبي

و الزاهري... و قد واجه الشعراء الطرفين و جاهوهم، كما عنوا بتربية النشء

و تهذيبه - شأنهم في ذلك شأن كتاب المقالة - و أثاروا قضايا تتصل بالاستعمار

و تداعياته على حياة الجزائري. و لعل أبرز قضية استأثرت باهتمام كتاب المقالة

¹ - المرجع السابق - ص 139.

² - عبد الله ركيبي - تطور النثر الجزائري الحديث - مرجع سابق - ص 139.

بأنواعها⁽¹⁾ هي انتماء الشعب الجزائري إلى الأمة العربية الإسلامية و الدفاع عن اللغة العربية، و أنّ هذا الانتماء يجعل الجزائر كيانا مستقلاً و ليس جزءاً من فرنسا.⁽²⁾

و لأنّ صدر الرسالة لا يتسع لهؤلاء الأدباء و الشعراء بأجمعهم (فهم من الكثرة بحيث يستحيل الإمام بهم في رسالة واحدة) ارتأينا أن نقتصر على نماذج تعدّ بحقّ قدوة - كلّ في مجاله - فكان أن وقع اختيارنا على الشيخ البشير الإبراهيمي رائداً للمقال الأدبي الإصلاحية، و محمد العيد آل خليفة رائداً للشعر الإصلاحية، و أحمد رضا حوحو رائداً للقصة القصيرة، و هؤلاء الثلاثة كانت لهم إسهامات كبيرة وبصمة خاصة في جريدة البصائر، لاسيما السلسلة الثانية منها.

I. المقال عند الإبراهيمي:

لم يخض الإبراهيمي معترك الصحافة الوطنية في بداية نشاطه مثلما هو شأن زملائه الإصلاحيين من أمثال ابن باديس و العقبي و أبو اليقظان و الزاهري. فقد كانت انطلاقته في عالم الصحافة سنة 1925م بكتابة بعض المقالات في جريدة الشهاب، ثمّ برز عقب وفاة ابن باديس و تصدرت مقالاته افتتاحيات "البصائر"

¹ - أثارت هذه القضايا اهتمام الصحافة الإصلاحية و السياسية والأدبية... وإن كان كلّ منها تطرّق إليها من زاوية خاصة. فالمصلحون تناولوها من الزاوية الدينية أمّا السياسيون فانصبّت عنايتهم على المشاكل السياسية و محاربة الاستعمار...

² - محمد مرتاض- فنون النثر الأدبي في الجزائر- مرجع سابق-ص88.

الثانية إبتداء من عام 1947م. في هذا التاريخ عادت البصائر إلى الصدور " و حمل العدد الأول من سلسلتها الجديدة خلاصة مطالب الجمعية التي هي مطالب الأمة العربية الجزائرية في أعزّ عزيز عليها، و هو دينها لغتها."⁽¹⁾

و كانت البصائر تعتمد الصرامة و الصراحة في معالجة قضايا المجتمع الجزائري وكذا قضايا الأمة العربية و الإسلامية.⁽²⁾ و كان رئيس تحريرها الشيخ إبراهيمي يحرص أشدّ الحرص على إتباع المنهج الذي رسمه لها سواء في تناوله للقضايا الاجتماعية و السياسية الداخلية أو في تناوله لقضايا الأمة الإسلامية و العربية.

1.I. الإبراهيمي و الإصلاح الاجتماعي:

إنّ المتصفح لمقالات الإبراهيمي يجدها كثيرة الاهتمام بالمواضيع الاجتماعية بحيث يصعب حصرها في هذه الدراسة. و حسبنا أن نشير إلى بعض العناوين التي تدلّ دلالة واضحة على هذا المنحى في كتاباته من مثل "الشبان و الزواج"⁽³⁾، "الطلاق"⁽⁴⁾، "الصدّاق و هل له حدّ"⁽⁵⁾... و المقالة الاجتماعية تصوّر جوانب واقعية من عصر الكاتب و شؤون مجتمعه و مظاهر انبرى الإبراهيمي لمحاربتها، في مقدّماتها الانحلال الخلقي و الآفات الاجتماعية. و هو حين يتناول هاته القضايا

¹ - أحمد الخطيب-جمعية العلماء و أثرها الإصلاحي-مرجع سابق-ص150.

² - المرجع نفسه-ص155.

³ - الشيخ الإبراهيمي-عيون البصائر-الجزائر-دار الأمة للطباعة والنشر-2007-ص315.

⁴ - المصدر نفسه-ص320.

⁵ - المصدر نفسه-ص351.

و يعالجها يسعى لبناء الشخصية الجزائرية و إعدادها إعدادا وطنيا سليما⁽¹⁾ من خلال نظرة شمولية تتعدى المفهوم الضيق للوجه التعبدي من الإسلام، فهو يرى في هذا الأخير دستورا متكاملًا من شأنه إحداث هضبة حقيقية "و يا ويح الجاهلين أريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم قل: لا إله إلا الله مذعنا طائعا، و صلّ لربك أوأها خاشعا، و صم له مبتهلا ضارعا و حجّ بيت الله أوأبا راجعا، ثمّ كن ما شئت هبة للتأهب، و غنيمة للغاصب و مطيئة ذلولا للراكب، إن كان هذا ما يريدون فلا و لا قرّة عين... و إنّما نقول للمسلم إذا فصّلنا: كن رجلا عزيزا قويا عالما هاديا محسنا كسوبا معطيا من نفسك، آخذا لها عارفا للحياة سباقا في ميادينها، صادقا صابرا هيّنا إذا أريد منك الخير، صلبا إذا أردت على الشرّ، و نقول له إذا أجهلنا: كن مسلما كما يريد منك القرآن و كفى..."⁽²⁾

فالإبراهيمي يرسم للمسلم الطّريق السويّ لبناء مجتمع سليم قوامه الدّين و دعائمه الوحدة و التماسك، لذا نجده يدعو إلى الوحدة الاجتماعية في ظلّ وحدة دينية⁽³⁾ "إنّ التّفرّق شرّ كلّ، و شرّ أنواع التّفرّق ما كان في الدّين و أشنع أنواع التّفرّق في الدّين ما كان منشؤه الهوى و الغرض، و نتيجة التّعادي و التّباغض و أثره في نفوس الأجانب السّخرية من الدّين و التّنقص له و اتّخاذ أعمال أهله حجّة عليه،

¹ - ينظر محمد ناصر-المقالة الصحفية-مرجع سابق-ج1-ص201.

² - البصائر-س1-ع37-1936-ص2.

³ - محمد عبّاس-البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص87.

و ما أعظم جناية المسلم الذي يقيم من أعماله الفاسدة حجّة على دينه الصّحيح،
و ما أشنع جريمة المسلم الذي يعرّض -بسوء عمله- دينه الطّاهر التّقي للزراية
و الاحتقار.⁽¹⁾

فالإصلاح الاجتماعي لا يستقيم و لا تقوم له قائمة إلّا إذا كان يدور في فلك
الإصلاح الدّيني "و مردّ هذا أنّ الدّين الإسلامي هو المرجع الأوّل في هندسة حياة
الإنسان في كلّ جوانبها، و في تحديد مصيره، و هو بذلك يحدّد مصير هذا الإنسان
و يهيئه إلى تحمّل مسؤوليته أمام الله، و أمام نفسه و أمام العباد. و لذلك لم يفت
الإبراهيمي في بعده الاجتماعي أن يراقب بكلّ حذر أسباب الاتّصال بينه و بين
الجماهير و ما تتلقّاه هذه الجماهير من معطيات في التّكوين الاجتماعي."⁽²⁾

و المتبّع لإنتاج الإبراهيمي الفكري يجده مرآة عاكسة تعكس المشاكل الاجتماعية
التي كانت تعيشها الجزائر. غير أنّه لم يكن يتوقّف عند حدّ فضح تلك المشاكل
و تعريتها، بل كان يجدّ في إيجاد الحلول المناسبة لها، و هي مهمّة تقع على عاتقه
و أقرانه من العلماء و المصلحين. و كان يرى بثاقب نظرته أنّ الأمّة الجزائرية
كانت "تعاني و جاراتها المتّحدة في الدّين و الجنس، المقاربة لها في العادات
و المصطلحات عدّة مشاكل اجتماعية لا يسع المصلحين إغفالها، و لا السّكوت
عليها بعد ظهور آثارها، و تحقّق أضرارها و ستعالج البصائر طائفة من أمّهاها بيان

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي - آثار الإمام البشير الإبراهيمي - مصدر سابق - ص 11.

² - محمد عباس - البشير الإبراهيمي أدبيا - مرجع سابق - ص 88.

نتائجها، و بيان وجه الرأى في علاجها، سائلة من حملة الأقلام و حملة الألسنة و ذوي الرأى أن يظاهروها في هذا العلاج و من الأمة أن تقوم بواجبها من السمع و الطاعة و التنفيذ، فإن من بعض هذه المشاكل ما لو تبادى و امتد لأتى ببيان الأمة من القواعد و قضى عليها بالمشخ أولاً و التلاشي أخيراً.⁽¹⁾ و يوازن الإبراهيمي بين واقع الأمة و تعاليم الإسلام فيجد بونا شاسعا بين هذه الأخيرة و بين ما يعيشه المجتمع من عادات و تقاليد دخيلة و ما ذلك إلا نتيجة ابتعاده عن حدود الله. مثل ذلك ما يراه في الزواج الذي حاد عن مهمته الأصلية " و لو أننا وقفنا عند حدود الله و يسرنا ما عسرته العوائد من أمر الزواج لما وقعنا في هذه المشكلة، و لكننا عسرنا اليسير، و حكّنا العوائد في مسألة خطيرة كهذه، فأصبح الزواج الذي جعله الله سكنا و ألفة و رحمة سبيلا للقلق و البلاء و الشقاء..."⁽²⁾

و الإبراهيمي حين تناوله لقضية الزواج لا ينظر إليها من زاوية ضيقة تقف عند حدود بناء الأسرة فحسب، بل تتعدّها إلى أبعد من ذلك بكثير، فهو يرى في الزواج سبيلا للدّود عن الوطن و حافزا للاستماتة منافحة عن العرض و الشرف "أيها الشبان! إنكم لا تخدمون وطنكم و أمّكم بأشرف من أن تتزوجوا فيصبح لكم عرض تدافعون عنه و زوجات تحامون عنهنّ و أولاد يوسعون الآمال. هنالك تتدربون على المسؤوليات و تشعرون بها، و تعظم الحياة في أعينكم و بذلك تزداد

¹ - محمد البشير الإبراهيمي-عيون البصائر-مصدر سابق-ص323.

² - عيون البصائر-مصدر سابق-ص325.

القومية في نفوسكم. إنَّ الرّوْجة و الأولاد حبال تربط الوطني بوطنيته و تزيد في إيمانه...⁽¹⁾

و كما تحدّث الإبراهيمي عن الرّوْاج و أسباب إعراض الشباب عنه، عرض للطّلاق و للصدّاق و غيرهما من المواضيع ذات الصّلة الوثيقة بالحياة الرّوْجية. و ما ذلك إلّا لأنّه يؤمن أنّ الأسرة هي النّوّة الحيوية، و الأساس المتين الذي يبني به مجتمع سليم حال من الأسقام الاجتماعية. لذلك نجده يتعهّد الشّباب بالرّعاية و المتابعة، و يسدي له النّصح و التّوجيه و يحثّه على العلم لأجل تربية النّشء تربية سليمة تؤهّله لخوض غمار المعركة ضدّ المستعمر الذي يسوم أبناء الجزائر أشنع أنواع الظّلم في ظلّ غياب العدالة الاجتماعية "... فكيف لا تنسى العدل أمّة لبثت في ظلمات الظّلم أحقابا، و عقبته في ظلّ يجمومه أعقابا؟ أم كيف تذكره بعد أن محت آيته آية السيّف، فلم تنعم منه بإمامة الطّيف؟ و كيف يجد العدل مجالا بين حاكم لا يسأل عمّا يفعل و بين محكوم يسأل عمّا لم يفعل؟ و كيف يجد العدل سبيلا إلى نفوس زرع فيها الاستعمار-أولّ- بذرة احتقار المسلم الجزائري..."⁽²⁾

فانعدام العدل و افتقار الأمّة إليه يعود إلى المحتلّ الذي وجد في الجزائر مرتعاً له، ينعم في خيراته و يحرم أبناءه منها، بل حرّمهم من أدنى حقوقهم، حرّمهم من حرّيتهم و سلبهم منها و داس على كرامتهم حتّى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك.

¹ - المصدر السابق-ص327.

² - البصائر-ع119-ص1.

إنّ مقالات الإبراهيمي الاجتماعية عديدة و متعدّدة بحيث لا يمكننا الإلمام بها جميعها، و حسبنا أن نشير أنّها من الكثرة التي تجعلنا نعتبر صاحبها مصلحا اجتماعيًّا من الدّرجة الأولى، و لا أدلّ على ذلك من مجموع الأحاديث التي خصّ بها الشّباب و سجّلها بعنوان "الشّاب المسلم الجزائري كما تمثّله لي الخواطر."⁽¹⁾ و هي أحاديث و خواطر يتجلّى فيها الإبراهيمي أبا حكيما و مربّيا مجرّبا و وطنيًّا فاضلا خبيرا، و مسلما مؤمنا.⁽²⁾

فهو يتمنّى أن يرى شباب الجزائر مقداما على ما فيه صلاحه و صلاح وطنه (من عمل و علم)، ثمّ صلاح الأمّة الإسلاميّة (إشارة إلى الوحدة)، و أخيرا صلاح الإنسانية جمعاء. و هنا تتجلّى النظرة الشمولية لديه، فهو يرى في صلاح الفرد الواحد طريقا إلى إصلاح الأمم و هو ما يجسّد النزعة الإنسانية عنده.

و لن يحقّق الشّاب الجزائري تلك الآمال إلّا إذا اقتدى بخير الأنام -عليه الصّلاة و السّلام- و امتثل لأوامره و سار على خطاه " أمثّله محمّدي الشّمائل، غير صحّاب و لا عيّاب، و لا مغتاب و لا سبّاب، عفا عن محارم الخلق و محارم الخالق مقصور اللّسان إلّا عن دعوة الحقّ، أو صرخة في وجه الباطل متجاوزا عمّا يكره من إخوانه، لا تنطوي أحنأؤه على بغض و لا ضعينة..."⁽³⁾

¹ - عيون البصائر-مصدر سابق-ص578.

² - عبد الملك مرتاض-هفّة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-مرجع سابق-ص145.

³ - عيون البصائر-ص588-و البصائر-ع5-1947.

و يصرّ الإبراهيمي على مسألة التعايش و التّلاحم بين أبناء الأمّة الواحدة تحت غطاء واحد هو غطاء الدّين، و من ثمّ يلحّ على ضرورة تقديم الدّين عن الوطن "أتمّله مقدّمًا لدينه قبل وطنه، و لوطنه قبل شخصه، يرى الدّين جوهرًا و الوطن صدفا، و هو غوّاص عليهما يصطادهما معا، و لكنّه يعرف الفرق بين القيمتين فإن أخطأ في التّقدير خسر مرتين..."⁽¹⁾

إنّ تلك الخواطر التي وجهها الشّيخ للشّباب تحمل في طيّاتها معاني و دلالات تعدّ زبدة ما جاء في مقالاته الاجتماعية و هي تعكس رؤية صاحبها الاستشرافية، رؤية تشعّ بالأمل و التّفاؤل بعد أفضل، و مستقبل زاهر يبني بسواعد شباب سلاحه العلم، و مطيّة العمل للنّهوض بالوطن نهضة حقيقية قوامها الدّين و الوحدة.

2.I. الإبراهيمي و الإصلاح السياسي:

أتمت المقالة السياسة عند الإبراهيمي - و أقرّنه من المصلحين - بالجرأة و الشّجاعة في الطّرح فقد " كان للكّتاب الجزائريين خلال هذه الفترة و كتّاب المقالة بوجه خاص جرأة عجيبة في قول الحقّ، و تحرّؤ غريب على الاستعمار."⁽²⁾ يطالع الباحث تلك المقالات "فيندهش للحماسة الشّديدة التي تطغى عليها، و الشّجاعة النّادرة التي تنبعث من كلّ لفظ من ألفاظها. كأنّ هذه المقالات كتبت

¹ - المصدر السابق-ص594. و البصائر-ع11-1947.

² - عبد الملك مرتاض-فنون النثر الأدبي في الجزائر-مرجع سابق-ص128.

في أرض غير الجزائر، و في عهد غير عهد الاستعمار أو كأنّ حرّية الرّأي كانت مكفولة، أو كأنّ حرّية التعبير كانت محفوظة. مع أنّ عين الاستعمار كانت يقظى لا تنام و لا تغفل ."⁽¹⁾

على أنّ ثمة ملاحظة يجدر بنا الإشارة إليها، و هي ذلك الترابط بين موضوعات المقال الواحد، فهو يلمّ في آن واحد بالقضايا الاجتماعية و السّياسية و الدّينية و هو يجمع أيضا بين مسألة العروبة و الإسلام و اللّغة العربية.

و لعلّ أوّل القضايا السّياسية الّتي أثارها إبراهيمي هي 'الحرّية'، و كثيرا ما ربط بينها و بين الحياة، فلا تقوم إحدهما إلّا بالأخرى، يقول "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت و أسباب الموت... و الاستعمار سلّ يجارب أسباب المناعة في الجسم الصّحيح."⁽²⁾ فالاستعمار في نظره مرض عضال يؤدّي حتما إلى الموت، لذا وجب مجابهته و استئصاله من جذوره.

إنّنا نلاحظ تلك الجرأة الّتي تطبع مقال إبراهيمي، فهو يعمد إلى توعية الشّعب الجزائري و تبصيره بحقيقة الخطر الدّاهم الّذي يهدّد كيانه في أسلوب مباشر صريح دون تلميح. ذلك لأنّ مبدأه في الإصلاح يقوم على الصّراحة، و مجانبة التلميح و الرّمز.⁽³⁾ و قد بلغت الجرأة بإبراهيمي إلى حدّ اعتبار الاستعمار شيطان "يا

¹ - المرجع السابق-ص129.

² - عيون البصائر-ص21. و البصائر-س2-ع1-1947-ص1.

³ - ينظر محمّد عبّاس-البشير إبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص59.

هؤلاء إنّ الاستعمار شيطان! و إنّ الشّيطان لكم عدوّ فأتخذوه عدوّاً، و إنّ الاستعمار شرّاً، و محال أن يأتي الشرّ بالخير.⁽¹⁾ يقرّ الإبراهيمي حقيقة أزرية و هي أن الشيطان عدوّ لا بدّ من الاحتراز منه و الحرص على محاربتة، لأنّ الشرّ لا يأتي أبداً بالخير، و هذا دأب المحتلّ فهو عدوّ لا ينتظر منه غير الشرّ، و من يتوهم غير ذلك فقد جانبه الصّواب، فهيهات أن نجني من الشوك العنب.

و يلفت الإبراهيمي انتباه أبناء عمومته إلى الحالة الشّاذة التي يعيشونها بسبب خضوعهم للعدوّ و خنوعهم. فأنتى لأمة أن تعيش بدون أدوات الحياة "هل أتاكم نبأ أمة تعيش في زمنكم بغير أدوات الحياة؟ و هل أنتم على بصيرة من وضعيتها التّاشزة الغريبة الشّاذة في قواميس زمنكم؟ هل أتاكم نبأ عشرة ملايين من سلائل البشر الرّاقية تحكّمها فئة تعادل عشرها، ليس بينهما من الجوامع إلّا الأدمية و لا من الصّلات إلّا صلة القويّ بالضعيف، و لا من الضّعيف إلّا امتصاص الأقلّ لدم الأكثر، و سمنه بهزّاله و اعتزازه بإذلاله... إنّ الشّعب الأعزل محكوم عليه بالموت شاهداً و غائباً، و إنّ الشّعب الذي لا يشارك أبناؤه في الإدارات الحاكمة و لا رأي له في تشريع و لا تنفيذ لا ينتظر إلّا أمثال هذه الحالة، يحيا مع الحيّات فيجاورها و تجاوره و هو لا يدري متى تساوره و يعطيها من دمه فتعطيه من سمّها..."⁽²⁾

¹ - البصائر-سل2-ع4-1947-ص1.

² - البصائر-س2-ع121-1950-ص221.

بمثل هاته المقالات كان الإبراهيمي يهزّ ضمائر الشعب هزّاً لعلّها تستفيق من سباتها، و تجعل مصيرها بين يديها لا بين أيدي أعدائها ممّن يحكون لها المكائد لتندثر. و هي دعوة صريحة للثورة ضدّ تلك الأوضاع إن أرادت الأمة استرداد حرّيتها و كرامتها، لاسيما و قد تأكّد لها أنّ فرنسا ماضية في خطّها، و قد أثبتت في غير ما مرّة أنّها مخادعة و أنّ وعودها كاذبة. و ما أحداث الثامن ماي إلّا دليل على همجيتها و جبروتها. تلك الأحداث التي تعدّ وصمة عار على جبينها يصوّرنا لنا الإبراهيمي بريشة الرسّام الماهر "يوم مظلّم الجوانب بالظلم، مطرّز الحواشي بالدماء المظلومة مقشعرّ الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السّماء بأرواح الشّهداء، خلعت شمسها طبيعتها فلا حياة و لا نور، و خرج شهره عن طاعة الرّبيع فلا ثمر و لا نور، و غبنت حقيقته عند الأقلام فلا تصوير و لا تدوين."⁽¹⁾

إنّ هذه الصّور القائمة تبرز لنا حالة الشعب يومئذ، و ماعاناه من بطش و تقتيل و تنكيل جعل الأرض و السّماء تهتزّان لأحزانه. ثمّ إنّها تعكس من ناحية ثانية الحالة النفسيّة للكاتب، و هو يتفجّر غضبا و يستشيط حنقا من تلك الأهوال التي تجرّعها الشعب الجزائري، و لا ذنب له سوى أنّه شارك المحتلّ حربته على أمل أن يفي هذا الأخير بوعوده، لكنّه و على عادته "عاد للتقتيل على من كانوا بالأمس يمدّون حياته بحياتهم ليريهم مبلغ الصّدق في تلك الوعود، و يحدّثهم بلغة الدّم

¹ - عيون البصائر-ص369-و البصائر-ع35-1948-ص1.

و منطق الأشلاء أنه إنما أقام سوق الحرب ليشتري حياته بموتهم و ليرمم جداره
بهدم ديارهم...⁽¹⁾ انتهت الحرب العالمية⁽²⁾ و انتهت معها آمال الجزائريين حين
أضرم المحتلّ النار و أعلنها حربا ضروسا على من ساندوه بالأمس "و في لحظة
واحدة تسامع العالم بأنّ الحرب انتهت مساء أمس ببرلين، و ابتدأت صباح اليوم
بالجزائر، و فيما بين خطرة البرق بين الغرب و الشرق أعلنت الحرب من طرف
واحد، و انجلت في بضعة أيام عن ألوف من القتلى العزل الضّعفاء، و إحراق قرى
و تدمير مساكن و استباحة حرمت و نهب أموال، و ما تبع ذلك من تغريم
و سجن و اعتقال، ذلكم هو يوم 8 ماي.⁽³⁾

تحدّث الإبراهيمي عن الحرّية و عن الاستعمار، و تحدّث عن أحداث الثامن ماي،
كما عرض لعديد القضايا ذات الطابع السياسي منها قضية الانتخابات. فهاهو
يواجه فرنسا الاستعمارية مرّة ثانية حين يشير إلى لميس التي عادت لعترها. "و لميس
هذه في مورد المثل هي امرأة كانت لها عوائد شرّ تعتادها، و أخلاق سوء تفارقها
ثمّ تقارفها لغلبة الفساد عليها، و صيرورته أصلا في طباعها.⁽⁴⁾ و ما لميس هذه إلّا

¹ - المصدر السابق-ص369.

² - أحداث 8 ماي كانت في أعقاب الحرب العالمية الثانية حين خرج الجزائريون للتعبير عن
فرحتهم لانتصار الحلفاء على ألمانيا النازية ظلّنا منهم أن فرنسا ستمنحهم الاستقلال مثلما
وعدتهم لكنّ فرنسا قابلت تلك المظاهرات بقتل أبناء الجزائر حتّى بلغ عدد الضحايا 45 ألف
شهيدا.

³ - البصائر-ع35-1948-ص1.

⁴ - البصائر-ع64-1949-ص1.2-و عيون البصائر-ص379.

الإدارة التي تعودت أن تعبت بالديمقراطية، و أن تعيث في الأرض فسادا، و أن تحطم معنويات الجزائري بسنّ قوانين ظالمة تحرمه من أدنى حقوقه" و عادت لعترها ليسنا في كلّ ما جرى من انتخابات في السّنة الماضية، لمّا رأّت المسلمين بدأوا يقدّرون الانتخاب حقّ قدره، ويعرفون له قيمته، و بدأوا يتذوّقون معنى الديمقراطيّة التي أمات الاستعمار معناها الإسلامي في نفوسهم، فكدرت لهم شربها بتدخلها العلي، و بما تستخدمه من وسائل التّريغيب و التّرهيب إلى أن كشفت في الانتخابات الأخيرة عن سرّها و صرّحت عن شرّها و كان ما كان ممّا صدّق الخبر فيه العيان.⁽¹⁾

و يعرف إبراهيمي الديمقراطي فيقول "إنّ الديمقراطية عند الأمم التي تنتحلها وتزعمها لنفسها تتجلّى في عدّة مجالات أرفعها الانتخاب، فهو عندهم العنوان الواضح للحرية، والبرهان اللائح على إطلاق الإدارة و الميزان العادل لاختيار الشعب."⁽²⁾ و إذا كان الأمر كذلك عند الأمم الأخرى فماذا عنه في الجزائر؟ إنّها لا شكّ دليل التناقض و التباين بين أقوال المحتلّ و أفعاله "أمّا في الجزائر فالانتخابات منذ سنّت لعبة لاعب و سخرية ساخر، ورهينة استبداد، ولدت شوهاة ناقصة و ما زالت متراجعة ناكسة، وضعت من أوّل يوم على أسوء ما يعرف من التناقض، و أشنع ما يعلم من التحكّم و الميز و العنصرية، وهو تمثيل الأكثرية في المجالس

¹ - المصدر السابق-ص379.

² - عيون البصائر-مصدر سابق-ص379.

المنتخبة للأقلية من السكان، و الأقلية فيها للأكثرية منهم، قد كانت هذه الانتخابات شرًا مستطيرا على الأمة الجزائرية و أفتك سلاح رماها به الاستعمار، بعد أن نظر النّظر البعيد، و كانت ضربة قاضية على ما كانت تصبو إليه وتستعدّ من وحدة الكلمة و اجتماع الشّمل، فكلّما جهد المصلحون جهدهم في جمع كلمتها و كادوا يفلحون، جاءت الانتخابات فهدمت ما بنوا و تبرتته تتييرا.⁽¹⁾

هذا هو حال الديمقراطية و الانتخابات - أعلى مراتبها - في الجزائر فإن كانت تبني في دول غير الجزائر، لما تقوم عليه من حرّية رأي و اختيار عن قناعة فإنّها في الجزائر - و على التّقيض من ذلك - تهدم ما بينه المصلحون و تشتت شمل أبناء الوطن الواحد. فالحكومة الفرنسية لم تكن ديمقراطية إلاّ في مظهرها، أمّا في جوهرها فكانت مستبدّة تأخذ بالقوّة، بل إنّها أفسدت على النّاس أمور دينهم و دنياهم⁽²⁾ "... فإنّ الانتخاب أصبح وبالا على الأمة و وباء، و ذهب بالبقايا المدّخرة فيها من الأخلاق الصّالحة هباء، و أصبحت هذه الكراسي عاملا قويّا على إفساد الرّجولة و العقيدة و الدّين... و قد كُنّا نخشى آثارهم في تفريق الشّمل و تبيد المال، فأصبحنا نخشاها على الدّين و الفضيلة."⁽³⁾ أصبح الإبراهيمي و سائر المصلحين يّحشون على الدّين من الاضمحلال في بلد مسلم باتت تحكّمه دولة صليبية، لذا

¹ - المصدر السابق - ص 382.

² - عبد الملك مرتاض - فنون النثر الأدبي - مرجع سابق - ص 131.

³ - عيون البصائر - ص 382 - و البصائر - ع 64 - 1949 - ص 1. 2.

سارعوا إلى المطالبة بفصل الدين عن الدولة. و قد خصّ الإبراهيمي هذه القضية الخطيرة بعشرين مقالا⁽¹⁾ يطالب فيها بالحرية الدينية بحيث لا يتدخل الفرنسي المسيحي في شؤون الجزائري المسلم " نحن نريد - جادّين - فصل ديننا بجميع شعائره و علائقه عن حكومة الجزائر اللايكية المسيحية فصلا ناجزا حاسما، لا تلکؤ فيه و لا هوادة، و نريد بثّ حباله من حبالها في المعنويات و المادّيات، و نعمل لذلك متساندين في الحقّ، مستندين على الحقّ..."⁽²⁾

و من هذا المنطلق (فصل الدين عن الدولة) أفتى الإبراهيمي ببطلان الصّلاة خلف الأئمّة الذين يعينهم المحتلّ لأنّ "الحقيقة الجامعة في الإيلام أنّه لا يولّي الإمام إلاّ من كان صالحا- هو نفسه - للإمامة، مثل الخليفة أو نائبه..."⁽³⁾ هو إذن رفض لكلّ إمام نصّب العدو، و رفض لإمامته، و رفض لاتباعه، لأنّه غير شرعي لا تجوز الصلاة خلفه.⁽⁴⁾

خاض الإبراهيمي في مواضيع سياسية عديدة و متشعبة لا يمكننا حصرها في هذا البحث، مواضيع تعكس مبداه الرافض لكلّ أشكال الظلم و الاستبداد التي كان ينهجها المحتلّ و أذنابه. على أنّ المقالة السياسية تظلّ تدور في فلك القضايا التي

¹ - عبد الملك مرتاض- فنون النثر الأدبي-مرجع سابق-ص134.

² - عيون البصائر-مصدر سابق-ص104. و البصائر-س2-ع89-1949.

³ - البصائر-ع140-1951م-ص1

⁴ - عبد الملك مرتاض- فنون النثر الأدبي-مرجع سابق-ص135.

أثارت اهتمام الإبراهيمي وأسالت حبره كما هو شأن قضية الوحدة العربية والإسلامية.

3.I. اللغة - العروبة - و الإسلام:

أولى الإبراهيمي - وكتاب المقالة الإصلاحية عامّة - قضايا الوطن العربي والإسلامي اهتماما كبيرا، فتتبع أحداثها الدقيقة بصفة مستمرة وحرص على التقاط أخبارها رغم بعد الشقّة وانعدام وسائل الاتصال" و رغم محاولات الاستعمار الفرنسي المتكررة لعزل المسلمين الجزائريين عن إخوانهم بجرماتهم من الإمدادات الثقافية والإعلامية التي كانت دفقة الحياة لهم في هذه الغربة الموحشة، رغم ذلك فإنّ المستعمر لم يفلح قطّ في زعزعة عقيدتهم الراسخة بالانتماء إلى الوطن الإسلامي والعربي الكبير..."⁽¹⁾

فقد استطاع الإبراهيمي أن يمدّ أواصر الأخوة بكتابات و آرائه - بالرغم من الطّوق الحديدي الذي طوّقت به الجزائر- فاهتمّ لقضايا المغرب العربي⁽²⁾ و لأحداث العالم الإسلامي، و شاركهما أفراحهما و أفراحهما. و هو في هذا و ذاك يؤكّد دوما على الوحدة العربية والإسلامية و يدعو إليها، و يحذّر من غفلة المسلمين و تغافلهم عمّا يحاك ضدّهم من مكائد " طالما نعينا على المسلمين خصوصا و على

¹ - محمد ناصر-المقالة الصحفية-مرجع سابق-ص381.

² - للإبراهيمي مقالات عديدة حول المغرب العربي منها 'مؤتمر الزوايا بعدد مؤتمر الأئمة'، 'عيد العرش الحمّدي العلوي'، 'ليبيا موقعها منّا'، 'ليبيا ماذا يراد بها'، 'إبليس ينهى عن المنكر إبليس يأمر بالمعروف' وغيرها.

الشرقيين عموماً هذا التقاطع الذي شئت شملهم، و فرّق جامعتهم، و صيرهم لقمة سائغة للمستعمرين، و طالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل و التّراحم و التقارب الكامنة في دينهم، و أقمنا الأدلة، و ضربنا لهم الأمثال و سقنا المثالات، و جلونا العبر، و كانت نذر الشرّ تتوالى، فيتمارون بها و صيحات الضّحايا منهم تتعالى، فيصمّون عنها و الزّمن سائر و الفلك دائر، و هم في غفلة ساهون...⁽¹⁾

و الإبراهيمي ينعي على المسلمين تفریطهم في دينهم، و عدم تمسّكهم بحبله المتين، هو ما أدى بهم إلى ذاك التّفسّخ و التّشردم، حتّى أصبحوا يتناحرون على أمور الدّنيا و يتنازعون فيها " و دعونا إلى الجامعة الواسعة الّتي لا تذيق بنزِيل، و هي جامعة الإسلام، إلى الروحانية الخالصة الّتي لا تشاب بدخيل و هي روحانية الشّرق، و حذرناهم من هذه الأفاحيص الضيّقة و الوطنيّات المحدودة، الّتي هي منبع شقائهم و مبعث بلائهم و بيّنا لهم أنّها دسيّسة استعمارية، زيّنها لهم سماسرة الغرب و علماءؤه و أدلاؤه، و غايتهم منها للتّفريق، ثمّ التّمزيق، ثمّ القضم، ثمّ الهضم...⁽²⁾ و في المقال نفسه يعرض الإبراهيمي لما تعرّض له المغرب الأقصى من محن على وقع حادثة نفي الملك محمّد الخامس فيقول "... و حلّت المحنة بالمغرب الأقصى، و جاءت فرنسا بالخاطئة، فأهانت ملكا، و هدّدت عرشا، و آذت شعبا، و روّعت سربا، و انتهكت حرّمات، و اعتقلت أحرارا، و كتبت أصواتا،

¹ - البصائر-ع148-1951م.

² - البصائر-ع148-1951م -وعيون البصائر-ص471.

و أحطت أعلياء من مراتبهم، و نصبت أدنياء في غير مناصبهم، و استعانت على العقلاء بالسفهاء، و سلطت الأخ على أخيه، و الرعيّة الآمنة على ملكها الأمين. و أشعلت النار بنا لتطفئها بنا فلا يكون ضرامها في الإشعال و الإطفاء إلاّ أجسامنا. من كان يتوقّع أن يجلب الاستعمار على عرض من عروش الإسلام العريقة، لا بخيله و رجله، بل بخيل المسلمين الذين رفعوا دعائمهم و رجلهم؟ من كان يظنّ أو يتوقّع أن الاستعمار يبلغ منّا هذا المبلغ فيدوسنا بأرجلنا، و يريق دماءنا بأيدينا، و ينتصر علينا بنا، و يصير بعضنا لبعضنا 'بعايع' تخويف و وحوش إرهاب، و يبلغ في ترويضنا إلى حدّ أن نصبح أدلّة عليه، أعزّة على قادتنا و رجالنا؟

من كان لا يظنّ ذلك، و لا يتوقّعه، فهاهو ذا محقق غير مظنون، و واقع غير متوقّع و لئن وقع متفرّقاً في غير المغرب فقد وقع كلّه مجتمعاً في المغرب...⁽¹⁾ و يدعو إبراهيمي إلى استثمار تلك المحنة حتّى تصبح منحة تساهم في إيقاظ الضمائر النائمة، و زعزعة النفوس الخامدة "و نكون عقلاء واقعيين إذا قدرنا هذه الضجّة التي أثرناها ستنتهي بلا فائدة، و لا تنال من ظاهر الاستعمار منالاً لما نعرفه من أساليب في إسكات مثلها بالحيلة و الكيد، و لما نعرفه من أنفسنا من عيوب الانخداع و الاغترار و سرعة التراجع و عدم الاستمسك، و لكننا نكون عقلاء

¹ - عيون البصائر-ص473-و البصائر-ع148-1951.

واقعيين أيضا إذا قدرنا هذه الضجة قدرها، و أعظمتنا آثارها النفسية في الشعوب الإسلامية و الشرقية، و أقمناها دليلا على شمول اليقظة لها، و حياة الشعور فيها، و انتزعنا منها فألا، ما ينتزعه منها طيرة.⁽¹⁾ يعرض الإبراهيمي لموقف المحتل من تعاطف أبناء الأمة الواحدة حين يتحدث عن عروبة الشمال الإفريقي، و يفضح سياسته القائمة على التفرقة، ذلك أنه يخشى من تماسك و تعاطف الأرحام، و يرى فيها خطوة نحو الوحدة التي طالما أرعبته "و من آيات بغض الاستعمار لكلمة العروبة و نفوره منها أنه لا يريد أن يعترف بأثر من آثارها الطبيعية من تراحم و تعاطف، فهو في محنة المغرب الأقصى الأخيرة و ما أثارته من غضب العرب و سخطهم و إجماعهم على الاستنكار، لا يرد ذلك إلى مرده الطبيعي، و هو التعاضد الجنسي، و إنما يردّه إلى شيء آخر تنكره روح هذا العصر المنافق، و هو التعصب الديني. كل ذلك ليبعد عن خواطره -و لو بالتوهم- خيال العروبة مجتمعة الشمل، متصلة الأسباب موصولة الأرحام معلنة لعروبة الشمال الإفريقي ..."⁽²⁾

إنّ المحتل يرفض عروبة الشمال الإفريقي و يؤكّد انتماءه للعنصر البربري و هو يسخر أعلام بعض الأساتذة و الكتاب المتعصّبين لبث تلك الأفكار المسمومة و دسّها في أوساط الشعب الواحد.⁽³⁾ فانبرى الإبراهيمي يردّ عليهم و يدحض

¹ -المصدر السابق-ص474.

² - عيون البصائر-مصدر سابق-ص450-و البصائر-ع150-1951.

³ - مازن صلاح مطبقاني-جمعية العلماء ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية-مرجع سابق-ص132.

مزاعمهم في المقالة ذاتها مؤكّداً عروبة الشّمال الإفريقي "عروبة الشّمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدّماء و النبايع التي انفجرت منها الأخلاق و الخصائص، و النّواحي التي جاءت منها العادات و التّقاليد، و هي أثبت أساساً، و أقدم عهداً، و أصفى عنصراً من انكليزية الانكليز، و ألمانية الألمان... هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن، هي التي صيّرتنا و طنا واحداً لم تفرّقه إلاّ السّياسة سياسة الخلاف في عصوره الوسطى، و سياسة الاستعمار في عهده الأخير. و هذه العروبة هي مساكنه على كثرة المفرّقات، و هي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة، و هي رباطه الذي لا ينفصم ببقية أجزاء العروبة في الشّرق. و هي السّبب في كلّ ما يأخذ من تلك الأجزاء و ما يعطيها، فينصرها في الملمات و يتقاضاها النّصر في المهمّات. فالعلم العربي بهذه العروبة المكيّنة كالجسد الواحد إذا ألمّ بجزء من أجزائه حادث، أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنّصرة و الغوث، أو بالتوجّع و الامتعاض..."⁽¹⁾

و لارتباط الشّمال الإفريقي بالعرب، و لتمسّك الجزائريين بعروبتهم، نجد الإبراهيمي يثير قضايا عربيّة كثيرة شدّت انتباهه و أهمّته على مشاركة الدّول العربيّة قاطبة أفراحها و أتراحها. فاهو يتحدّث عن محنة مصر و يعتبرها محنة الجزائر فيقول "تعاني مصر العزيزة في هذه الأيام ما يعاينه الحرّ الأبيّ: أكره على الضّيم،

¹ - عيون البصائر - مصدر سابق - ص 478.

و أريد على ما لا يريد، و جرع السمّ مدوفا في الحنظل، و قطعّت أوصاله و هو يشعر و استيحت محارمه و هو يسمع و يبصر، حتّى إذا استيأس من الإنصاف و نفذ صبره خطا الخطوة الفاصلة، و أقدم على تحطيم القيد بنفسه، و على تمزيق الصّحيفة الّتي أملتها القوّة على الضعف فقبلها مكرها كمنختار. و كانت أهون الشرّين فأصبحت بحكم الزّمن أثقل الخطيين...»⁽¹⁾

و يؤكّد الإبراهيمي تأيد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لمصري في مسعاها التحرّري و نصرتها له "إنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المعبرة عن إحساس الشعب الجزائري كلّه، تعلن تأييدها للشّعب المصري و تضامنها معه في موقفه الحازم، و لا تصدّها عن أداء واجب الأخوّة هذه الحدود الوهمية الّتي خطّها الاستعمار بين أجزاء الوطن الواحد، و لا هذه السّدود الواهية الّتي أقامها بين أبناء الوطن الواحد لأنّ العواطف الجيّاشة كعثانين السّيل لا تردّها حدود و لا سدود...»⁽²⁾

فوحدة الدّين و العروبة تجمع بين الأمّة العربية، لا تفرّقها حدود و لا سدود و لن يثني من عزيمتها دسائس المحتلّ و لا مكائده، و من شدّد عن القاعدة فقد أحلّ بعروبتة بل و بإسلاميته.

¹ - المصدر السابق-ص556. و البصائر-ع174-1951.

² - عيون البصائر-مصدر سابق-ص558.

تحدّث إبراهيمي عن مصر، كما تحدّث عن السودان و ربط بينهما و بين الجزائر، بين واقعهما و واقع الجزائر. كما أثار قضايا الوطن العربي المتعدّدة و المختلفة. و يأتي في صدارة تلك القضايا، القضية الفلسطينية. هذه الأخيرة الّتي أخذت حصّة الأسد في مقالاته⁽¹⁾ ف "قلّما عاجل قلم عربي قضية فلسطين بالصّراحة و الواقعية الصارخة مثلما عاجلها قلم إبراهيمي في سلسلة جريدة البصائر الثانية، و الّتي تعدّ وثيقة أدبية تاريخية للقضية، لأنّه آمن بها واقعة من وقائع العصر الحديث و تحوّلًا سلبيا في تاريخ العرب و المسلمين الّذين فرّطوا في حماية حمى فلسطين..."⁽²⁾ و هكذا خصّ إبراهيمي فلسطين بمقالات عديدة بثّ فيها حزنه و آلامها، و وصف جراحه الّتي لن تندمل مادام جرح فلسطين داميا "يا فلسطين إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، و في جفن كلّ مسلم جزائري من محتك عبارات هامية، و على لسان كلّ مسلم جزائري في حقك كلمة متردّدة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون من وطني العربي الصّغير، و في عنق كلّ مسلم جزائري لك -يا فلسطين- حقّ واجب الأداء و ذمام متأكّد الرّعاية فإنّ فرّط في جنبك، أو أضع بعض حقك، فما الذّنب ذنبه، و إنّما هو ذنب الاستعمار الّذي يحول بين المرء و أخيه، و المرء و داره، و المسلم

¹ - كتب إبراهيمي سلسلة من المقالات حول القضية الفلسطينية منها: "وقف قرار تقسيمها"، "العرب واليهود في الميزان عند الأقوياء"، "ماذا نريد لها و ماذا يريدون؟"، "الانجليز حلقة الشرّ المفرغة"، "واجبات فلسطين على العرب" و غيرها.

² - محمّد عبّاس - البشير إبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص107.

وقبلته...⁽¹⁾ و الجزائريون لم يفرطوا في حمى فلسطين عن طيب خاطر و إنما وجدوا أنفسهم مكبلين مغلوبين على أمرهم في ظلّ الاحتلال "أيها الظّانون أنّ الجزائر بعراقتهما في الإسلام و العروبة تنسى فلسطين أو تضعها في غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها، لا و الله، و يأبى لها ذلك شرف الإسلام و مجد العروبة و وشائج القربى ولكن الاستعمار الذي عقد العقدة لمصلحته و أبى حلّها لمصلحته، و قايض بفلسطين، هو الذي يباعد بين أجزاء الإسلام لئلاّ تلتئم، و يقطع أوصال العروبة كيلا تلتحم و هيهات هيهات لما يروم."⁽²⁾ إنّ حبّ إبراهيمي لفلسطين و تعلّقه بها نابع من شعوره الإسلامي. فهو يرى فيها قبلة المسلمين الأولى، و أرض النبوة المباركة «يا فلسطين إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء و التراب و المآرب التي يقضيها الشّبّاب، فإنّ هوى المسلم لك أنّ فيك أولى القبلتين و أنّ فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله..."⁽³⁾ و لأجل المسجد الأقصى و لأجل ما تحمله تلك الأرض الطيبة المباركة من معاني النصر، يطالب إبراهيمي بمبّة تخلّصها من أيدي الصّهانية و تعيد لها مجدها التليد "أيها العرب، أيها المسلمون إنّ فلسطين وديعة محمّد عندنا، و أمانة عمر في ذمّتنا، و عهد

¹ - عيون البصائر-ص491-و البصائر-ع5-1947.

² - عيون البصائر-ص494.

³ - المصدر نفسه-ص491.

الإسلام في أعناقنا فلئن أخذها اليهود منّا و نحن عصابة إنّنا إذا الخاسرون." (1)
 فلسطين إذن أمانة في عنق الأمة ولا بدّ أن تمبّ لنصرتها بجميع طوائفها و طبقاتها
 و أن تتساند و تعمل لتحقيق هذه الغاية. (2)

يمثل هاته المقالات كان الإبراهيمي - و معه كتاب المقالة الإصلاحية- يحرك
 عواطف الجزائريين الدّينية علّهم يهبّون للجهاد، فيغفر لهم ذنبهم و تمحى وصمة
 العار التي ارتسمت في جبينهم. (3) و الإبراهيمي حين يثير القضية الفلسطينية
 و غيرها من القضايا العربيّة، فإنّه يسّيجها بسياج ديني. فارتباط الجزائر بالأمة
 العربيّة و تعلق الأولى بالأخيرة إنّما كان لدواعي دينية، ذلك لأنّ الإسلام يربط بين
 الأمة في ماضيها و حاضرها و مستقبلها. و هي لا تعدو أن تكون مجموعة دول
 يجمعها الجنس و الدّين و اللّغة. و لأنّ اللّغة العربيّة قاسم مشترك بين هاته الدّول،
 و لأنّها لغة القرآن الكريم، أو لاها البشير الإبراهيمي اهتماما كبيرا، فهو يرى فيها
 أحد مقوّمات الشّخصية الجزائرية، لذلك ما انفكّ يدافع عنها و يثبت العلاقة
 الوطيدة بينها و بين الشّعب الجزائري "اللّغة العربيّة في القطر الجزائري ليست غريبة
 و لا دخيلة، بل هي في دارها و بين حماها، و هي ممتدّة الجذور مع الماضي، مشتدّة
 الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفتان في المستقبل، ممتدّة مع الماضي لأنّها دخلت هذا

¹ - المصدر السابق-ص502. و البصائر-ع22-1948.

² - محمّد ناصر-المقالة الصحفية-ص410.

³ - محمّد عبّاس-البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص111.

الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم و تقيم بإقامتهم، فلمّا أقام الإسلام بهذا الشّمال الإفريقي إقامة الأبد و ضرب بجرانه فيه أقامت معه العريية لا تريم و لا تبرح، مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح، و من ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس و تتساع في الألسنة و اللّهوات، و تنساب بين الشّفاه و الأفواه، يزيدا طيبا و عذوبة أنّ القرآن بها يتلى، و أنّ الصّلوات بها تبدأ و تختم...⁽¹⁾

فالإبراهيمي يردّ في مقاله على المستعمر و يدحض ادّعاءاته و افتراءاته القائلة بأجنبية اللّغة العربية عن الجزائر و "يقيم لها تثبيتها في التّاريخ و عراقها في القدم و يبيّن قوّة ترابطها الأبدي مع الإسلام الذي يمدها بجيويتيه و يغذيها بروحانيته..."⁽²⁾ و إدراكا منه بأهمّية اللّغة العربية و دورها في توحيد صفوف أبناء الأمة الواحدة و جّه المحتلّ ضرباته لها عن طريق تأجيج نار الفتنة و إثارة صراع عنصري بين العرب و البربر⁽³⁾ حين "نصح" البربر أن يستردّوا لغتهم الّتي قهرتها العربية في عقر دارها بحسب زعمه. يردّ الإبراهيمي على هذا الزّعم الواهي فيقول "و طار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرّومان، و زاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبت و بزّت، و سلّطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كلّ ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، و اقتناع لا يد فيه للقهر، و ديمقراطية لا

¹ - عيون البصائر-ص221. و البصائر-ع41-1948.

² - محمد عباس-البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص135.

³ - أنور الجندي-الفكر العربي المعاصر في معركة التّغريب و التّبعية التّقافية-مصر-مطبعة الرسالة-ص226.

شبح فيها للاستعمار، وكذب و فجر كلّ من يسمّي الفتح الإسلامي استعماراً،
و إنّما هو راحة من الهمّ النَّاصب، و رحمة من العذاب الواصب، و إنصاف من
الجور الرّوماني البغيض. من قال إنّ البربر دخلوا في الإسلام طوعاً فقد لزمه القول
بأنّهم قبلوا العربية عفواً، لأنّهما شيئان متلازمان حقيقة و واقعاً، لا يمكن الفصل
بينهما، و محاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين. و من شهد أنّ
البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات، فقد شهد للعربيّة بحسن الجوار،
و شهد للإسلام بالعدل و الإحسان...⁽¹⁾

إنّ الحقيقة الدّامغة التي لا تقبل جدالاً و لا نقاشاً هي أنّ البربرية لا تزال قائمة
بالجزائر و هو ما يدلّ على سماحة الدّين الإسلامي و عدالته و تعايشه مع
الحضارات الأخرى، ثمّ إنّ الحقيقة الثّانية التي لا ينكرها إلّا جاحد هي أنّ اللّغة
العربية تمثّل عامل التّكامل الاجتماعي، ذلك لأنّها وحدت بين الأفكار، و قرّبت
بين العقول و القلوب لارتباطها بالدّين "...فاللّغة العربية منذ دخلت في ركاب
الإسلام على الأمم التي أظّلها ظلّه كانت سبباً في تقارب تفكيرهم و تشابه
عقليّاتهم و تمازج أذواقهم و توحيد مشاربهم. و إنّ هذا لمن المناهج السّديدة في

¹ - عيون البصائر-ص221-و البصائر-ع41-ص1.

توحيد الأمم المختلفة الأجناس و لولا العربيّة لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدّين باختلاف العقليّات الجنسية.⁽¹⁾

دافع الإبراهيمي عن اللّغة كما دافع عن الإسلام و العروبة، و حارب مظاهر التّخلف من جهل و فقر و آفات اجتماعية... و دعا للقضاء عليها لأنّ في ذلك خطوة نحو الانعتاق من ربق الاستعمار. كلّ ذلك في قالب أدبي راقٍ ينمّ عن ملكة لغوية كبيرة و رصيد أدبي ضخم أهلاه أن يكون "أمير البيان" و رئيس مدرسة لغوية و أدبية عظيمة تلکم هي البصائر التي تناولت قضايا الأمم المختلفة بأسلوب فنّي اجتمعت فيه كلّ الأشكال الأدبية، الثّرية منها و الشّعريّة و لا أدلّ على ذلك ممّا جاء في طيّاتها من أشعار الشّاعر المصلح محمّد العيد آل خليفة.

II. الشّعر الإصلاحي

الحديث عن أدب الصّحافة الإصلاحيّة يكون دون شكّ مبتورا، أو يشوبه بعض النّقص إن نحن أغفلنا جانبا بالغ الأهميّة من شأنه أن يتمّم صورة أدب الصّحافة الإصلاحيّة و يكملها، ذلك هو الشّعر الذي وجد في جريدة البصائر منبرا يثّ عبّره أفكاره الإصلاحيّة. فقد دأبت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين على تخصيص صفحة واحدة أو أكثر في جرائدها للشّعر، فجمعت بذلك بين كفتين خطيرتين كان لهما دور كبير في بعث النّهضة الأدبية بالجزائر.

¹ - الإبراهيمي - آثار الإبراهيمي - مصدر سابق - ج1 - ص263.

و إذا كان الشّعر الذي عرفته الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى لا يكاد يتجاوز الأغراض التقليديّة فإنّه اتّجه عقبها إلى موضوعات ذات صلة بالواقع المعيش حين أصبح يدعو إلى اليقظة الوطنية و نبذ الجهل و التسلّح بالعلم، و كذا محاربة الطرقيّة "فكانت القصيدة الشّعريّة بمثابة الخطبة الحسنة أو الدّرس النّافع، فكانت تنصبّ في الغالب على موضوعات إصلاحية." (1) و المتتبع للقصائد الشّعريّة عبر جريدة البصائر سيجد أنّ مدارها هو المجتمع الجزائري بمشكلاته السّياسية و الاجتماعيّة. فقد اكتست المؤسّسات الإصلاحية بعدا قومياً و سياسياً تجلّى في القصائد التي رادت التّهضة و واكبتها (2).

عاش الشّعراء الحركة الإصلاحية و عايشوها، بل إنّ جلّهم كانوا دعاة إصلاح ديني و اجتماعي عمدوا إلى مجابهة ما شاع في الجزائر من ضلالة و انحراف ديني "فأتّجه الشّعر إلى مهاجمة الانحراف الدّيني و المطالبة الملحّة بالإصلاح و اتّجه إلى خلق الجوّ الثّقافي و الدّيني الذي يحتضن الفكرة المصلحة." (3)

تحسّس الشّعراء ملامح الانحراف، و مواطن الضّعف في المجتمع الجزائري بيتا بيتا، لأجل نشر الوعي بين أبناء الوطن، و القضاء على مظاهر الخنوع و بعث الهمم و حثّها على مكافحة المحتلّ. و لعلّ أبرز الشّعراء الذين وجدوا في أعمدة البصائر

1 - عبد الملك مرتاض- فنون النثر الأدبي في الجزائر-مرجع سابق-ص66.

2 - صالح خرفي- الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص139.

3 - المرجع نفسه-ص33.

منيرا لبث أفكارهم وأشعارهم الإصلاحية محمد السعيد الزاهري، و الهادي السنوسي، و الجنيدي أحمد مكّي، و الطيّب العقبي، و حمزة بوكوشة، و عثمان بن الحاج، و جلّول البدوي، و الربيع بوشامة، و محمد اللقاني و غيرهم.

و لأنّ الإمام بمختلف الأشعار التي وردت في البصائر أمر بعيد المنال أوّلاً، و هو أمر بعيد عن هدف الرسالة ثانياً، ارتأينا أن نكتفي بنموذج واحد مثل الاتجاه الإصلاحية خير تمثيل، ذلك هو الشاعر محمد العيد آل خليفة.

شاعر أوقف حياته و شعره على الإصلاح، و اتخذ من البصائر سجلاً لأفكاره و آرائه الإصلاحية.

1.II. محمد العيد و الشعر السياسي:

إنّ المتصفح لجريدة البصائر يجد كمّاً هائلاً من أشعار العيد تختلف حسب اختلاف الظروف و الأحداث. و لئن عرف الشاعر بطبعه الهادئ الذي كان يتوافق و دعوة الجمعية القائمة على الاستعداد الثقافي و الاجتماعي قبل المناداة بالثورة، فإنّ ذلك لم يكن يعني بأيّ حال من الأحوال الاستسلام للمهانة و الاحتقار⁽¹⁾:

سَالُوا كُلَّ مَنْ طَغَى فِي الْخُصُومَاتِ أَوْ فَجَرَ
نَحْنُ الْبِرَاءُ مِنَ الْجُحُودِ السَّالِمُونَ مِنَ الْبَطَرِ

¹ - الوتاس شعبياني - تطوّر الشعر الجزائري منذ 1945 حتى سنة 1980 - الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - ص 48.

المؤثرون للسلم إلا أن نُهانَ أو نُحتقِرَ⁽¹⁾

و قد أشار الشاعر في غير ما موضع إلى "الضيف الثقيل" الذي طالت إقامته و عاث في الأرض فسادا بتبنيه للكثير من الإجراءات التعسفية التي لا تخدم سوى مصالحه و لعلّ أبرز وجوه الجور و التعنت تتمثل في إغلاق المساجد لتعطيل مسار الحركة الإصلاحية. و كان قرار إيقاف الشيخ الطيب العقبي⁽²⁾ القطرة التي أفاضت الكأس، فقد أثار موجة من الغضب مهّدت الطريق للثورة. و قد تحدّث الشاعر عن القرار و عن نتائجه العكسية، و عن الصدى الكبير الذي أحدثه في النفوس ليتحوّل الحدث إلى وثبة صمود و إقدام و تطلّع أكبر إلى خطوة حاسمة تبشّر بغد أفضل:

أَيُّهَا الحَامُونَ بِالْعِلْمِ أَرْضًا حُرَّةً سَادَ عَلَيْهَا الدَّخِيلُ
هَذِهِ آيَاتُنَا شَاهِدَاتٌ سَوْفَ يَتْلُوهُنَّ جِيلٌ فَجِيلُ
نَحْنُ لِلصَّدرِ وَ إِنِ خَلَّفُونَا فَلَنَا فِي الأَوَّلِينَ رَعِيلُ
لَا نَخَفُ فِي جَانِبِ المَجْدِ مَوْتًا فَهُوَ مَوْتُ بِالحَيَاةِ كَفِيلُ⁽³⁾

فالشاعر يظهر حماسا كبيرا إزاء القضية، و هو يحثّ الجزائريين على المضيّ قدما نحو التحرّر، و يرى في المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1936م خطوة نحو هذا الهدف.

¹ - البصائر-ع3-1936-و الديوان-ص134.

² - اتهم الشيخ العقبي بالتدبير لقتل المفتي ابن دالي محمود كحول، و لم تكن التهمة إلا خدعة نسج خيوطها المحتلّ الغاصب لأجل تعطيل أشغال المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بالجزائر العاصمة سنة 1936 و جمع مختلف أطراف المجتمع.

³ - البصائر-ع28-1936-و الديوان-ص131.

لذا لا غرو إن وجدناه يخصّ المؤتمر بمجموعة قصائد إيمانا منه أنّ مطالبه لا تعدو أن تكون صدى لمطالب الحركة الإصلاحية و مبادئها.⁽¹⁾

يودّع الشاعر الوفد المتّجه إلى فرنسا- لأجل المؤتمر- و يحثّه على التمسّك بحقّه و الدفاع عنه بكلّ إخلاص و قوّة، و يحمله مهمّة نقل أحاسيس الجزائريين و ضجرهم حيال سياسة فرنسا القائمة على الظلم و الجور، ليختتم قصيدته بتهنئة الشعب الجزائري الذي التفّ حول هيئة واحدة تمثله و تنافح عن مصالحه:

صَادِفٌ رِضَى وَ الْقِي رِفْدًا	يَا وَفْدُ بُورِكْتِ وَفْدًا
غَدًا بِبَارِيَسَ تَلْقَى	عَطْفًا وَ تَكْسِبُ حَمْدًا
فَاكْشِفْ لَهَا السِّرَّ وَ اصْدَعْ	بِالْحَقِّ لَا تَأُلْ جُهْدًا
وَ ابْسِطْ مَطَالِبَ شَعْبِ	نَادَى بِهَا وَ اسْتَعَدًّا
يَا وَفْدُ ذَكْرٍ فَرَنْسَا	عَهْدًا تَقَادِمَ عَهْدًا
قُلْ مَسْنَا الضَّرْقُ قَبْلًا	وَ خَانَنَا الصَّبْرُ بُعْدًا
مَتَى تَفِينَ بَوَعْدِ	يَا أَعَذَبَ النَّاسِ وَعْدًا
لَا بُدَّ أَنْ تَمْنَحِينَا	مَا لَا نَرَى مِنْهُ بُدًّا ⁽²⁾

و يطلب الشاعر من فرنسا أن ترفع الحجر عن الشعب الجزائري لأنّه ليس قاصرا:

فَخَفِّفِي الْحَجْرَ عَنَّا إِنَّا نُضَاهِيكَ رُشْدًا

¹ - أبو القاسم سعد الله- شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة- مرجع سابق-ص151.

² - البصائر- ع29-1936- و الديوان-ص299.

إِنَّا نُقَاضِيكَ دِينًا قَدْ آنَ أَنْ يُسْتُرَدًّا
حَقًّا لَنَا مِنْكَ يُقْضَى لَا نِعْمَةً مِنْكَ تُسَدَّى⁽¹⁾

إنّ مؤتمر 1936م بقدر ما كان ذروة في التّفاؤل، بقدر ما أصبح قمة اليأس، فلقد كان يمثّل للجزائريين نقطة تحوّل هامة تمكّنهم من تحقيق مطالبهم التي طالما اشترّبت لها أعناقهم، لكنّ المحتلّ و على عاداته يخلف الوعود.

أدرك محمّد العيد- و روّاد الحركة الإصلاحية - خطورة تحوّل الوجود الفرنسي من احتلال عسكري متسلّط إلى استعمار مقيم يهدّد الكيان الجزائري، فتحولوا من متفجّعين و محسّسين على الجهاد إلى أصحاب دعوة للوعي السياسي و القومي.⁽²⁾

و لذا فإنّ تقييم المؤتمر الإسلامي لا يقف عند حدود نتائجه المباشرة بل يتخطّها إلى ما خلفه في النفوس، ف "الذي يريد أن يقيّم المؤتمر الإسلامي و أبعاده في التّعبئة السياسية لا يحتكم إلى مظهره المتداعي، و لا إلى مطالبه المتسامحة، و لا إلى وفوده و لجانه اللاهثة ذهابا و إيابا على عرض البحر الأبيض و إنّما يحتكم إلى الأبعاد المعنوية التي انطلقت منه و المشاعر التي انتعشت فيه و الآمال التي تصاعدت في

1 - الدّيونان-ص300.

2 - نور سلمان- الأدب الجزائري في رحاب الرّفص و التحرير-بيروت-دار العلم للملايين- ط1-1981-ص316.

انعقاده الأول ثم تهاوت في ذكرياته السنوية المتلاحقة.⁽¹⁾ و قد بلغت درجة الوعي عند محمد العيد إلى حد جعلته يجاهر بضرورة خوض المعارك:

هَلُمَّ نِعَارِكَ فَالْحَيَاةَ مَعَارِكَ هَلُمَّ نِقَاحِمُ فَالْحَيَاةَ مَقَاحِمِ
هَلُمَّ نَشْرُفِي الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَهُمْ دَوِيًّا لَهُ مِثْلُ الرُّعُودِ دَمَادِمِ
فَخُذْ مِنْ دَمِي يَا ابْنَ الْجَزَائِرِ إِنِّي أَخُ لَكَ فِي كُلِّ الْخُطُوطِ مُقَاسِمِ⁽²⁾

و كان محمد العيد دائم الاهتمام بقضية أمته، يعبر عنها بالتلميح حيناً، و بالتصريح حيناً آخر، إلى أن سجّل التاريخ أحداث الثامن ماي 1945م التي أكّدت للعالم بأسره أكاذيب المحتلّ و نواياه المبيتة. فانبرى الشاعر يستحثّ الهمم و العزائم و يحضّ على الثورة:

حَيَاتِكَ حَرْبٌ لِلضَّعِيفِ فَكُنْ بِهَا قَوِيًّا أَبِيًّا أَنْ تُذَلَّ وَ تَخْضَعَا⁽³⁾

يمثل هذه اللهجة أصبح الشاعر يخاطب الشعب و المسؤولين، لهجة فيها الكثير من الصراحة و العنف. إنّ مأساة الثامن ماي خلّفت جروحاً لا تندمل و أشعلت في قلوب الجزائريين ناراً لم تنطفئ إلا بعد أن انتقلت جذوتها إلى أرض المعركة فأشعلتها حرباً ضروساً على ذلك الظالم المستبدّ.

¹ - صالح خرفي-الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص201.

² - البصائر-ع4-1947م-و الديوان-ص188.

³ -الديوان-ص325.

يستعرض محمد العيد أحداث اليوم المشؤوم بنبرة حزينة لكنها تحمل الكثير من الإصرار على مواصلة الدرب مهما اشتد تنكيل المحتل بالجزائريين:

أَأَكْتُمُ وَجْدِي أَوْ أَهْدِي إِحْسَاسِي وَ ثَامِنُ مَاي جُرْحُهُ مَا لَهُ آسِي
فَطَائِعُ مَاي كَذَّبَتْ كُلَّ مَزْعَمٍ لَهُمْ وَ رَمَتْ مَا رَوَّجُوهُ بِإِفْلَاسٍ
فَيَا لَكَ مِنْ خَطْبٍ تَعَدَّرَ وَصْفُهُ فَلَمْ تَجْرُ أَقْلَامٌ بِهِ فَوْقَ أَطْرَاسٍ
وَ يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ المُرَوَّعُ لَا تَضِيقْ بَدُنِيَاكَ ذَرَعًا وَ اطْرَحْ خُلُقَ الْيَاسِ⁽¹⁾

ظلّ الشاعر يحرّض الشعب ضدّ العدوّ و يحثّه أن يهبّ إلى الجهاد و هو يتمنى أن تشرق شمس يوم يرفرف فيه علم الجزائر عاليًا.⁽²⁾

و من القضايا التي احتلت الصدارة في تلك الفترة، و عرض لها الشاعر بإسهاب الدعوة إلى الوحدة و التآلف و التآزر بين أبناء الأمة الواحدة:

هَذِهِ الأَرْضُ سَوْفَ تُنْبِتُ عِزًّا إِنْ تَصَافَتْ فِي ظِلِّهَا الأَحْزَابُ
كُنَّا إِخْوَةً مِنَ الدِّينِ وَ الجِنِّ سِ عَلِيَّهَا وَ كُنَّا أَحْبَابُ

فمحمد العيد يعدّ من الأوائل الذين دعوا إلى الوحدة الشعبية كونها تمثل أقوى الدعائم لتحقيق الهدف المنشود، و لن تتم تلك الوحدة إلا إذا سادت معاني التسامح و العفو:

سَامِحٌ بِلَادِكَ وَ اعْفُ عَنْ أَحْزَابِهَا وَ اقْبَلْ طَوَائِفَهَا عَلَى عِلَاتِهَا

¹ - الديوان-ص325.

² - أبو القاسم سعد الله-دراسات في الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص145.

مَنْ كَانَ مَشْغُوفًا بِحُبِّ بِلَادِهِ لَمْ يَكْشِفِ الْأَسْتَارَ عَنْ عَوْرَاتِهَا

فَادْعُ الْجَمِيعَ لَوْحْدَةٍ شَعْبِيَّةٍ نَفِي الْمَصَائِبِ عَنْكَ فِي إِثْبَاتِهَا⁽¹⁾

إنّ فكرة الإصلاح الدّيني تسير جنباً إلى جنب و فكرة الجهاد في شعر محمّد العيد. فقد امتزج الاثنان و شكّلا موضوعاً متكاملًا، فالشاعر عاش معاناة شعبه و عايشها و هو يؤمن أنّ تقويم الأخلاق و ترويضها - و إن كان خطوة في طريق الانعتاق - لن يتمّ ما لم يتبع بثورة مسلّحة، لذا نجده يدعو بلسان صريح إلى خوض المعارك ضدّ العدو:

بِلَادِي لَا تَرْكُتِ إِلَى بُغَاةٍ تُشِينُكَ بِالْفَسَادِ وَلَا بَعَايَا

أَعْدِي لِلْمَعَالِي السَّيْرِ وَ امْضِي وَلَا تَهْنِي بِجُهِدِكَ أَنْ تَعَايَا

فَنَحْنُ يَدَاكَ فِي كَسْبِ لِلْمَعَالِي وَ نَحْنُ فِدَاكَ مِنْ كُلِّ الْبَلَايَا⁽²⁾

و الشّاعر و هو يدعو للإصلاح و الجهاد تحدوه أمان و تطلّعات إلى غد جديد تشرق فيه شمس الحرّية:

نَبْتَعِي الْعَيْشَ فِي الْجَزَائِرِ حُرًّا مُطْلَقًا لَا يَحْفُهُ إِرْهَابُ

أَرْشِدِينَا أَيَّتُهَا الْحَمَّ رَأءِ إِنَّا قَوْمٌ إِلَيْكَ رِكَابُ

هَلْ إِلَى وَصَلٍ بَيْنَنَا مِنْ سَبِيلٍ غَبَّتِ عَنَّا وَ طَالَ مِنْكَ الْغِيَابُ⁽³⁾

¹ - البصائر - ع 249-1953- و الدّيون - ص 212.

² - الدّيون - ص 218.

³ - البصائر - ع 11-1947- الدّيون - ص 260.

2.II. محمد العيد و الشعر الاجتماعي:

اهتمّ محمد العيد بالقضايا الاجتماعية اهتمامه بالقضايا السياسية، و أولاهها عناية كبيرة، فعمد لتقصّي أمراض مجتمعه و بحث عن علّة تلك الأسقام فوجد تنبع من منبع واحد هو الجهل. فالأمّية و الابتعاد عن القرآن و السنّة و هديهما هما سببا يتخبّط فيه المجتمع من انحلال و اضطراب. و المتتبّع لشعر العيد يجد مداره المجتمع الجزائري بمشكلاته و يلحظ "بين محمد العيد و البؤساء من أبناء شعبه رحم من التجاوب العميق و مسحة من الكآبة القائمة لا تنفكّ تحوم على كلّ قصيدة و تلوح من فوق كلّ منبر و تنتشر غلالاتها في كلّ محفل قومي أو مهرجان خيري، تجاوب أشبه ما يكون بالسلك الرقيق المكهرب له في قلب الشّاعر تموجات نابضة، و هزّات تملك عليه جوارحه و تأسر شبابة يراعه، فلا يخفّف القلب إلاّ بالمعاني الإنسانية النبيلة و لا تتحرّك اليد إلاّ بالإشارة الموسمية و لا يتنزّى اليراع إلاّ باللفظة المستمدّة للجراح."⁽¹⁾

ظلّ الشاعر وفيًا لشعبه يعبر عنه أصدق تعبير و يتفاعل مع قضاياها و يتغلغل في شؤون حياته فيقف عند بعض المظاهر التي تنمّ عن انعدام الوعي الاجتماعي، يقف عندها لينتقدها و ليأخذ بيد قومه إلى الطريق السويّ و المنهج السليم للتخلّص

¹ - صالح خرفي-صفحات من الجزائر.دراسات و مقالات من 1962-1972-الجزائر- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-ص259.

منها. منهج قائم أولاً و أخيراً على القرآن و السنّة، لأنّ الإصلاح الاجتماعي عند

محمد العيد و أقرانه الإصلاحيين "مرتبط ارتباطاً وثيقاً بخيط الفكرة الدّينية."⁽¹⁾

أحصى محمد العيد أدواء الأمة و عمل على تعريتها لأجل القضاء عليها. و قد اتّخذ

من البصائر⁽²⁾ مصحّحة يصف عبرها العلاج المناسب لتلك الأمراض. عالج الآفات

الاجتماعية بأنواعها، وسخر طاقته الفكرية و الإبداعية لتصويرها و إبراز مخاطرها

على حاضر الأمة و مستقبلها، و قد أبدى حسرة كبيرة على ما آلت إليه الأخلاق

في مجتمعه:

أَسْفِي عَلَى الْأَخْلَاقِ صَوَّحَ زَهْرُهَا فِينَا وَ غَوَّرَ مَا لَهَا مِنْ مَنَبَعٍ⁽³⁾

لقد أصبح الناس يسعون إلى المفاصد بل و يتسابقون إليها حتّى أنّهم أحيوا عهد

الجاهلية و عادوا ليعيشوا ما عاشه الجاهليون من مظاهر الانحراف و الفساد من بغي

و زور و خصام و قمار و خمر... و يركّز الشاعر حين عرضه لتلك المظاهر

الاجتماعية على المعاني التي تثير النخوة و الشرف العربيين:

قِفْ مَعِيَ الْيَوْمَ فِي الْجَزَائِرِ وَ اسْبِرْ غَوَّرَ أَحْوَالَهَا بَعَيْنٍ وَ أذُنْ

تَجِدُ الطِّفْلَ فِي الْأَرْقَاةِ يَلْهُو وَ الْفَتَى يَشْرَبُ الْحَمْرَ وَ يَزْنِي

¹ - محمد عباس - البشير الإبراهيمي أدبياً-مرجع سابق-ص87.

² - كان الشاعر ينشر قصائده في الشهاب أيضاً وبعض الصّحف الإصلاحية كالمنار و النّجاح و غيرهما، و إن كانت الشّهاب قد ظفرت بأكبر عدد من القصائد الاجتماعية.

³ - الدّيان-ص147.

تَجِدُ الطِّفْلَةَ الْيَتِيمَةَ تَشْقَى تَحْتَ خِدْرِ تَنْوُءُ أَوْ تَحْتَ خِذْنِ⁽¹⁾

و يمضي الشاعر يعدد الآفات الاجتماعية و يدعو إلى درئها و نبذها. و كما عرض للخمر و مظاهر الفساد و الانحلال التي شاعت و انتشرت في أرجاء البلاد، عالج أيضا الكثير من مظاهر الانحراف الاجتماعي الأخرى مثل البخل و التعصب و التواكل و الإهمال و الخنوع و الخمول و غيرها من مواطن الضعف في المجتمع.⁽²⁾

على أن الشاعر أكد على آفة الفقر و اعتبرها العامل الرئيس في تفاقم ظاهرة الجهل و استفحالها، كما عدّها السبب الحقيقي لوجود ذاك التناقض الكبير الذي عاشته الجزائر بين رأسمالية طاغية و مواطن مسخر مضطهد⁽³⁾:

فَشَا الْجُوعُ وَ اشْتَدَّ عُسْرُ	وَ عَادَتْ سِنُو يُوسُفَ الْغَابِرَةِ
مَتَى يَسْتَظِلُّ بِظِلِّ التَّعِيمِ	مَسَاكِينُ يَصَلُونَ بِالسَّاهِرَةِ
تَفَاقَمَ كَرْبُ الْفَقِيرِ الْكَسِيرِ	أَمَّا عِنْدَكُمْ مِنْ يَدِ جَابِرَةِ؟
يَشْتُقُّ عَلَيْهِ الرَّغِيفُ الطَّفِيفُ	وَ تَعَوُّزُهُ الْخِرْقَةُ السَّائِرَةُ
فَأَيْهَا الرَّافِعُونَ الْقُصُورَ	إِلَى الْجَوْ فِي الْأُمَّةِ الْقَاصِرَةِ
وَ يَا عَامِرَ الْجَيْبِ خُلُو الْفُؤَادِ	قَرِيرَ الْبَصِيرَةِ وَ الْبَاصِرَةِ

¹ - الديوان - ص 250.

² - محمد بن سمينة - محمد العيد. شعره الإسلامي - الجزائر - معهد اللغة والأدب العربي - جامعة الجزائر - ص 241.

³ - صالح خرفي - شعر المقاومة الجزائرية - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - ص 249.

أَلَا تَذْكُرُونَ حُفَاةَ عَرَاةٍ أَصَابَهُمُ الْفَقْرُ بِالْفَاقِرَةِ⁽¹⁾

إنَّ الجزائر أصبحت سجلاً متتابع الصفحات متلاحق السطور بالآلام و المآسي تملأها
المظاهر القائمة البائسة، مما أدى ببعض الشباب الطائش إلى اللجوء إلى حل أكثر دناءة من
الحياة المضنية، فتفتشت ظاهرة الانتحار، و كان لا بد للشاعر أن يقف عندها، و هو ينبذها
و يطالب بالتّرفّع عنها:

لَا أَسْتَبِيحُ لَكَ التَّرْدِيَّ إِنَّهُ رُغْمَ اضْطِرَارِكَ زَلَّةٌ نَكَرَاءُ

فِي كُلِّ كَارِتَةٍ لِكُلِّ مُوَحَّدٍ أَمَلٌ لَهُ فِي كَشْفِهَا وَرَجَاءُ

مَنْ كَانَ مُرْتَكِرَ الْيَقِينِ فَعُسْرُهُ يُسِرُّ عَلَيْهِ وَ بُؤْسُهُ نَعْمَاءُ

إِنَّ انْتِحَارَ الْيَائِسِينَ جِنَايَةٌ عُظْمَى يَبُوءُ بِخَزْيِهَا الْجُبْنَاءُ

دُنْيَاكَ مَعْرَكَةٌ يَفُوزُ بِكَسْبِهَا رَأْيِي أَسَدٌ وَ هِمَّةٌ قَعَسَاءُ⁽²⁾

و يؤكّد الشاعر دوما على ضرورة الرجوع إلى الدستور الخالد و الاستكانة إلى ما
جاء فيه لأنه الدواء الشافي و الحل الكافي لكلّ المعضلات، و هو يهيب بالشباب أن
يعضّوا بالتّواجد على ما يزخر به دينهم و فضائل و قيم اجتماعية و إنسانية كفيّلة
أن تقيهم العثرات و تخرجهم من غياهب الظلم:

تَعَالَوْا بَنِي الْإِسْلَامِ لِلْحَقِّ إِنَّهُ بِهِ قَامَتِ الْأَكْوَانُ مَسْنُونَةَ النُّظْمِ

أَقِيمُوا حُدُودَ الْحَقِّ فِي السَّخَطِ وَ الرِّضَى أَقِيمُوا حُدُودَ الْحَقِّ فِي الْحَرْبِ وَ السَّلْمِ

¹ - الدّيون - ص 250.

² - الدّيون - ص 475 - البصائر - ع 204 - 1952.

وَرَوَّضُوا عَلَى خُلُقِ الثَّبَاتِ نُفُوسَكُمْ فَلَقَدْ كَانَ خُلُقُ الْمُرْسَلِينَ أُولِي الْعَزْمِ
وَكُونُوا مَعَ الْقُرْآنِ يَهْدِي قُلُوبَكُمْ وَخَلُّوا هَوَاكُمُ جَانِبًا فَالْهُوَى يَعْمي⁽¹⁾

و يلفت الشاعر نظر الشباب إلى كل ما يدعم شخصيته و يمدّها بأسباب القوّة
و المنعة من مآثر و محامد فيقول:

شَبَابَ الْجَزَائِرِ طِبُّ بِالْإِخَا ء فَقَدْ حُزَّتْ فِي رَعِيهِ الْأَسْبِقِيَّةِ
ذَرَّ الْخَوْفَ تَعْرِفَ ثَنَايَا السُّلُوكِ فَمَنْ هَابَ خَابَ وَضَلَّ الثَّنِيَّةِ
وَ نَفْسِكَ بَعَهَا مَعَ الْبَائِعِينَ كِرَامِ النُّفُوسِ لِبَارِي الْبَرِيَّةِ
وَ دَاوُوا الْمِيُولَ بِهَدْيِ الرَّسُولِ فَقَدْ مَسَّهَا طَائِفُ الطَّائِفِيَّةِ⁽²⁾

إنّ نزعة الشاعر الدينية طبعت جلّ أشعاره إن لم نقل كلّها، فهو يدعو الشباب
للعودة إلى هدي الرسول -صلى الله عليه و سلّم- و الاعتصام بالقرآن الكريم
للتعرّف على حلاله و حرامه، و يطالب الأمة جمعاء بتنشئة الجيل وفق تعاليم ديننا
الحنيف إن هي أرادت الفلاح في دنياها و آخرها:

هَلُمَّ بَنِي قَوْمِي إِلَى الذِّكْرِ نُمْلِهِ فَفِي الذِّكْرِ أَخْلَاقٌ سَمَتْ وَ مَكَارِمِ
وَ لَسْتُ أَرَى الْقُرْآنَ إِلَّا مَنَاجِمًا أَتَدْرُونَ مَا تَحْوِي عَلَيْهِ الْمَنَاجِمِ ؟
عَلَى الدِّينِ وَ الدُّنْيَا وَ عَلَيْهِمَا مَعًا شُهُودًا وَ غَيْبًا فَهُوَ بِالْكَلِّ قَائِمِ

¹ - الدّيوان-ص204.

² - الدّيوان-ص417.

فَرُبُّوا عَلَيْهِ النَّاشِئِينَ تُلْحُ هُمْ بِهِ طُرُقٌ مَشْرُوعَةٌ وَ مَعَالِمٌ (1)

و يتألم الشاعر لحال الشباب و يتأسف لتخليه عن الخصال الحميدة، و يعيب عليه تحاذله و تفریطه في الإرث العظيم الذي توارثه عن أجداده من عزّ و مجد عريق. (2)

لذا لا غرابة إن وجدناه يغتبط و يمتلى نشوة حين يرى الجهود الكبيرة التي يقوم بها العلماء من أجل تهيئة النشء التهيئة الصحيحة حتى يكون عدّة الوطن مستقبلا. فها هو يشيد بالشيخ الإبراهيمي و بالدروس التي يقدمها بباتنة معتبرا إياها خطوة إيجابية في طريق الإصلاح:

بِبَائِنَةِ رَعْدِ الْبَشَائِرِ لَعَلَعَا فَأَطْرَبَ أَوْرَاسًا بِهَا وَ الشَّلْعَلَعَا (3)

وَ أَخْصَبَتْ الْأَمَالُ فِيهَا وَ أَيْنَعَتْ كَمَا أَخْصَبَ الرَّوْضُ الْجَدِيدُ وَ أَيْنَعَا

بِمَدْرَسَةِ دِينِيَةِ عَرِيَّةٍ أَعَدَّتْ لِإِرْوَاءِ الْمَدَارِكِ مَنْبَعَا

نَمَتْ وَ نَمَى النَّشْءُ الصَّغِيرُ عَلَى الْهُدَى بِهَا وَ وَعَى فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ مَا وَعَى

وَ شَبَّتْ فَأَمْسَتْ لِلشَّبَابِ كَقَلْعَةٍ مُحَصَّنَةٍ فِيهَا الشَّبَابُ تَمَنَعَا (4)

و ديوان محمد العيد يزخر بمثل هذه الأشعار التي تشيد بالعلماء و جهودهم الدؤوبة للنهوض بالأمة نهضة علمية حقيقية، نهضة تكون دعائمها الأخلاق الحميدة

1 - الديوان - ص 137 - البصائر - 1937.

2 - محمد طمار - تاريخ الأدب الجزائري - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - 1981 - ص 350.

3 - الشلعلع و الأوراس جبلان بالشرق الجزائري.

4 - الديوان - ص 185 - البصائر - ع 3 - 1947.

كالصدق و النزاهة و الحذق و غيرها من الصفات التي إن اجتمعت في الفرد كانت له ذرعا واقيا و سورا منيعا يقيه شرّ الأعداي و يمكنه من استعادة مكانته و بعث مقومات أمته من تاريخ و حضارة و لغة و دين. و الشّاعر يجمع في دعوته بين مختلف فئات المجتمع لا يفرّق بين رجل و امرأة و لا بين فتى و فتاة، بل للنهوض بالأمة فهضة علمية حقيقية، فهضة تكون دعائمها الأخلاق الحميدة كالصدق و النزاهة والحذق و غيرها من الصفات التي إن اجتمعت في الفرد كانت له ذرعا واقيا و سورا منيعا يقيه شرّ الأعداي و يمكنه من استعادة مكانته و بعث مقومات أمته من تاريخ و حضارة و لغة و دين. و الشّاعر يجمع في دعوته بين مختلف فئات المجتمع لا يفرّق بين رجل و امرأة و لا بين فتى و فتاة، بل لطالما حتّ على الاهتمام بالمرأة و تعليمها و تربيتها التربية الصّالحة، و قد أوكل تلك المهمة للعلماء كونهم قادة المجتمع:

أذوي العمائم علّموا وتعهّدوا بالوعظِ والذكرِ ذوات البرقع

أتوا النساء نصيبهنّ من الهدى يُخرجنّ نشأ كالرّماح الشرّع.⁽¹⁾

و يحزّ في نفس الشّاعر ما يراه من معاناة المرأة الجزائرية من سوء الأخلاق التي يكون مردّه إليها أحيانا بسبب هجرها لمبادئ دينها و تخلّيها عن الفضائل و القيم و هي لن تجد ضالّتها في غير شرع الله و سنّة رسوله:

¹ - الديوان-ص149-البصائر-1937.

إِنَّ الْجَزَائِرَ أَمَسَتْ بِنْتَهَا غَرْضًا لِكُلِّ رَامٍ بِسَهْمِ الْغَيِّ مَاجُورٍ
 مَا بِالْهَذَا هَجَرَتْ آدَابَ مِلَّتِهَا مَا بِالْهَذَا أَعْرَضَتْ عَنْ خَيْرِ دُسْتُورٍ
 إِنَّ الَّذِي بَرَأَ الْجِنْسَيْنِ خَوْلَهَا حُقُوقَهَا فِي كِتَابٍ مِنْهُ مَسْطُورٍ
 لَوْ أَنَّهَا أَقْتَبَسَتْ مِنْ نُورِهِ وَجَنَّتْ مِنْ رَوْضِهِ التَّحَقَّتْ فِي الطُّهْرِ بِالْحُورِ
 عَافَتْ تَقَالِيدَهَا الْمُثَلَّى وَ قَدْ سَطَعَتْ أَنْوَارُهَا وَارْتَمَتْ فِي كُلِّ دَيْجُورِ
 مَاحِلٌ آرَاءُهَا الْمُسْتَحْدَثَاتِ سِوَى مُسْتَوْرَدَاتٍ مَدَاهَا غَيْرُ مَشْكُورِ
 فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ تَزْدَادُ ظُلْمَتُهَا فِي الرَّأْيِ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا سُورَةَ النُّورِ⁽¹⁾

إنَّ الشَّاعِرَ وَ هُوَ يَحِثُّ عَلَى تَعْلِيمِ الْمَرْأَةِ وَ تَرْبِيَتِهَا التَّرْبِيَةَ الْحَسَنَةَ فَذَلِكَ لِأَجْلِ
 إِعْدَادِهَا لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِهَا كزَوْجَةٍ وَ أُمَّ تَسْهَرُ عَلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا وَ تَسْعَى لِتَحْقِيقِ
 أَسْبَابِ الرَّاحَةِ لِزَوْجِهَا، وَ تَكُونُ بِذَلِكَ خَيْرَ مَعِينٍ لَهُ، تَعِينُهُ عَلَى شُؤُونِ الْحَيَاةِ
 شَرِيطَةً أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْمَبَادِئِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تَوْضِّحُ لِكُلِّ مَنْهَا
 حَقُوقَهَا وَ وَاجِبَاتُهَا الْاجْتِمَاعِيَّةَ.

عَلمُ الْبِنْتِ فَهِيَ لِلْبَيْتِ أُسٌّ وَ قِوَامٌ لِهَيْكَلِ الْبُنْيَانِ
 بَيْنَ هَذَا وَ هَذِهِ مِنْ عَفَافٍ بَرَزْخٌ حَاجِزٌ فَلَا يَبْغِيَانِ
 بَيْنَ هَذَا وَ هَذِهِ وَاجِبَاتٌ وَ حُقُوقٌ عَنْ فِعْلِهَا يُسْأَلَانِ

¹ - الديوان - ص 279.

فَقَدْ أَعَانَتْ خَدِيجَةُ سَيِّدَ الرَّسِّ لِ بَرَأْيٍ وَ ثَرْوَةٍ وَ حَنَانٍ⁽¹⁾

لم يكن ليخرج المرأة الجزائرية من البؤس و الجهل و الاضطهاد الذي طوّقتها بهم العادات و التقاليد الاجتماعية و كرّسهم الاستعمار إلاّ العلم، فبه وحده يمكنها- و شقيقتها- تحطّي الصّعب و استيعاب تعاليم الدّين الحنيف لتظفر بالسّعادة الحقيقية، و تساهم في بناء صرح حضاري حقيقي، فالعلم هو السّبيل الوحيد إلى تهذيب الفرد و ترقّيته لا سيّما إن كان محصّنا بحصن قويّ متين يسدّد خطاه و يوجّهه نحو سبل الرّشاد و يصونه من الانحراف و الزّلل:

ذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ دِينَ يَقُودُهُ تَحَرَّفَ عَنِ نَهْجِ الْهُدَى وَ تَنَكَّبَا.⁽²⁾

فالشّاعر يدعو للعلم الذي يمكن للقيم الفاضلة في نفوس النّاس، و ينشر بينهم المحبّة و السّلام و التّعاون إلى جانب الخير و الحقّ و الرّشاد:

لَا أَرَى الْعِلْمَ هَدِيٍّ مَا لَمْ يَكُنْ صَافِحًا عَنِ زَلَّةِ الْجَهْلِ حَلِيمَا
وَ أَمِينًا عَادِلًا فِي حُكْمِهِ وَ كَفِيلًا بِالْمُؤَاخَاةِ زَعِيمَا
يَعْرِضُ الْحَقَّ عَلَى الْخَلْقِ كَمَا يُرْشِدُ الْخَلْقَ إِلَى الْحَقِّ حَكِيمَا
هَذِهِ مَأْتِرَةُ الْعِلْمِ الَّتِي قَدْ أَثَرْنَاهَا عَنِ الْعِلْمِ قَدِيمَا⁽³⁾

¹ - الدّيون-ص265.

² - الدّيون-ص195-البصائر-ع94-1949.

³ - الدّيون-ص337-البصائر-1950.

و لئن كان الشّاعر يدعو للعودة إلى الأصالة و التّراث من أجل الاستفادة الحقّة من العلم، فإنّه يرى في إنشاء ناد أو جمعية و تشييد مدرسة حرّة وسيلة لنشر الفكر الإصلاحي لذا فليس من الغريب في شيء أن نجده قد " بذل عناية خاصّة بالصّحافة و المدارس و المساجد و الجمعيات و النوادي و أكثر من الحديث عن تأسيسها حرّة مستقلّة عن الاستعمار و أتباعه لكي تخدم الأهداف الوطنية."⁽¹⁾ فالنّادي في نظر العيد مصحّة للشّعب:

دَاوُوا بِهِ مَرَضِي الْهُوَى كَمَصْحَةٍ فِيهَا لِكُلِّ وَجِيعَةٍ تَرِيَاقٌ

و للشّاعر قصائد كثيرة يشيد فيها بتلك النوادي و الجمعيات التي كانت تعزّزها و تمدّها مادّيًا و معنويًا لا سيما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ذات الطّابع الوطني التي يعدّ يوم تأسيسها يوم عيد تحقّقت فيه الأمانى البعيدة:

و قَدْ حَلَّ هَذَا الْعِيدُ بِالْيُمْنِ جَامِعًا لَشَمْلِكُمْ فَاسْتَأْصَلَ الْبُعْدَ بِالْقُرْبِ

هَنِيئًا لَكُمْ هَذَا اللَّقَاءُ فَإِنَّهُ بِشِيرٍ بِمَا تَبْنُونَ مِنْ رَاسِخِ الْحُبِّ

فَخَطُّوا لَهُ مِنْكُمْ حُدُودًا مَنِيعَةً مِنَ الْعِلْمِ وَ الشُّورَى وَ مِنْ صَالِحِ الْكَسْبِ⁽²⁾

و إذا كانت الجمعيات و النوادي وسائل لنشر العلم و الوعي الوطني فإنّ المدارس الحرّة لم تكن أقلّ شأنًا منها، و هي تعدّ بحقّ صفحة مشرّفة لصمود الشّعب

¹ - أبو القاسم سعد الله- شاعر الجزائر محمّد العيد-مرجع سابق-ص146.

² - الدّيوان-ص247.

و الذود عن مقوماته لذا كان الشاعر يحثّ على إنشائها و تعهد أبنائها بالرعاية و التعليم:

ابنوا المدارس نظرة مُزدانةً تحكي المغارس في الربيع المونع
و ابنوا المساجد حرةً ليست إلى متحكّم تُعزى و لا مُبتدع

و هو حين يحثّ الأمة على تشييد المدارس فذلك لأنّه يدرك الدور الخطير الذي تقوم به و أنّ الأمة الجزائرية إذا شاءت "أن تنال من العلم منالا عظيما و تحتلّ بين الأمم مقعدا كرما فلتولّ وجهها شطر التربية المدرسية و لتجعلها الحجرة الأساسية لصرح مجدها و لتعهد بها إلى ربّانيين بصراء خبراء.." (1)

إنّ المتقّصي لأشعار محمد العيد سيجد دون شكّ أشعارا عديدة تتحدّث عن المدارس و فضلها في بناء المجتمعات و هي كلّها "نداء جهير للعلم و تثويب للجزائر بأن تجدّ في السير حتّى تخلّق بالتأهضين به، و كلّها حفز للهمم الخامدة أن تتحرّك و للنفوس الرّاكدة أن تنطلق و للأيدي الخامدة أن تتبارى في البذل.." (2)

و هي تتمّ عن اهتمام الشاعر بالعلم و كان نتيجة ذلك الاهتمام أن هتف لكلّ افتتاح مدرسة أو تدشين نادي أو إنشاء جمعية، ذلك أنّه لم يكن يرى فيها سوى منبرا للإصلاح و معقلا للعلم و المعرفة. على أنّ ثمة ملاحظة يجب الإشارة إليها، و هي ذلك التسلسل المنطقي الذي يلحظه المتتبّع لشعره في مرافقته للأحداث التي

¹ - البصائر - س1- ع2- 15شوال 1354-10جانفي 1936-ص3.

² - القول للشّيخ الإبراهيمي-الديوان-ص117.

كان يعيشها المجتمع الجزائري من اجتماعية و سياسية و دينية، و لهذه الأسباب لم نظفر على أشعار كثيرة في جريدة البصائر تمسّ الموضوعات الاجتماعية مثلما هو الشأن بالنسبة للشّهاب الّتي احتضنت العدد الأكبر من تلك القصائد ذلك لأنّ الشّاعر قد صرف اهتمامه إلى مواضيع أخرى و صوّب قلمه نحوها، و هي مواضيع ذات صلة بالحياة السياسيّة و الدّينيّة و هو تسلسل نجده عند الجمعية الّتي بادرت في بداياتها إلى الإصلاح الاجتماعي مرتكزة على التّعليم ثمّ ما لبثت أن توجّهت إلى مواضيع أخرى- إضافة إلى الأوّل- تتمثّل في القضايا التّحرّرية و قضايا الأّمة العربيّة و الإسلاميّة.

II.3. اللّغة، العروبة و الإسلام في شعر محمّد العيد:

وقف الكثير من الأدباء الجزائريين يدعون الشّعب و يوجّهونه لينهل من علم الشّرق و يقتدي بزعمائه و يحفظ تراثه " و هم إذ يرسمون هذا الاتّجاه لا يعنون بالشّرق مصطلحه الجغرافي أو السّياسي و إنّما كانوا يقصدون الشّرق في مفهومه العربي أو القومي و ذلك في مقابل اتّجاه آخر حاول الاستعمار أن يغري به طبقة من الجزائريين المثقّفين..."⁽¹⁾

إنّ الإحساس بالعروبة و الشّعور بالانتماء إلى الأّمة العربيّة كان أحد السّمات البارزة في قصائد الشّعراء الجزائريين، فالكيان الجزائري لم يكن منفصلا بأيّ حال

¹ - أبو القاسم سعد الله-دراسات في الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص107.

من الأحوال عن الكيان العربي.⁽¹⁾ و يعدّ محمّد العيد أكثر الشعراء حرصاً على الوحدة و العروبة و أشدهم عناية بالشرق و أحداثه، و هو في الوقت ذاته أبرز من حثّ الشباب على الاتجاه نحو المشرق العربي ليقضي خطاه ثقافة و حضارة.⁽²⁾

يَا شَبَابُ اتَّجِهْ إِلَى الشَّرْقِ وَ احْفَظْ كُلَّ كَنْزٍ لَهُ انْتِسَابُ

إِنَّمَا الشَّرْقُ نِسْبَةُ الْعُرْبِ الْأَحْرَارِ لَمْ تَنْقَطِعْ لَهَا أَسْبَابُ

إِنَّمَا الشَّرْقُ لِلْعُرُوبَةِ كَهْفُ آمِنِ الظِّلِّ بِالْأَذَى لَا يُصَابُ

هُوَ صَفْوٌ وَ غَيْرُهُ لَكَ شَوْبٌ فَرِّدِ الصَّفْوَةَ لَا تَرُدْ مَا يُشَابُ⁽³⁾

يفتخر الشاعر بماضي الوطن العربي و بعزّته و قوّته و يفاخر الأمم بحضارة أمّته و أصالتها، و يدعوها في حاضرها إلى اليقظة و الأخذ بأسباب التقدّم و الحضارة.

و قد اعتبر محمّد العيد تاريخ بلاده امتداداً للتاريخ العربي الإسلامي، فالدعوة إلى كيان جزائري مستقلّ تعني في جوهرها عودة إلى ذاك التاريخ المجيد الذي يحاول المستعمر بشتى الطرق طمسه و تشويهه ليفرغ الكيان الجزائري من محتواه و يلحقه

¹ - مجلّة الفكر - ع7 - أفريل 1985 - ص32.

² - عبد الله ركيبي - قضايا عربية في الشعر العربي المعاصر - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 1983 - ص20.

³ - الديوان - ص259 - البصائر - ع11 - 1947.

فرنسا الأم⁽¹⁾. و هكذا "كان تمجيد هؤلاء الشعراء للتاريخ العربي تعبيرا عن

ارتباطهم بالجذور و السلف و الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية."⁽²⁾

و ينتقد الشاعر الشباب الذين غفلوا عن ذلك الإرث العظيم و تناسوه:

وَ انْقَطَعْنَا يَا عِلْمُ عَنْكَ وَ عَنَّا كُ
ل تُّرَاثٍ أَبَقَتْ لَنَا الْأَجْدَادُ.

حَرْتُ فِي عَزُونَا عَنِ الْعَرَبِ لَوْلَا
فِكْرُ خِصْبَةٍ وَ لِسْنُ حِدَادِ

وَ نُفُوسٌ لَنَا تَهَيَّبُ إِلَى الْمَجْمَا —
دِنَا مَا لَهَا سِوَاهُ مُرَادِ⁽³⁾

إنَّ محمد العيد و هو يدافع عن التراث القومي في الجزائر و يدعو إلى رفض فكرة

الاندماج و ينافح عن اللغة العربية كان يهدف إلى التأكيد أن الجزائر شرقية عربية

لا غربية فرنسية كما يروج الاستعمار و أذياله.⁽⁴⁾

و من القضايا التي أثارت اهتمام الشاعر قضايا التحرر في الوطن العربي، إذ حاول

مواكبتها و رصد مسيرتها و قد استطاع "رغم الأسوار العالية و القضبان الفولاذية

التي كانت تطوقه، استطاع أن يلتفت إلى هذا الجسم المتمدن من الخليج إلى المحيط

فيبارك حركته التحررية و يأسو جراحه الدامية و يهنئ بنجاحه المظفر و يدعو إلى

مزيد من اليقظة و الإقدام."⁽⁵⁾

¹ - مجلة الفكر - ع7-1985-ص32.

² - نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - مرجع سابق - ص334.

³ - الديوان - ص117 - البصائر - ع1-1935.

⁴ - أبو القاسم سعد الله - شاعر الجزائر محمد العيد - مرجع سابق - ص190.

⁵ - نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - مرجع سابق - ص342.

وَ ابْنِ الْجَزَائِرِ بِابْنِ الشَّرْقِ مُرْتَبِطٌ وَ إِنِ أَحَاطَتْ بِهِ الْأَشْوَاكُ أَسْوَارَ.

و يتجلى الإحساس العربي لدى الشاعر بصورة واضحة في كل ما هو ذو طابع

سياسي كحديثه عن استقلال السودان:

فَوَزُّ سَرَتٍ بِحَدِيثِهِ الرُّكْبَانُ فَالشَّرْقُ مُعْتَبِطٌ بِهِ جَذْلَانُ

وَ النَّيْلُ يَجْرِي صَاحِبًا وَمُصَفِّقًا طَرِبًا فَتَرْقُصُ حَوْلَهُ الشُّطَّانُ

وَ بَنُو العُرُوبَةِ يَهْتَفُونَ لِمَرْكَبٍ فِي النَّيْلِ أَبْحَرَ رَكْبُهُ العَرِيَانُ⁽¹⁾

و بنفس الروح القومية و الشعور بالعروبة يهنئ الشاعر ليبيا بعد أن ظفرت

باستقلالها:

أَمَلٌ تَحَقَّقَ بَعْدَ طُولِ نَضَالٍ وَ مِثَالُ فَوْزٍ كَانَ خَيْرَ مِثَالٍ

أَرَأَيْتَ أَعْظَمَ غِبْطَةً مِنْ أُمَّةٍ مَهْضُومَةٍ حَظِيَتْ بِالإِسْتِقْلَالِ

يَا لِيَبِيَا تِيهِي بِنَجَاحِكَ رِفْعَةً وَ تَمَائِلِي بِلِوَاتِكَ المُخْتَالِ⁽²⁾

و كما شارك الشاعر الشرق أفراحه، شاركه أحزانه، فحين فقد هذا الأخير

شاعريه الكبيرين حافظ و شوقي بكاهما و وقف يندب حظ الشعراء:

دَوْلَةُ الشُّعْرِ مِنَ الشَّرْقِ انْقَضَتْ وَ انْقَضَى فِيهَا مِرَاءُ الأَمْرَاءِ

وَ لِوَاءِ الضَّادِ فِي الشَّرْقِ انْحَنَى فَانْحَنَى الشَّرْقُ عَلَى ذَاكَ اللِّوَاءِ

¹ -الديوان-ص354-البصائر-ع355-1956.

² -الديوان-ص348-البصائر-ع173-1952.

أَيُّ قَلْبٍ لَمْ يُكَدِّرْ بِالْأَسَى أَيُّ طَرْفٍ لَمْ يُفَجِّرْ بِالْبُكَاءِ

ثمّ يتدارك الشاعر نفسه و يتماسك و يطلب من الشرق أن يكفكف الدّمع
و يواصل الجهاد:

يَا بَنِي الشَّرْقِ ذَرُّوا الدَّمَعَ لِمَنْ لَأَذَّ بِالدَّمَعِ وَلَوْ ذُورًا بِالْعِزَاءِ
فَوَرَاءَ الْغَابِ أَشْبَالٌ حَمَّتْ حُرْمَ الْغَابِ شَدِيدَاتُ الضَّرَاءِ
أَنْتُمْ الْأَطْوَادُ فَلْيَجْمَعْ لَكُمْ أَمْرَهُ الْغَرْبُ وَيُسْرِفُ فِي الْعَدَاءِ.

و عندما فقدت تونس شاعرها الشاذلي خزندار سارع محمّد العيد لراثه متّخذا
من المناسبة سانحة للدّعوة إلى التآزر و الوحدة بين أبناء الأمة العربية :

بُورِكَ الْمَغْرِبُ مِنْ دَارِ لَنَا بَوَاتِنَا مِنْ مَغَانِيهَا كِنَانَا
نَحْنُ فِيهَا أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ إِخْوَةٌ دِينًا وَ جِنْسًا وَ لِسَانًا⁽¹⁾

و الموقف نفسه وقفه الشاعر في رثائه لعبد العزيز آل سعود مشيرا إلى أن مكّة رمز
من رموز الوحدة الإسلامية:

وَ مَا نَحْنُ إِلَّا إِخْوَةٌ رُغْمَ بَيْنِنَا أَشِقَاءُ فِي الْإِسْلَامِ مَا بَيْنَنَا فَرْقُ
وَ قَدْ يَرْتَجِي لِلشَّرْقِ جَمْعَ شَتَاتِهِ كَمَا يَرْتَجِي لِلْعَبْدِ مِنْ رِقِّهِ عِتْقُ⁽²⁾

¹ - الدّيون - ص 481 - البصائر - ع 261-1954.

² - الدّيون - ص 484.

إنّ أشعار العيد في المجال كثيرة بحيث لا يمكن حصرها كلّها هنا خشية الإطناب فقد تحدّث عن وفاة الملك غازي و شارك بغداد فاجعتها كما تحدّث عن العدوان ضدّ مصر و حثّها على الجهاد لأجل استرداد حقّها الضّائع و نبّه الشّرق من مغبّة الغفلة و الانخداع بوعود الغرب الكاذبة :

يَا شَرْقُ خُذْ حِذْرَكَ مِنْ جِيرَةٍ هَامُوا بِحُبِّ الْجُورِ مُدْ هَيْمُنُوا
يُبْدِي لَكَ الْغَرْبُ رُؤْيَ حُلُوةٍ وَ تَحْتَهَا يُبْطِنُ مَا يُبْطِنُ⁽¹⁾

و قد بلغ حبّ الشّاعر للشّرق به مبلغا جعله يتمنّى زوال الحدود و المسافات بين أجزاء الوطن العربي الكبير:

وَ طَنْ الْعُرُوبَةَ كُلُّ وَ طَنْ لَنَا فِي مِصْرَ أَوْ بَغْدَادَ أَوْ فِي الشَّامِ
فَلْتَحْيِي دَوْلَةَ شَعْبِنَا عَرَبِيَّةَ عَرَبَاءَ إِسْلَامِيَّةَ الْأَحْكَامِ
وَ لِيَزْدَهْرِ وَ طَنْ الْعُرُوبَةَ وَ لِيُدْمَ مَجْدُ الْعُرُوبَةِ فِيهِ وَ الْإِسْلَامِ⁽²⁾

على أنّ ثمة قضية كان لها حصّة الأسد في أشعار العيد و هي القصيّة الفلسطينية التي اعتبرها واقعة من وقائع العصر الحديث و تحوّلا سلبيا في تاريخ العرب و المسلمين الذين فرّطوا في حمى فلسطين لاسيما بعد دعوة "الجنة بيل" إلى تقسيم الأراضي الفلسطينية:

يَا قِسْمَةَ الْقُدْسِ أَنْتِ ضِيْرِي لَمْ يَعْدِلْ الْقَاسِمُونَ فِيكَ

¹ - الدّيوان -ص 179.

² - الدّيوان -ص 244.

مَضَوْا عَلَى الْحَيْفِ لَمْ يُبَالُوا بِمَا جَرَى مِنْ دَمِ سَفِيكَ
 الْقُدْسُ لِلْعُرْبِ مِنْ زَمَانٍ لَنْ يَقْبَلُوا فِيهِ مِنْ شَرِيكَ
 قَدْ سَامَهُ الْأَجْنَبِيُّ خَسْفًا وَ هَدَّ مِنْ رُكْنِهِ السَّمِيكَ⁽¹⁾

و يرفع الشاعر صوته في وجه الصّهاينة و من لفّ لفّهم من المستعمرين ليؤكد

عروبة فلسطين منذ الأزل و يبرز مكانته القدس من الديانات السماوية:

الْقُدْسُ لِابْنِ الْقُدْسِ لَا لِمُشَرِّدٍ مُتَّصِهَيْنِ وَمُهَاجِرِ غَدَّارِ
 يَا لِحَنَةِ التَّقْسِيمِ حَدَّتِ عَنِ الْهُدَى وَ سَخَرَتْ مِنْهُ فَيْتٌ بِالْإِنْكَارِ
 الْقِبْلَةُ الْأُولَى الَّتِي اسْتَصْغَرْتُهَا هِيَ لِلْعُرُوبَةِ قِبْلَةَ الْأَنْظَارِ
 مُوسَى وَعِيسَى وَ الْأَمِينُ مُحَمَّدٌ سَيْطَابُونُكَ بِالنَّجِيعِ الْجَارِي⁽²⁾

إنّ اهتمام الشاعر بالقدس نابع من مكانة هذه الأخيرة في قلوب المسلمين، فهي

قبلتهم الأولى و هي رمز وحدتهم و قوتهم و فخارهم، و هي مجمع الأنبياء

الأبرار.⁽³⁾

اهتمّ محمد العيد للقضيّة الفلسطينية كما اهتمّ لعديد القضايا ذات الصّلة بالإسلام

و المسلمين، قضايا استحوذت على مساحة كبيرة من ديوانه ذلك لأنّ الشّاعر نشأ

¹ - الدّيوان -ص314-البصائر-1937.

² - الدّيوان -ص330-البصائر-ع20-1948.

³ - أبو القاسم سعد الله-شاعر الجزائر محمد العيد-مرجع سابق-ص195.

و ترعرع في مدرسة القرآن الكريم فتأثر بتعاليمه قولاً و عملاً حتّى إنّه لو سؤل عن دينه وأرضه كان جوابه:

فَقُلْتُ لَهُمْ أَرْضُ الْعُرُوبَةِ مَوْطِنِي وَ دِينِي هُوَ الْإِسْلَامُ وَ الْقُدُوءَةُ النَّبِيِّ

و تربأ به أواصر الدّين و الوطن بأن يأبه لأيّ خلاف بينه و بين الغير:

إِذَا كُنْتُ فِي دِينِي وَ فِي وَطَنِي أَخًا فَلَسْتُ أَبَالِي أَنْ تُخَالَفَ مَذْهَبِي

و الشّاعر و هو يلتفت إلى الشّرق ليدعو أبناءه للاعتصام بجبل الوحدة و الأخوة يطالبه بالاحتكام إلى الدّين الحنيف لإطفاء نار الخلافات و القضاء على الطائفية و المذهبية الضيقة:⁽¹⁾

بِأَبْنِي الشَّرْقِ عِصْمَةً بِالتَّأخِي فَالتَّأخِي مَذْبَعَةٌ لِلنُّفُورِ

حَكِّمُوا الدِّينَ فِي الطَّوَائِفِ وَ ابْنُوا دُورَكُمْ بِالرِّجَالِ لَا بِالصُّخُورِ.⁽²⁾

و هو يهيب بالمسلمين أن يحيوا دين الله و يعملوا بأحكامه:

بَنِي الْإِسْلَامِ أَحْيُوا الدِّينَ أَحْيُوا شَعَائِرَهُ وَ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ

فَدِينٌ مُحَمَّدٌ دِينُ التَّرْقِيِّ وَ مَجْدٌ مُحَمَّدٌ مَجْدُ الخُلُودِ⁽³⁾

و ظلّ الشاعر يزود عن حمى الإسلام و يدفع عنه كيد الشّائنين على اختلاف ألوانهم من صليبيين حاقدين، و منحرفين مضللين.

¹ - أبو القاسم سعد الله- شاعر الجزائر محمّد العيد-مرجع سابق-ص196.

² - الدّيان-ص106.

³ - الدّيان-ص200.

و إنَّ من دواعي فرحه و هو الذي أوقف حياته للدعوة للإسلام أن يرى هذا

الأخير ينتشر في أقطار العالم ليصل إلى باريس قلب المسيحية⁽¹⁾.

و حديث الشاعر عن العقيدة الإسلامية مقرون بالحديث عن كتابها العظيم الذي

تأثر به واستلهمه معنى و مبني لاسيما و أن صلته بالمصحف الشريف قديمة و قويّة

و في أخباره و أشعاره ما يؤكد أنه قضى العمر كله و بين يديه هذا السفر الخالد

يتدبر مقاصده و يتذوق بيانه و يهتدي بهديه⁽²⁾ و يدعو إلى التمسك بتلابيبه:

هَلُمَّ بَنِي قَوْمِي إِلَى الذِّكْرِ نُمْلِهِ فَفِي الذِّكْرِ أَخْلَاقٌ سَمَتْ وَ مَكَارِمِ

رَبُّوا عَلَيْهِ النَّاشِئِينَ تُلْحَ لَهُمْ بِهِ طُرُقٌ مَشْرُوعَةٌ وَ مَعَالِمِ⁽³⁾

و إذا كان الشاعر يهتم للقرآن الكريم لأنه دستور المسلمين و قائدهم لخيري الدنيا

و الآخرة فإنه كذلك يهتم للغة العربية كونها لغة القرآن، و من ثم وجدناه يطالب

بضرورة استرداد مكانتها اللائقة بها:

تَجِنُّ إِلَى نَيْلِ الْحُقُوقِ نُفُوسُنَا وَ تَأْبَى عَلَيْنَا نَيْلَهَا قُوَّةُ الْعُشْمِ

وَ نَقْصَى عَلَى الْفُصْحَى وَ نَلْهَى بِغَيْرِهَا وَ لَيْسَ سِوَى الْفُصْحَى لِسَانًا لَنَا رَسْمِي

وَ مَا نَحْنُ إِلَّا مِنْ سُلَالَةٍ يَغْرُبُ فَمَنْ رَامَ عَنْهَا فَصَلْنَا بَاءَ بِالرُّغْمِ⁽⁴⁾

¹ - محمد مصايف-فصول في التقدي الأدبي الجزائري -الجزائر- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-ط2-1981-ص23.

² - محمد بن سميحة-محمد العيد شعره الإسلامي -مرجع سابق-ص166.

³ - الديوان-ص205-البصائر-ع208-1952.

⁴ - المصدر نفسه-ص205.

و يحضّ الشاعر المسمين على صيانة العربيّة و حمايتها لما لها من صلة بالقرآن الكريم:

بَنِي وَطَنِي أَعْلُوا الْمَدَارِسَ تَعْلُكُمْ بَتَعْلِيمِ جُهَّالٍ وَ إِرْشَادِ ضَلَالٍ
وَ صُوْنُوا بِهَا الْفُصْحَى الَّتِي بِكِتَابِكُمْ أَشَادَتْ بِبُرْهَانٍ وَ سَاغَتْ كَسَلَسَالٍ.⁽¹⁾

و يتحسّر الشاعر على حالة اللّغة العربيّة بالجزائر و يساوره بعض من الخشية على مستقبلها بهذا البلد المسلم لولا بعض الألسنة:

حِرْتُ فِي عَزُوْنَا إِلَى الْعَرَبِ لَوْلَا فِكْرُ خَصِيصَةٍ وَ لُسْنُ حِدَادٍ⁽²⁾

و لأنّ اللّغة العربيّة لم تسم بين اللّغات و تميّز إلا بما تحويه من فصاحة و بيان يدعو الشاعر إلى التمسك بأصولها:

فَإِنَّ لِسَانَ الضَّادِ لَمْ يَعْرِضْ أَصْلُهُ لِيَعْرُبَ بَيْنَ اللُّسَنِ إِلَّا لِيَعْرُبَ⁽³⁾

و يوم يرتفع صوت الضّاد بصدور أوّل كتاب عربي "شعراء الجزائر" يهتزّ له الشّاعر طربا و يتعنى به و هو يرى في صدوره أملا جديدا يسمح للفصحى أن تفصح عن مكنونات قرن من الكبت و الخنق⁽⁴⁾. و بروح الفخر و الاعتزاز ذاتها يتلقّى الشاعر خبر عرض أوّل فيلم عربي⁽⁵⁾ بعاصمة الجزائر:

¹ - الدّيان -ص 127.

² - الدّيان -ص 119-البصائر-ع 1-1935.

³ - الدّيان-ص 196-البصائر-ع 94-1949.

⁴ - صالح خرفي-شعر المقاومة الجزائرية-مرجع سابق-ص 270.

⁵ -فيلم أنشودة الفؤاد عرض بالعاصمة سنة 1934م.

نَاوُلُونَا مِنَ الْكِنَانَةِ سَهْمًا وَ مَعِينَا مِنْ نَيْلِهَا السَّيَالِ⁽¹⁾

و الشاعر و هو يدعو إلى اللغة العربية و يلحّ على ضرورة الحفاظ عليها لا يريد الانغلاق و رفض الانفتاح على اللغات الأخرى " و لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام التحذير من اللغات الأخرى التي لها مزاياها التي لا تنكر"⁽²⁾. و إنّما غاية ما يذهب إليه أن تحتلّ اللغة العربية الصدارة و الريادة لأنّها لغة القرآن الكريم و لسان هدي الرسول العظيم - صلى الله عليه و سلّم- و هي وعاء حضارة الإسلام و مستودع أجداد العرب المسلمين، و هي إلى جانب هذا و ذاك تتمتع بقدر كبير من الثراء و المرونة و القابلية للتطور.

و إذا كان الشيخ البشير الإبراهيمي قد تبوّأ الريادة في المقال، و محمد العيد آل خليفة في الشعر حتّى شهد لهما أصحاب الشان بالإمارة فيهما⁽³⁾، فإنّ هذا لا ينفي وجود أسماء أدبية أخرى تعدّ رائدة أيضا في المجالين، و قد سبقت الإشارة إلى بعضها من أمثال الشيخ ابن باديس و العقبي و السنوسي و الزاهري و الملي و الورتلاني و المدني و رضا حوحو... فقد "حمل هؤلاء الأدباء راية الحركة الأدبية و ساروا بها أشواطاً على طريق التّضحج و التّحرّر و التطوّر..."⁽⁴⁾ فخلّصوها بذلك

1 - الدّيوان-ص25.

2 - محمد بن سميّة-محمد العيد. شعره الإسلامي-مرجع سابق-ص304.

3 - الشّهادة للشيخ ابن باديس الذي كتب مقالا في الشّهاب بعنوان "بين الأميرين: أمير شعراء الجزائر و أمير كتّابها"-

البصائر-ع575-2011-الشيخ عبد الرحمان شيبان"الإبراهيمي و اللغة العربية".

4 - محمد بن سميّة-في الأدب الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص98.

من الجمود و الصنعة و التقليد، و خلّصوا الأدب الجزائري من الموروث الهزيل، لتستعيد الكلمة وظيفتها الواقعية النضالية " و قد استطاع الشعراء منهم أن ينجحوا في تصوير ما تضرّب به وجوه الحياة الوطنية في مختلف المجالات الاجتماعية و السياسية و الإنسانية، كما استطاعوا من نحو آخر أن يزاوجوا في صنعتهم (بنية و لغة و تصويرا و إيقاعا) ما بين خصائص النموذج الفني الشعري التراثي و بين ما يقوم عليه سمات الخطاب الشعري في العصر الحديث. كما استطاع الكتاب من جهتهم أن يصوغوا تجاربهم المختلفة في ألوان عديدة من النثر كان من أهمّها: النثر الديني و الاجتماعي و السياسي و غيرها و قد عالجوا في هذه الألوان معظم ما عرفه النثر العربي من أطر فنية."⁽¹⁾ فبعد عودة البصائر للظهور في أعقاب الحرب العالمية الثانية "أفسحت المجال لمناقشات كثيرة لم تنحصر في نطاق الإصلاح و الدين و تحريره من الأوهام و الخرافات- كما كان شأنها من قبل، بل اتّسع صدرها للمقال القصصي و الصّورة القصصية و القصّة الفنية أحيانا بالإضافة إلى الخواطر و المقال الأدبي و السياسي و الديني جميعا."⁽²⁾

¹ - محمد بن سميّة- في الأدب الجزائري الحديث- مرجع سابق-ص98.

² - عبد الله ركيبي- القصّة الجزائرية القصيرة- الجزائر- دار الكتاب العربي للطباعة النّشر و التّوزيع-2009-ص67.

III. القصة القصيرة الجزائرية

تعدّ القصة القصيرة إحدى الألوان الأدبية التي نشأت و ترعرعت في أحضان

جريدة البصائر، لذا كان لا بدّ من الوقوف عندها لنتتبّع بداياتها.

و الحقيقة أنّ البحث في تاريخ نشأة القصة ليس مطلبنا و لا الغاية من بحثنا، فذلك

أمر فصلّ فيه الباحثون قبلنا، و إنّما أردنا أن نبرز مدى إسهام البصائر في نشر نوع

أدبي جديد لم تعهده السّاحة الأدبية في الجزائر من قبل.

III.1. الإرهاصات الأولى لنشأة القصة القصيرة

نشأت القصة القصيرة الجزائرية على يد رجال الإصلاح من أمثال: محمّد بن

العابد الجلاي، و محمّد سعيد الزاهري و أحمد بن عاشور...⁽¹⁾ و كانت تسمّى

القصة الإصلاحية و قد تناولت القيم التي يجب أن تسود المجتمع و ضرورة التخلّص

من المحتلّ، و أهمّية الحرّية و كان ذلك في حوالي 1924م، لكنّ التطوّر و النضج

الحقيقي لها كان في أعقاب الحرب العالمية الثانية حيث عرفت الحياة الأدبية

و الثقافية في الجزائر تطوّرًا ملحوظًا، فقد كثر عدد الكتّاب بعدما عاد بعضهم إلى

أرض الوطن و تخرّج بعضهم من معاهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كما

شهدت هذه المرحلة استمرار البعثات العلمية إلى البلاد العربية، و خاصّة تونس

¹ - عبد الله ركيبي-تطور النثر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص164.

و المغرب الأقصى، و هو ما أدّى إلى ازدهار مختلف الأنواع الأدبية لاسيما في ظلّ انتشار النوادي و الجمعيات الثقافية، و اهتمام الصّحف اليومية و المجالات الدّورية بالإبداع الأدبي و في طليعتها "البصائر". و قد ظهرت القصّة أوّل ما ظهرت على شكل مقال قصصي هو مزيج من المقامة و الرواية و المقالة الأدبية⁽¹⁾، و تطوّرت مع رائدها الذي استطاع أن يرتقي بها بعد عودته إلى الجزائر سنة 1946م و انتسابه إلى جمعية العلماء.⁽²⁾

2.III. رضا حوحو رائد القصّة القصيرة الجزائرية

اهتمّ رضا حوحو للقصّة و "أبدع فيها و لم يقلّد، و جدّد و لم يحافظ، و تحرّر و لم يحن إلى ما غبر من المذاهب الأدبية، أو قدم من العهود الزّمنية.."⁽³⁾ و قد وجد فيها متنفسا لبثّ آرائه حول مواضيع عدّة لاسيما الإصلاح الاجتماعي، لأنّ القصّة في نظره "أحد الفنون التي تنصبّ على النفوس الإنسانية فتتقدّها حتّى تهدّبها، و تربيها حتّى تعلّمها، و تنصرف إلى العادات الاجتماعية الشّريرة فتنقم منها و تطعن فيها، حتّى تقوم ما فيها من أود، و تصلح ما ألمّ عليها من

¹ - عبد الله ركيبي-القصّة الجزائرية القصيرة-مرجع سابق-ص68.

² - شريط أحمد شريط-تطوّر البنية الفنيّة في القصّة الجزائرية المعاصرة(1947-1985)-الجزائر-من منشورات اتحاد الكتاب العرب-1988-ص48.

³ - عبد الملك مرتاض-نمضة الأدب المعاصر-مرجع سابق-ص156.

اعوجاج.⁽¹⁾ و قد وَّفَّق في نقل المواضيع، ما أهَّله أن يجتَلَّ الصِّدَارَة في المجال، إذ "لم يتح لأدبنا العربي المعاصر في الجزائر أن يحظى بكاتب قصصي ينفذ عنه الغبار المتعفن الذي كان قد أصابه من فعل أصحاب الأسجاع و المقلِّدين، حتَّى جاء حوحو فنفض عنه الغبار و وثب به إلى مستوى أدب الإنسان في عاطفته و شعوره، و انفعاله و غضبه حين انبرى يكتب الأقاصيص و يعالجها."⁽²⁾ و إذا كان المقال القصصي عبارة عن مقال إصلاحي في مضمونه و وظيفته، هدفه الدعوة الإصلاحية و شرحها بأسلوب قصصي جذاب⁽³⁾، فإنّ رضا حوحو يعدّ بحقّ أوّل من انتهج هذا النهج في أعماله القصصية. و الدّارس لأثار الكاتب يدرك أنّ بين ثناياها موهبة أدبية لا تخلو من إبداع و تجديد، و تتميّز برؤية فنيّة متطوّرة إذا ما قيست بالوضع الثقافي السائد آنذاك، وهو ما يجعله رائد القصّة في الجزائر و باعثها إلى الوجود و الدّاعي إليها في كلّ مناسبة.⁽⁴⁾

و قد وردت تلك القصص -التي تشبه إلى حدّ كبير طريقة المقامة في الأدب العربي⁽⁵⁾- على شكل "مجموعة من المقالات النقدية في الأدب و السياسة و الاجتماع، أجراها كاتبها، و أحاب بها على لسان حمار فيلسوف ينظر إلى الناس

¹ - المرجع السابق -ص156.

² - المرجع نفسه-ص157.

³ - عبد الله ركيي-تطوّر النشر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص167.

⁴ - المرجع نفسه -ص168.

⁵ - محمّد خان-الأدب الإصلاحي في الجزائر"دراسة تحليلية لأدب حوحو"-مجلة العلوم الإنسانية-جامعة محمّد خيضر-بسكرة-2003-ع2-ص32.

بمنظار واقعي...⁽¹⁾ وقد وُفق حوحو إلى حدّ كبير في تصوير حياة المجتمع بمختلف قضاياها الهامة، واستطاع أن يكشف عيوبها و مساوئها، و ينقدها بأسلوب ساخر و جرأة قويّة.⁽²⁾

و لئن عددنا تلك المجموعة القصصية خطوة أولى في الفنّ القصصي الجزائري، فإنّ ذلك يحسب لجريدة البصائر التي تعدّ أوّل من احتضن تلك القصص.⁽³⁾ فلا شكّ أنّ المتبّع للسلسلة الثانية منها يتمتّع بقراءته لسلسلة مقالاته "مع حمار الحكيم" و ما تحويه من موضوعات اجتماعية و عاطفية و أخلاقية و وطنية.

و كانت المساهمة الأولى لرضا حوحو في جريدة البصائر سنة 1937⁽⁴⁾ و هو لا يزال في المدينة المنورة، و هي عبارة عن كلمة تشجيع و تقدير بعثها إلى جمعية الشّباب العقبي التي تبنت نشيدا حماسيا عبّرت فيه عن وطنيتها الصادقة.⁽⁵⁾ و ممّا جاء في مقاله "و لا أكتمكم أنّه هزّني هذا التّشيد الوطني و أطربني، حيث ذكّرني ببلدة ترعرعت بين أحضانها، و إخوان تجمعني بهم وحدة الوطن، وحدة الفكر..."⁽⁶⁾ فالمقال يبرز تعلق رضا حوحو بوطنه و اهتمامه بقضاياها. و لم ينشر حوحو مقالا آخر في البصائر إلّا مع أواخر الثلاثينيات و مطلع الأربعينيات حيث

¹ - المرجع السابق-ص33.

² - البصائر- ع 232-جويلية-1952-عبد الوهاب منصور-مع حمار الحكيم.

³ - إلى جانب البصائر كان حوحو ينشر قصصه في جريدة 'الشعلة'!

⁴ - أحمد منور-قراءات في القصّة الجزائرية-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-ط1-1981-ص39.

⁵ - النشيد نشر في البصائر-ع75-جويلية 1937.

⁶ - البصائر-ع81-سبتمبر-1937.

"ساهم بإسهاب في تحريرها بالكتابة في النقد الأدبي و قضايا سياسية، و السجال الفكري مع بعض الكتاب المعاصرين و التّراجم..."⁽¹⁾ وكانت البداية سنة 1946م مع "خواطر حائر" بعد عودته إلى أرض الوطن. أمّا أشهر مجموعة لحوحو فهي سلسلة مقالاته "مع حمار الحكيم" التي استهلّها ب"ساعة مع حمار الحكيم" تحدّث فيه عن مطالعته لكتاب "حماري قال لي" للأديب المصري توفيق الحكيم. و قد ضمّن تلك المقالات مجموعة من القضايا: الاجتماعية، و السّياسية، و الفكرية.

أ- رضا حوحو و القضايا الاجتماعية

أولى رضا حوحو الموضوعات الاجتماعية عناية كبيرة، فعمل على نقل واقع مجتمعه و قضاياها، وسلّط الأضواء على هموم شعبه لاسيما الفئات الفقيرة، كما تحدّث عن المرأة و دعا لتحريرها من ظلام الجهل و أغلال العبوديّة. و هو في هذا كلّه قد تجاوز مرحلة تصوير الأحداث إلى مرحلة انتقادها و التّنديد بتقاليدنا في جراحة كبيرة، و معالجة صريحة لم يسبقه إليها أحد.⁽²⁾

¹ - البصائر-س3-مساهمات-نوفمبر 2011.

² - أحمد منور-قراءات في القصّة الجزائرية-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-ط1-1981-ص39.

✓ المرأة

حظيت المرأة بحيز كبير في مقالات حوحو، ذلك لأنه عمل على تغيير واقعها
و الأخذ بيدها للمضي بها قدما نحو مستقبل أفضل. و لن يتأت ذلك إلا إذا تمكّن
من القضاء على الرواسب القديمة و العادات البالية التي جعلت منها كائنا مهضوم
الحقوق، لاسيما في ظلّ غيرة الشعب الجزائري الكبيرة، و إصراره على المحافظة
على بعض المظاهر الاجتماعية التي تفضي إلى منع المرأة من حقّها في التّعليم، بل
و تحرمها من الخروج من بيتها، و تفرض عليها سيطرة الذكر أبا كان أو أخوا أو
زوجا، و هو ما جعل منها شخصا مسلوب الإرادة مسيرا لا حول له و لا قوّة، بل
حوّنها إلى آلة لا تصلح إلا للتناسل:

"قال: هل تريد أن تطرق موضوع المرأة؟"

قلت: كن مرتاحا من هذه الناحية، إنّه لا وجود للمرأة في بلادنا.

قال: عجبا... أتعشون بدون نساء. و كيف تتناسلون؟

قلت: لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا.⁽¹⁾

فنظرة المجتمع هذه للمرأة، جعلت رضا حوحو يثور و ينادي بضرورة تحريرها،
و ما ذلك إلا عودة لتعاليم ديننا الحنيف الذي كرّمها. و هو يرى في الاهتمام

¹ - البصائر - ع 64-1949م - ص 151.

بالمرأة اهتماما بالمجتمع كلّ، فهي الزوجة و الأمّ و الأخت، و هي نصف المجتمع بل المجتمع كلّ.

و إذا كان الكاتب قد نادى بضرورة تحرير المرأة الجزائرية من القيود التي جعلت منها مجرد "آلة"، فإنه بالمقابل حذر من الزواج بالأجنبيات، و إن كنّ يتمتّعن بكافّة الحقوق التي حرمت منها هي، ذلك لأنّه يرى في زواج الجزائري بالأجنبية خطرا كبيرا قد يؤدّي إلى انصهار الأمة الجزائرية في فرنسا و تلاشيها.⁽¹⁾ فالقضية التي تعرف انتشارا كبيرا بين المثقفين من أبناء الجزائر ليست قضية زواج و حسب، بل هي قضية بقاء أمة بأكملها أو انقراضها. وهو يرى فيها عاملا آخر من العوامل التي مافتتت فرنسا تسخّرها لأجل القضاء على مقومات الشعب الجزائري:

"قال: لا تنسى أنّي لست كبقية الحمير، فأنا أتمتّع ببعض الثقافة.

قلت: فاسلك إذن مسلك المثقفين... !

قال: ماذا تعني...؟

قلت:

قال: ما هذا الهذيان... ! أصبت في عقلك.

قلت: أبدا... فإنّ الشائع في هذه الأيام هو زواج المثقفين بأجنبيات، و أيّ مانع في

أن يتزوَّج حمارنا المثقف بأتان أجنبية تليق بمقامه المحترم...

¹ - البصائر - ع70-1949م - ص194.

قال: أما يكفي هذا الانحلال الاجتماعي و الخلقى الذي جرّه زواج بعض رجالكم من الأجنبية حتى أضيف إليه انحلالاً آخر في فصيلة الحمير.

قلت: كيف ذلك؟

قال: زواجي من أتان أجنبية تخالفني في الجنس و العادات و التفكير فيه خطورة كبيرة على أخلاقي و عاداتي و تفكيرتي.⁽¹⁾

فالزواج بالأجنبية يعني امتزاج ثقافتين، و في هذا خطر كبير على المجتمع الجزائري الذي يعاني الوهن، ما يجعله عرضة للاضمحلال و التلاشي:

"قال: لم أر حتى الآن حماراً شرقياً يتزوج بأتان غريبة، و لكنني أعرف كثيراً من الرجال الشرقيين تزوجوا من نساء أجنبيات و لم أر بينهم من استطاع أن يعرّب زوجته الغربية، و قليلون جداً الذين لم تفرنجهم أزواجهم."⁽²⁾

فتأثير الأجنبية على الجزائري و محاولة فرض سلطتها عليه، ما هو إلا وجه من وجوه سيطرة المحتلّ على الشعب الجزائري، و سبيل آخر لبلوغ مراميه و بالتالي القضاء على مقوماته و هويّته ليسهل عليه بعد ذلك ضمّه إلى فرنسا.

✓ الآفات الاجتماعية

لا يختلف اثنان حول الأوضاع الاجتماعية المزرية التي عاشها الشعب الجزائري تحت نير الاستعمار. فقد كان يعاني الذلّ و الهوان في ظلّ الجهل و الفقر و الانحلال

¹ - البصائر - ع70 - مارس 1949م - حمار الحكيم والزواج - ص194.

² - المصدر نفسه - ص195.

الخلقي. يومئ حوحو إلى تلکم الأوضاع حين بثير قضیة التعلیم مع حمارة

الفيلسوف⁽¹⁾:

"قال: و التعلیم؟

قلت: هناك التعلیم الرسمى، و هو مبني على قاعدة فلسفية عميقة و غامضة في نفس

الوقت و هي: تعلّم لتجهل...

قال: عجباً، يتعلّم ماذا؟ و يجهل ماذا؟ فإني لا أكاد أفهم شيئاً.

قلت متضجراً: و أنا لك أن تفهم فلسفتنا العميقة؟

ثم أردفت قائلاً:- و أمّا التعلیم الحرّ فله لجنة عليا، تستطيع أن تتصل بها لتقدّم لها

آراءك و مقترحاتك.

ففي الحوار إشارة واضحة لحالة التعلیم في الجزائر. تعلیم يخضع لآتجاهين

متناقضين، يتبنّى أولهما الاحتلال الفرنسي بنشر الجهل من ناحية، و محاولة فرنسة

الطبقة المثقفة من ناحية ثانية. أمّا الاتجاه الثاني فتتبنّاه الحركة الإصلاحية التي كانت

تسعى لنشر التعلیم الحرّ في الجزائر و غايتها في ذلك القضاء على ظاهرة الجهل التي

استشرت في ربوع الجزائر.

¹ - البصائر - ع64 - جانفي 1949م - ساعة مع حمارة الحكيم - ص151.

و الجزائر، و الحال كذلك، كانت تفتقر للأدب و الأدباء. فالظروف الاستعمارية لم تكن تسمح بتطور الأدب أو حتى الاهتمام به و محاولة إنتاجه، و ما ذلك إلاّ مظهر آخر من مظاهر الجهل و التخلف:

"قال: و هل يروك حديث الأدب و الفنون؟

قلت: لا أدب لدينا و لا فنون و لا صحافة و لا هم يجزنون. فضحك بملى فيه و قال: إنك رجل متشائم جدًا." (1)

و يثير الكاتب مع حمارة نقطة غاية في الأهمية و هي علاقة الجهل بالفقر، و مدى تأثير الثاني في الأوّل حين يقول:

"قلت: أمّا رجال المال و التجارة فإنّهم لا يضيعون أوقاتهم المادّية الثمينة في قراءة مهاتراتنا، و أمّا القراء فإنّهم لا يملكون ما يشترون به ما يريدون مطالعته... " (2)

ب- رضا حوحو و القضايا الدّينية

تفاقت الأوضاع المزرية التي كان يعيشها الشعب الجزائري في أعقاب الحرب العالمية الثانية، لاسيما و قد انضاف إلى ظلم المحتلّ و استبداده عامل آخر، ساهم في تقسيم الأمة و تشتيتها، ذلك هو الانحراف الدّيني الذي تفشّى على يد رجال الطرق الذين سعوا إلى تحريف العقيدة و تشويهها:

¹ - البصائر-ع64-ساعة مع حمار الحكيم-ص151.

² - المصدر نفسه-ص152.

"قال: لتتكلّم إذن في الدين..."

قلت: دين من؟

قال: الدّين الإسلامي.

قلت: أعلم ذلك، دين الحكومة أم دين الشعب، الدّين الرسمي أم الدّين الحرّ، دين

العاصمي⁽¹⁾ أم دين الإبراهيمي؟

قال: عجباً... و هل لكم ستة أديان.

قال دينان فقط... دين رسمي تشرف عليه الحكومة وينفّذه العاصمي، و دين حرّ

يعتقده الشّعب و يتزعمه الإبراهيمي.⁽²⁾

كما أثار الكاتب مع حمارة الفيلسوف قضيّة إشراف حكومة لائكية على الدّين

الإسلامي و تحكّمها فيه دون غيره من الأديان في مقاله "حمار الحكيم و صوت

المسجد."⁽³⁾ و في ذلك إشارة واضحة للقضيّة الّتي كان رجال الإصلاح يثيرونها

في مناسبات عدّة و هي ضرورة فصل الدّين عن الدولة.

¹ - يريد به مفهّي العاصمة الّذي عيّنته فرنسا. وكان من رجال الطرقيين. عبد الملك مرتاض-أدب المقاومة الوطنية في

الجزائر-مرجع سابق-ج2-ص345.

² - البصائر-ع64-جانفي 1949م-ص151.

³ - البصائر-ع68-فبراير 1949م-ص6.

ج- رضا حوحو و القضايا السياسية

تحدّث رضا حوحو عن الانتخابات، كما تحدّث عن العدالة الاجتماعية و الحرّية و الإنسانية، و أثار قضية المساواة التي كانت فرنسا تتّخذها شعارا لها "الحرّية، الإخاء، و المساواة" مدّعية أنّها تحارب شتّى أنواع الظّلم و الاستبداد، لكنّه شعار ظلّ بعيدا كلّ البعد عن واقع الأمة الجزائرية الذي فضح مزاعم فرنسا و ادّعاءاتها:

"قلت: إنّك تسلّم أنّ كلّ علاج للمشاكل لا يبنى على أساس المساواة هو علاج لا يجدي.

قال: نعم أسلّم بذلك لأنّه حقّ.

قلت: و أين هذا التّساوي و أنتم تنظرون إلينا كشعب منحطّ في حاجة إلى التّربية و التّعليم؟ و لكن مع الأسف تتجلّى هذه التربية في استغلالكم لبلادنا، و يظهر هذا التّعليم في إعانتكم لشعبنا حتّى أنّكم تصبغون دائما أعمالكم إزاءنا-حتى القاسية منها- بصبغة التّحضّر و التمدّن.

قال: لعلك تبالغ...

قلت: أتتكر أنّ الاستعمار الغربي أعمالا فظيعة في البلاد و الشّعوب المستعمرة."⁽¹⁾

¹ رضا حوحو - مع حمار الحكيم-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-1982م-ص39.

أمّا عن الجزائر فهو يرى أنّها لم تبلغ بعد درجة النضج السياسي، وأنّ السياسة لا تزال رهينة الأهواء و المصالح الشخصية:

"قال بجنبث: إنّك تحترس كثيرا، فلنتكلم في السياسة قلت: دعني من السياسة أيّها الحمار السياسي، إنّها لم تنضج بعد في بلادنا. و لازالت تعتمد على المصالح الشخصية، و الحزابات الفردية، أكثر من اعتمادها على المبادئ و الأفكار و المصلحة العامّة، و أنا لا أريد أن ألطخ نفسي بأوحالها."⁽¹⁾

و هكذا نلاحظ أنّ رضا حوحو كان أوّل كاتب جزائري استجاب لتأثيرات الظروف السياسية و الاجتماعية و الثقافية الجديدة، و أوّل من ضمّن كتاباته جلّ القضايا المعاصرة كقضية تثقيف المرأة و بناء المجتمع و قضية الإصلاح الديني.⁽²⁾

¹ - البصائر - ع64 - جانفي 1949م - ص151.

² - شريط أحمد شريط - تطوّر البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة - ص70.

الفصل الرابع

الخصائص الفنية

لأدب الصحافة

الإعلامية

ذكرنا آنفاً أنّ معالم النهضة الأدبية بدأت ترسم في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، مع ثلّة من الكتّاب و الشعراء المحافظين من أمثال: عبد القادر المجاوي و ابن خوجة و المولود بن الموهوب و عمر بن قُدّور و عمر راسم و غيرهم⁽¹⁾ ممّن يمثّلون الرّيعيل الأوّل من المصلحين الذين حاولوا تغيير الواقع و تصحيح العقيدة الّتي مسختها يد الاستعمار و أذنا به.

و في أعقاب الحرب العالمية الأولى عرفت النهضة الأدبية طفرة نوعية لاسيما و قد تضافرت عوامل عدّة في انبعاثها لعلّ أوّلها ظهور الصحافة ثمّ انتشار التّعليم و إحياء التّراث إلى جانب تأثر النهضة الفكرية في الجزائر بمثلتها في المشرق العربي.

و يمثّل هذه الفترة -الّتي تعدّ الانطلاقة الحقيقيّة للنّهضة الأدبية الجزائرية- كلّ من ابن باديس و البشير الإبراهيمي و الطيّب العقبي و العربي التّبسّي و مالك بن نبي و محمّد اللّقاني و مبارك الملي و أبي اليقظان و رمضان حمّود و الزاهري و صالح حبشاش و جلّول البدوي و مفدي زكرياء و محمّد العيد آل خليفة. هؤلاء جميعا و غيرهم استطاعوا " أن يشقّوا طريقهم في إطار حركتهم الإصلاحية إلى مصادر التّراث العربي الإسلامي و كنوز الأدب العربي في عصوره الزّاهية و مضوا ينهلون من المنابع الثّرة لهذه و تلك و يغترفون في الوقت ذاته من روافد التّهضة الفكرية الأدبية الحديثة في المغرب و المشرق، و يفيدون بعض الإفادة من الثّقافة

1 - محمّد بن سميّة- في الأدب الجزائري الحديث- مرجع سابق-ص92.

الإنسانية الحديثة.⁽¹⁾ و قد غلب على هذه الفترة الطابع التربوي التوجيهي، ذلك لأنّ حاملي مشعل النهضة الأدبية كانوا من رجال الإصلاح الدعاة الذين سخرّوا جهودهم و أوقفوا حياتهم على خدمة الأمة عن طريق تصحيح العقائد و نشر التعليم لأجل الحفاظ على هويتها و مقوماتها. فجاء بذلك نتاجهم الأدبي في أسلوب سهل بسيط لا صنعة فيه و لا تكلف و كانت الخطوة الأولى نحو التجديد و التحرّر من قيود التقليد. و لعلنا نجد في تصريح رمضان حمّود ما يؤكّد ذلك حين يقول "ولست من الذين يكتبون للتسلية أو الترويح عن النفس و لا من الذين يتلذّذون بالعبارات المنمّقة الرقيقة، و لكنني أكتب لأفيد و أستفيد، أكتب لا ليقال أنّه كتب بل ليقول لي ضميري: إنك قمت بواجبك و أدّيت ما عليك فكن مطمئنًا."⁽²⁾

و مع ظهور السلسلة الثانية من البصائر-بعد الحرب العالمية الثانية- شقّ الأدب الجزائري طريقه نحو النهضة الحقيقية، و بدأ التفاعل الفني على أيدي أدباء مجدّدين من أمثال عبد الوهّاب بن منصور و أحمد رضا حوحو و الأمين بوشوشي و أحمد بن ذياب و محمّد الصالح رمضان و أحمد بن عاشور و غيرهم. هؤلاء أخذوا يمكنون للشّورة عن طريق شحذ الأفكار و النفوس و بعث الهمم، فساروا على درب سابقهم من الأدباء المصلحين حيث ركّزوا في أعمالهم على الواقع

¹ - المرجع السابق-ص93.

² - رمضان حمّود-بذور الحياة-ج1-الجزائر-1928-ص11.

و صوروا قضاياها، فتحرّر بذلك الخطاب الأدبي من بقايا مظاهر الصنعة و أخذ
ينهج منهج السّهولة و اليسر و الوضوح، ممّا ساعد على ازدهار العمليّة الأدبية
و ظهور فنون جديدة كالمقالة و القصّة و المسرحية و الرواية. على أنّ ثمة حقيقة لا
يمكننا إنكارها أو تجاهلها و هي أنّ البصائر بسلسلتها قد واكبت التّهضة الأدبية
بل قد لا يجانبنا الصّواب إذا اعتبرناها أحد الأسباب الرّئيسة في تلك التّهضة، فعلى
صفحاتها أشرق نور الأدب الرّاقى و في طياتها عرف ازدهارا كبيرا لم يعهده من
قبل، و هي تمثّل مرحلة النضج في استكمال أدوات الكتابة و إن لم يكن همّ كتابها
الاعتناء بالتّاحية الجمالية بقدر ما كان يهدف إلى نقد الواقع و العمل على تغييره إذ
"لم يعد الأدب يفهم كما كان يفهم في العهود الماضية بأنّه تنميق كلمات منظومة
أو منثورة، و لو كانت خالية من كلّ معنى، مجردة من أيّ روح، رامية إلى غير ما
هدف، أو أنّه أداة لهو و لعب لا يشتغل بها إلاّ العاطلون و الماجنون، بل إنّ للأدب
اليوم معنى أسمى وأخطر من ذلك كلّّه، فهو تصوير حياة الفرد و المجتمع و تعبير
عمّا يختلج في النّفس الإنسانية من الأمانى و المطامح و ما ينتابها من المآسى و الآلام
و قيّارة تتغنّى بما أبدع الخالق الحكيم في هذا العالم من مظاهر الجمال و الجلال.
و تحذو بالناس إلى المثل العليا و المآثر الماجدة على هدى و بصيرة..."⁽¹⁾ فالأدب
في نظر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رسالة و الأديب رسول هداية لا بدّ أن

¹ - البصائر-س1-ع90-1949-وينظر الشيخ عبد الرحمن شيبان-حقائق و أباطيل-مرجع سابق-ص40.

يدعو و يبلغ حتى يصل بأتمته إلى أوج الكرامة و الكمال⁽¹⁾، و لن يكون ذلك إلا إذا كان الأدب صورة تعكس كل ما يدور حولها و كان الأديب مصورا حاذقا ينقل واقع أمته بمآسيه و آلامه. و مهمة الأديب لا تتوقف عند حد تصوير الواقع و نقله فحسب و إنما تتعداها إلى العمل على تغييره لبلوغ المثل العليا فقيام الأديب روح قويّة، مفعمة بحبّ الخير و الجمال، طلعة إلى المجد، مغرمة بالمثل العليا، تهيم به و تحببها للناس حتى يعتنقوها فيسعدوا، و نفس كبيرة تترفع عن الدنّيا و تستصغر البلايا، و تستسهل كل صعب حتى تصيب الأهداف الشريفة، و قلب رحب يتسع لآلام الجماعات و آمالها، فيرثي للأولى، و يعرب عنها في آتات حزينّة ملتهبة... و نظرة صادقة قلما يخطئها التوفيق، و شعور خصب يجد فيتأثر، و يؤثر فيتدفق... و ثقافة حيّة غنيّة مكينة متماسكة أصلها ثابت و فرعها في السماء..."⁽²⁾

لكن إذا كان الأدب في نظر الجمعية يسعى لنقل الواقع و نقده فهل يكون ذلك على حساب الأسلوب و جماليّاته؟ ممّا لا شكّ فيه أنّ كتاب البصائر كانوا "يعزفون عن التوجيه المباشر الثقيل على النفس إلى الطريقة الأدبية المحضّة التي تسخر الكلمة المعبرة الجميلة للبحث عن سعادة الإنسان، أو تصوير انفعالاته الباطنة بما فيها من أمل و ألام، و حبّ و كره و سعادة و شقاء..."⁽³⁾ على أنّ الكتاب

¹ - المرجع السابق-ص45.

² - البصائر-س2-ع19-ص2-أحمد بن ذياب-"من الأديب".

³ - عبد الملك مرتاض-فنون النشر الأدبي في الجزائر-مرجع سابق-ص65.

الجزائريين لم يشتغلوا بالأدب البحت و لم يحترفوه وحده "بل إن معظم هؤلاء الكتاب كانوا معلّمين في المدارس العربية الحرّة، واقفين جهودهم الأدبية على التدريس و توجيه الناشئة، كما كانوا يتفرغون للوعظ و الإرشاد و التعليم الديني، فينتقلون فجأة من الأدب إلى الدين و من مجال الخيال الرّحّب الخالق و الإبداع الخصب الطّافح، إلى مجال الإرشاد الديني المحض بما فيه من وقار و تزمّت." (1) ذلك لأن هؤلاء الكتاب كانوا ينتمون إلى الحركة الإصلاحية التي كانت تعول عليهم في تربية النّشء و تغيير المفاهيم و تنوير الأفكار، و وعظ العوام و إرشادهم إلى سبيل الخير.

على أنّ المنحى الأدبي أخذ يظهر بصورة جليّة في أعقاب الحرب العالمية الثانية حين كثرت الصّحف العربيّة بشكل سمح للأدب أن يزدهر و يصبح عنصر قوّة و ينبوع جمال في الثّقافة الجزائرية المعاصرة. و تظلّ البصائر من أهمّ الصحف التي وجد فيها الأدب مرتعا خصبا لاسيما و أنّها كانت تنتقي الأسلوب الرّاقى الأنيق البعيد عن الإسفاف و الاضطراب و السّطحية، فكانت بذلك صحيفة راقية في الألفاظ و المعاني و الأساليب. (2) و قد تمكّنت -و إن كانت في الأصل إصلاحية- من الارتقاء لمستويات عالية من فنّ القول. أشار إلى ذلك الشّيخ إبراهيمي في معرض حديثه عن البصائر حين قال "للّبصائر طرفان: أعلى و هو معرض العربيّة الرّاقية في

¹ - المرجع السابق -ص104.

² - عبد الملك مرتاض-نمضة الأدب المعاصر-مرجع سابق-ص113.

الألفاظ و المعاني و الأساليب، و هو السّوق الذي تجلب إليه كرائم اللّغة من مأنوس صيّره الاستعمال فصيحاً، و غريب يصيّره الاستعمال مأنوساً. و هو مجلى الفصاحة و البلاغة في نطها العالى، و هو أيضا التّمودج الذي لو احتذاه النّاشئون من أبنائنا الكتّاب لفحلت أساليبهم و استحكمت ملكاتهم، مع إتقان القواعد، و وفرة المحفوظ. و لهذا الطّرف رجاله المعدّدون، و هو نمط إعجاب أدباء الشّرق بهذه الجريدة. و طرف أدنى و هو ما ينحطّ عن تلك المنزلة، و لا يصل إلى درجة سفاف. و بين الطّرفين أوساط و رتب تعلو و تنزل و هي مضطرب واسع يتقلّب فيه كتّابنا، من سابق إلى الغاية مستشرف لبلوغها، و مقصّر عن ذلك." (1)

فالبصائر و هي تعالج قضايا الأمة التفتت إلى "الإصلاح الفنّي" أيضا إذ عملت على أن تنتقي الأساليب الرّاقية و الألفاظ السّلسة و المعاني الأنيقة حتّى أصبح "البيان العربي شعارها" و أصبح بذلك أسلوبها "من أقوى و أشرف الأساليب الّتي ظهرت في الجزائر منذ عرفت الصّحافة في الجزائر." (2)

و كما كان للبصائر اليد الطولى في ارتقاء المستوى الفنّي للأدب الجزائري، كان لها أيضا الفضل الكبير في ظهور أنواع أدبية جديدة كان في مقدّمها المقالة الأدبية.

¹ - البصائر-س2-ع86-ص5.

² - البصائر-س1-ع3-فرحات الدّراجي-البيان العربي شعار البصائر.

I. الخصائص الفنية للمقالة الأدبية:

يرتبط ظهور المقالة الأدبية في الأدب الجزائري بظهور الصحافة الوطنية، فعلى صفحاتها ترعرعت و في أحضانها نمت أركانها، و فيها وجد المدعون الجزائريون فسحة لنشر أفكارهم و آرائهم، على الرغم مما كانت تتعرض له الصحف من اضطهاد و حجر و مصادرة و تنكيل بكتّابها و المشرفين عليها.

فالمقالة تعدّ الأداة التعبيرية الأولى التي استعملها المثقفون على اختلاف مشاربهم و اتجاهاتهم الأدبية، فكانت بذلك الصلة الوثيقة التي ربطت بين الطليعة المثقفة و الطبقة الشعبية.⁽¹⁾ و كان أدب المقالة يدور في فلك الإصلاح و السياسة و الدّفاع عن مصالح الشعب و المطالبة بها، و يؤكّد في مضمونه معنى أساسيا - يمثّل جوهر المعركة الإصلاحية - و ذلك بالدّفاع عن الإسلام و اللّغة العربية والشّخصية الوطنية و ترسيخ هذه المقوّمات في نفوس الجزائريين. و هكذا يعود الفضل في ميلاد المقال الأدبي بالدّرجة الأولى إلى الصحافة الإصلاحية التي احتضنت تلك المقالات و أحاطتها بالرّعاية و الإذاعة متحدّية بطش الاستعمار و ضرباته، و "إذا كان النّاس يطلقون على الصّحافة اسم السّلطة الرّابعة في الدّولة لما لها من تأثير في تكوين الشّعوب، فإننا نستطيع القول بأنّ الصّحافة الإصلاحية في الجزائر - وهي تحت سمع الاستعمار و بصره- يصحّ أن يطلق عليها اسم السّلطة الأولى لما

¹ - ينظر محمّد عبّاس-البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص135

كان لها من آثار مباشرة في توجيه الشعب الجزائري و تثقيفه و إعداده للمعركة الفاصلة. "(1)

و على الرغم من تعدد موضوعات المقالة الأدبية و تشعبها إلا أنها ظلت تعالج قضية الجزائر بكل أبعادها التاريخية و السياسية و الاجتماعية و الثقافية و الحضارية.

و قد تضافرت عوامل مختلفة ساهمت في نشأة المقالة الأدبية التي أصبحت تضاهي

أرقى المقالات الأدبية في البلاد العربية لاسيما بعد انتشار الصحافة العربية و احتدام

الصراع الفكري بين المثقفين، حيث ظهرت نخبة من الكُتاب أثرت الحركة الأدبية

عامّة و فنّ المقال على وجه الخصوص، و هي تعبّر- في هذا و ذاك- عن آرائها

و مواقفها بلغة فصيحة جزلة و قويّة و أسلوب أنيق رشيق "و كانت صحف

الاتجاه الإصلاحي خاصّة لا تنشر من المقالات إلا ما استوت فيها عربية قائمة

على احترام القواعد التحوية، مستكملة لأسباب الفصاحة. "(2) و بهذا يمكننا أن

نزعّم جازمين أنّ المقال الأدبي إنّما نشأ في أحضان الحركة الإصلاحية "التي كان

كتّابها يصدرون عن رؤية دينية إصلاحية و يفعلون بما يكتبون و يعبرون عن

مشاعرهم و أحاسيسهم تجاه المجتمع و الحياة... "(3) و لنا في الأسماء التي وردت في

1 - محمّد ناصر-المقالة الصحفية-مرجع سابق-ص6.

2 - البصائر-ع165-1939-ص8.

3 - عبد الله ركيبي-تطوّر النثر الجزائري-مرجع سابق-ص133.

أعدت الصحافة المختلفة مرارا وتكرارا و تعاقبت تعاقب الصحف⁽¹⁾ خير دليل على ما نذهب إليه. فالشهاب و البصائر و قلبها السنة و الصراط و الشريعة و غيرها من الصحف التي كانت من صنع جمعية العلماء، و مصلحين آخرين سجّلت أسماء لامعة من أمثال ابن باديس و الإبراهيمي و محمد السعيد الزاهري و أحمد المدني و محمد العابد الجلاي و الطيب العقبي و أبو اليقظان و أحمد رضا حوحو و غيرهم "ممن انتعشت المقالة الأدبية بفعل أعلامهم، و نتق قرائحهم و بعد همهم في إحياء العربية و بعث الأدب في هذه الربوع."⁽²⁾ و كان كتاب تلك الفترة ملتزمين بالقضايا الوطنية التي تثيرها الأحزاب و الهيئات الإصلاحية و الصوفية و الدينية في الجزائر، كلّ يعبر عن آرائه و مواقفه المختلفة اختلافا مشاربهم، و قد "نشأ عن الصراع الفكري حركة أدبية خصبة في الجزائر فظهرت المقالات ذات النفس الطويل و الأسلوب الأنيق و التحليل المنطقي العميق..."⁽³⁾، تنوعت المقالة الأدبية و ازدهرت بفعل ما تحمله في طياتها من أفكار متضاربة و متباينة بأساليب لا تقلّ تباينا و اختلافا، ف "لقد أتيح للنشر العربي في الجزائر أن يفيد من هذا الصراع الحادّ فائدة ما كانت لتقع له، فيما لو ظلّ السكون الفكري قائما و الاتفاق في الرأي سائدا. إنّ أجمل المقالات الأدبية و أنقاهها أسلوبا و أحرّها

¹ - نشير هنا إلى تعقب المستعمر للصحف و العمل على تعطيلها مباشرة عقب إنشائها.

² - عبد الملك مرتاض- فنون النشر الأدبي في الجزائر-ص87.

³ - المرجع سابق-ص88.

عاطفة و أقواها حجّة و أوضّحها حجّة نتجت عن هذا الصّراع الفكري الضيق.⁽¹⁾ و هكذا عرفت بداية العشرينيات من القرن الماضي كتاباً مرموقين يعدّ بعضهم في طليعة كتّاب العربية في العصر الحديث من أمثال الشّيخ البشير الإبراهيمي الذي ملأ الجزائر بمقالاته الأدبية ذات الأسلوب الأنيق.

تمثّل مقالات الإبراهيمي نموذج المقال الأدبي الإصلاحي بأجلى صورته، فهو يجمع بين العناية بالصّيغة و بين التّعبير عن العاطفة و الشعور المتقد و هو يعبر عن الفكرة الإصلاحية في أسلوب أدبي و صور بيانية تنم عن ثقافة عربية متنوّعة تنوع منابعها و تعدّدها، ما أهله أن يكون في طليعة كتّاب البصائر البارعين" و هو بذلك ينبغي أن يعدّ أكبر كاتب عرفته البصائر...⁽²⁾ تناولت مقالات الإبراهيمي قضايا مختلفة -أشرنا إلى بعضها في الفصل السابق- و قد مثلت هذه القضايا، سواء منها السياسية أم الاجتماعية أم الفكرية، مدار كتاباته بل حياته كلّها، و هو ما يلزمنا أن نتحدّث عن أوّل ميزة من المميّزات التي طبعت أدبه تلك هي الالتزام.

11. الالتزام في مقالات الإبراهيمي:

عايش الإبراهيمي في أدبه أحداث مجتمعه و تفاعل معها، و هو حين يتناول قضية الجزائر يتناولها وسط ظروفها القاسية و يعرضها على حقيقتها و يفسّر

¹ - المرجع السابق -ص89.

² - المرجع نفسه -ص90.

أبعادها وعضلاتها.⁽¹⁾ "و يظهر الإبراهيمي- في حقيقة ناصعة-أديبا ذابا عن حوض أمته يخدم استجابتها و مآربها و متطلباتها بتفاعل مستمر، و يظهر أيضا أسيرا لدواعي الإحساس بالمسؤولية تجاه الكلمة الثورية و الانفعال بها، ملتصقا لأسباب الثورة وإرهاصاتها، و أصبحت هذه الدواعي و الأسباب قضاء و قدرا عليه وحتما محتوما..."⁽²⁾ ألزم الإبراهيمي نفسه بالذود عن حياض أمته، و عمل على معالجة قضاياها السياسية و الاجتماعية⁽³⁾ فكانت مقالاته سجلا صادقا نقل لنا مختلف الأحداث التاريخية "و لذلك تعتبر مقالاته هذه من الوجهة التاريخية ذات قيمة عظيمة و هي تعبر بصدق عن موقف الشعب الجزائري كله الذي قلّ المعبرون عنه في تلك الفترة..."⁽⁴⁾ و كان الإبراهيمي يدرك تمام الإدراك جسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه و أقرانه و يعي خطورة السلاح الذي وهبه إياه الله، يقول "ألا إن فرسان الكلام و الأفلام كفرسان التّزال و العراك في كثير من الخصائص، و كما أنّ الكميّ المعلم يضيق بالفاقة ذرعه، فتَهون عليه بيضته و درعه، و هيهات أن يَهون عليه سيفه و رمحه، لأنّ وظيفة البيضة و الدرع أن يحفظا على الكميّ في ساحة الرّوع مهجته، و هي أهون مفقود في تلك الساعة. أمّا وظيفة السّيف و الرّمح فهي الإنكاء في العدو، و الإنكاء في العدو هو الغاية التي تنتهي إليها

¹ - ينظر محمّد عباس-الإبراهيمي أديبا-مرجع سابق-ص341

² - المرجع نفسه-ص345.

³ - أحمد عزوز-المقالة الأدبية في الجزائر.1945-1953.مميزات خطاها الإقناعي-الجزائر-الشبكة العنكبوتية.

⁴ - عبد الملك مرتاض-فنون النثر الأدبي في الجزائر-مرجع سابق-ص141.

شجاعة الشّجاع، كذلك حملة الألسنة و الأقلام يجب أن يكونوا، ليحقّقوا التّشبيه الذي تواطأت عليه آداب الأمم، فلتأتهم المصائب من كلّ صوب، و لتنزل عليهم الضرورات من كلّ سماء، وليخرجوا من كلّ شيء إلاّ شيئين: القلم و اللّسان... إنّ بيع القلم و اللّسان أقبح من بيع الجندي لسلاحه...⁽¹⁾ كان الإبراهيمي رائد جمهوره و قائدا له في أدبه و فكره يعمل على إيقاظ الشّعور الجمعي في أمّته و شعبه، و يستمدّ تجربته من الواقع يصدر عنه و يورد إليه⁽²⁾، فهو متّصل اتّصالا وثيقا بالمجتمع، و مطّلع على إيجابياته وسلبيّاته و كذا المشكلات المحيطة به. و أوّل تلك المشكلات، مشكلة الاستعمار، المحور الرّئيس الذي تتحرّك حوله سائر الانحرافات في شتى الميادين من فقر و جهل و انحلال خلقي و مضايقة الدّين و مطاردة اللّغة... و التي تهدف أوّلا و أخيرا إلى طمس الهويّة العربيّة الإسلاميّة للشّعب الجزائري "...قولوا للذين يريدون طمس التّاريخ، و محو الخصائص التّسببية و المعاني الإرثيّة: اطمسوا ما شئتم ممّا سطرته الأقلام في الكتب، أمّا ما كتبه يد الله في النفوس فمحال أن تطمسوه و لأتم أعجز من ذلك، و لا كرامة، و إنّ نبض عرق واحد بخصيصة دموية ليضيع عليكم جهد العقول و السّنين..."⁽³⁾ يتحدّى الشّيخ الإبراهيمي أولئك الذين يريدون طمس الهويّة الجزائريّة المسلمة من استعمار

¹ - البصائر-س2-ع1-1947-ص9.

² - محمّد بن سميّة-أسس مشروع النهضة عند الإمام ابن باديس-الجزائر-منشورات المجلس الإسلامي الأعلى-ج2-2007-ص285.

³ - البصائر-س2-ع118-ص2.

و أذنا به و يؤكّد أنّ ذلك أمرا بعيد المنال لأنّ ما كتبه الله في التّفوس لا يمكن لأحد أن يحوه. إنّ ثقة الإبراهيمي في قضاء الله و قدره لا تمنعه من أن يوجّه النصّح إلى شباب الأُمّة لاسيما الطّلبة منهم و يبصّرهم بالوضعية العامّة للأُمّة و المخاطر الاستعمارية التي تحيط بها في مقال له⁽¹⁾ أقام فيه البراهين الدّامغة و الحجج القويّة التي تثبت ضرورة اتّخاذ العلماء مرجعية للفصل في القضايا الكبرى لأنّ إسناد الأمر لغيرهم هو سبب بلايا الأُمّة.⁽²⁾

و المقال و إن كان إصلاحيا فإنّه يحمل أبعادا تاريخية، ذلك لأنّ الإبراهيمي كان دائم الرّبط بين حاضر الأُمّة و ماضيها، يستلهم من الأخير العبر و الدّروس ليصلح الآفات التي استشرت في المجتمع الجزائري و التي يردّها إلى الاستعمار في غير ما مناسبة، فها هو في ذكرى مجازر الثامن ماي يواجه الاحتلال مرّة أخرى "اثنان قد خلقا لمشأمة: الاستعمار و الحرب، و لحكمة ما كانا سليلي أبوة، لا يتمّ أولهما إلّا بثنائهما، و لا يكون ثانيهما إلّا وسيلة أولهما، وقد تلاقت يدهما الآثمتان في هذا اليوم، في هذا الوطن. هذا مودع إلى ميعاد فقعة السّلاح تحيته، و ذلك مززع أن يقيم إلى غير ميعاد، فجتث القتلى من هذه الأُمّة ضحيه."⁽³⁾

¹ - نجد ذلك في مقاله "إلى أبنائي الطلبة"-عيون البصائر-ص215.

² - عبد الحميد بوزوينة-بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-1988-ص12.

³ - عيون البصائر-ص361.

و الإبراهيمي و هو يصف شؤم الاستعمار على الإنسانية يستخدم العبارات و الأساليب التي من شأنها أن توقظ النفوس و تبعث الهمم لتثور على المساوى الاجتماعية من جهة و مساوى الاستعمار و مخلفاته من جهة ثانية "يا يوم ! لله دماء بريئة أريقت فيك، و لله أعراض طاهرة انتهكت فيك، و لله أموال محترمة استبيحت فيك، و لله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك...يا يوم! لك في نفوسنا السمّة التي لا تمحى، و الذكرى التي لا تنسى، فكن من آية سنة شئت فأنت يوم 08 مايو وكفى، و كلّ ما لك علينا من دين أن نحبي ذكراك و كلّ ما علينا لك من واجب أن ندوّن تاريخك في الطروس لئلاّ يمسحه التسيان من النفوس."⁽¹⁾

و عموما يستحيل علينا حصر المقالات التي تبرز مدى التزام الإبراهيمي بقضايا أمته، ذلك لأنّه عاش بها و لها، و أوقف حياته و أدبه عليها. و حسبنا أن نقول "إنّ أدب الإبراهيمي لا يحتاج إلى تحليل و لا إلى مناقشة من أجل الكشف عن التزامه لأنّه أدب أقلّ ما يقال عنه أنّه أدب تتوفر فيه ضرورة احتكاك الأديب بمشكلات عصره و قضاياها المختلفة."⁽²⁾

احتكّ الشيخ بمشاكل قومه و عمل بكلّ ما أوتي من علم و حبّ للوطن و شجاعة و إقدام على تغيير أوضاعه المزرية تمهيدا للخطوة الموالية، تلك هي الحرّية. و قد صوّب اهتمامه -شأنه في ذلك شأن دعاة الإصلاح- إلى فئة الشّباب إيماناً منه أنّ

¹ - عيون البصائر-ص264.

² - محمد عباس-البشير الإبراهيمي أديبا- مرجع سابق-ص337.

"الشباب في كل أمة هم الدم الجديد الضامن لحياتها و استمرار وجودها، و هم الامتداد الصحيح لتاريخها، و هم الورثة الحافظون لمآثرها، و هم المصححون لأغلاطها و أوضاعها المنحرفة، و هم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال."⁽¹⁾ و لآتهم كذلك يخصهم الشيخ بمقال⁽²⁾ يسطر فيه الخطوط العريضة التي تجعلهم إن هم التزموا بها، أهلا لحمل الأمانة "أتمثله متساميا إلى معالي الحياة عرييد الشباب في طلبها، طاغيا عن القيود العائقة دونها، جامعا عن الأعنة الكابحة في ميدانها... أتمثله مقداما على العظام في غير تهوّر، محجما عن الصغائر في غير جبن، مقدرا موقع الرجل قبل الخطو، جاعلا أوّل الفكر آخر العمل.

أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كلّ عربيّ أخا له أخوة الدّم و كلّ مسلم أخا له أخوة الدّين، و كلّ بشر أخا له أخوة الإنسانيّة، ثمّ يعطي لكلّ أخوة حقّها فضلا و عدلا..."

هذه المقالة - و غيرها كثير - حملها الشيخ نصائح أبوية وجهها للشباب الذي يطمح إلى العيش الكريم، و ما ذلك إلاّ دليل آخر على التزام الكاتب بقضايا وطنه، و انشغاله بما يشغل أبناءه شبابا و شبيا، و قد لازمته هذه 'الخاصية' في جميع أطوار حياته، و كان يثبها عبر مقالاته بأسلوب جزل، قويّ، يغلب عليه التأنق اللفظي "و البيان السّاحر الذي لا تتعثّر كلماته، و لا تكبو عباراته، و لا تثقل جمالاته،

¹ - عيون البصائر-الشباب المحمّدي-ص210.

² - المصدر نفسه-الشباب الجزائري كما تمثله لي خواطري-ص578.

و إنما يمضي هينا لينا، عذبا سائغا فيه موسيقى لطيفة للأذن، وفيه حلاوة لذيذة للسان، وفيه متاع للعقل، وفيه منطق قويّ ينافح عن الحقّ.⁽¹⁾ و مردّ هذا الأسلوب الأدبي الرّاقى الذي حوّل الشّيخ الرّيادة في الأدب الجزائري الحديث إلى ارتباطه الوثيق بالموروث الأدبي القديم شعرا و نثرا، و تشبّثه بالقرآن الكريم و السنّة النبوية و الاقتباس من هذه المنابع الثّرة.

2I. الاقتباس عند الإبراهيمي:

إنّ شيوع ظاهرة الاقتباس في كتابات روّاد الإصلاح ليس أمرا غريبا في شيء بالنّظر لتمسّك هؤلاء بالقرآن الكريم و بالتراث الأدبي القديم و تعهّده قراءة و حفظا ممّا جعلهم يستلهمون تلك الآثار الأديبة فيقتبسون من أشهر نصوصها، و يقتبسون من آي القرآن الكريم. و لم يكن الإبراهيمي بدعا في الكتاب، حيث نلني مقالاته تعجّ بالاقتباسات، و قد حالفه التفوّق في هذه النّاحية أيضا حيث أحسن توظيفها و أحكم استخدامها فهو حين يقتبس اللفظة أو العبارة "ينزلها المنزلة الحسنة اللاتّقة بها و يصيرها ملكا له في تركيب جميل، و يبقى بذلك أسلوبه قويا متينا مبنيا لا يساوره ضعف و لا ارتخاء و لا فتور و لا نحول."⁽²⁾

¹ - عبد الملك مرتاض-نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-مرجع سابق-ص142.

² - محمد عباس-البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص331.

إنّ الباحث لا يكاد يقرأ مقالة من مقالاته دون أن يجد فيها اقتباس، و لنا في مقاله "اللغة العربية في الجزائر حرّة ليس لها ضرة"⁽¹⁾ مثالا حيّا على ما نذهب إليه، هذه الأخيرة تكتظّ بالعبارات المقتبسة من النصوص العربية القديمة. الحفيف، و الجناح الحفيف، المشاركة في جوّها للكفيف... و ما يسري على هذه المقالة ينطبق على مجموعة الخواطر الأدبية- التي اعتبرها بعض الدارسين ضربا من المقامات- فالمطلع على "سجع الكهان"⁽²⁾ يلحظ منذ الوهلة الأولى أثر آي القرآن فيها "لا أقسم بذات المودع في التجاويف و التلايف و بالمغيرات صبحا عليها التجافيف...". فالكاتب يستفتح المقامة بالقسم إقتداء ببعض سور القرآن الكريم، كما أنّه يقتبس عبارة "المغيرات صبحا" من قوله تعالى "وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا..."⁽³⁾. و قد كان اقتباسه من القرآن الكريم يضيف على أسلوبه جمالا و قوّة لاسيما و أنّه كان يحسن توظيف تلك الاقتباسات.⁽⁴⁾ فهو حين يصف حال الأمّة و ما تكابده من ويلات الحرب في قوله "أمّة كالأمم حلّت بها ويلات الحرب كما حلّت بغيرها، و ذاقت لباس الجوع و العري و الخوف..."⁽⁵⁾ يعود بنا لقوله تعالى "وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً

¹ - عيون البصائر-ص250.

² - عيون البصائر-ص593.

³ - سورة العاديات-آية3.

⁴ - ينظر البشير الإبراهيمي أدبيا-مرجع سابق-ص326.

⁵ - البصائر-س2-ع35-19948-ص2.

مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَعَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. ⁽¹⁾

و حين يقول مدحضا ادعاءات المحتل "كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء
المستعمرين الجبارين." ⁽²⁾ يذكرنا بقوله تعالى "مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا." ⁽³⁾ و لما يصف حال
الشمال الإفريقي في قوله "هذا الشمال قد أصبح أهله كأصحاب الشمال، في سموم
من الاستعمار وحميم و ظل من يحموم، لا بارد و لا كريم، أفسد الاستعمار
أخلاقهم، و وهن عزائمهم... و ضرب بينهم و بين العلم بسور أخلاقهم، و وهن
عزائمهم... و ضرب بينهم و بين العلم بسور ليس له باب." ⁽⁴⁾ يقتبس من قوله
تعالى "و أَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ وَ ظِلٍّ مِنْ
يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ." ⁽⁵⁾ و قوله -جل من قائل- "فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ
بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ." ⁽⁶⁾

و هو حين يعالج الواقع الذي أحدثه الاستعمار الأجنبي من تمزق و تفرق في
المجتمعات العربية و الإسلامية عامة و الجزائر بخاصة يقول " و قد انقضت تلك

¹ - سورة النحل-آية112.

² - البصائر-س2-ع111-1950-ص1.

³ -سورة الكهف-آية 05.

⁴ - المصدر السابق-ع12-1947-ص1.

⁵ - سورة الواقعة-آية 40- 45.

⁶ - سورة الحديد-آية13.

الفرق و انقراضها سبب جوهرى من أسباب التفرق، بل مات بموتها شاغل طالما شغل طائفة من خيرة علماء المسلمين ببعضهم و جعل بأسهم بينهم شديدا، و ألهاهم بما يضرّ عما ينفع." (1)

و في ذلك اقتباس واضح من قوله تعالى "لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ." (2)

و هو حين يقول "إنّ الأمم الضعيفة قد لدغت من جحر واحد مرتين فاحذروا الثالثة." (3) يقتبس من قول الرسول-صلى الله عليه وسلم "لا يلدغ المؤمن مرتين".

و لم يقتبس الإبراهيمي من القرآن الكريم و الحديث الشريف فحسب، بل استعان في كتاباته بالتصوّص الأدبية القديمة أيضا، من ذلك قوله "و من كان مثلك لم يضرّ عدوّا، و لم يسرّ صديقا." (4) فيه اقتباس من قول شبيب بن شيبية (ت 170هـ) في 170هـ) في خالد بن صفوان " ليس له صديق في السرّ و لا عدوّ في العلانية." (5) و من مظاهر الاقتباس أيضا ما نلاحظ جليا في قوله مستهلا العدد الأول من جريدة البصائر في سلسلتها سنة 1948 "اللهم باسمك نبتدى، و بهديك نهتدي، و بك يا

¹ -البشير الإبراهيمي-آثار الإبراهيمي-مصدر سابق-ج1-ص97.

² -سورة الحشر-آية 14.

³ - البصائر-ع121-1950-ص2.

⁴ - البصائر-س2-ع71-1948-ص3. يوجّه خطابه للزاهري.

⁵ - محمد بن عبد ربّه-العقد الفريد-تحقيق مفيد محمد قميحة-لبنان-دار الكتب العلمية ج2-ص270.

معين نسترشد و نستعين، و نسألك أن تكحل بنور الحق بصائرنا، و أن تجعل إلى رضاك مصائرنا، نحمدك على أن سدّدت في خدمة دينك خطواتنا، و ثبتّ على صراط الحقّ أقدمنا.¹ فالعبارات في النص قصيرة، و هي تذكرنا بأساليب القدماء في فن الكتابة، و في هذا تأثر واضح بالثقافة التراثية. وكذلك نلمح هذه الخصائص في قوله مناقشا قضية فصل الدين عن الدولة "قضية شاذة لا يجد الباحث فيها، و المؤرّخ لها نظير فيما تباشره حكومات الدّنيا من شؤون أممها، مؤمنها و ملحدتها، و لا يجد للقوانين التي تعرفها نظيرا في قوانين الدنيا، سماويها و وضعيها، و قد يستسيغ العاقل من أعمال الحكومات أن تراقب كلّ شيء حذرا و احتياطا، و لكنّه لا يستسيغ منها أن تتصرّف في كلّ شيء تحكّما و استبدادا.² كما نلاحظ تأثره بالأدب العربي القديم و الحديث النبوي الشريف في أسلوبه الخطابي الذي يماثل به أسلوب الخطباء البلغاء، يقول متحدّثا عن التعليم العربي "و أمّا بعد فهذه فصول بعض أجزائها حكاية صادقة، و بعضها تجريح مؤلم، و بعضها رأي صريح و بعضها نقد هادي..."⁽³⁾ و ممّا جاء في ردّه على الزاهري قوله "كتبت أيّها الشّيخ كثيرا من الباطل و سنكتب قليلا من الحقّ..."⁽⁴⁾ و يقول مخاطبا الشّباب "العلم! العلم! أيّها الشّباب! لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب ينفخ في ميزاب و لا داعية

¹ - عيون البصائر - مصدر سابق - ص 15.

² - المصدر نفسه - ص 177.

³ - البصائر - س 2 - ع 41 - 1948 - ص 1. "التعليم العربي و الحكومة."

⁴ - المصدر نفسه - س 2 - ع 61 - 1948 - ص 2.

انتخاب في الجامع صخّاب...⁽¹⁾ و يوجّه خطابه للعرب حين يتحدّث عن القضية الفلسطينية "أيها العرب! إنّ قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائرکم و هممکم و أموالکم و وحدتکم، و ليست فلسطين لعرب فلسطين و حدهم، و إنّما هي للعرب كلّهم..."⁽²⁾ و عموماً فإنّ الاقتباس عند الإبراهيمي من الكثرة بحيث لا يمكننا الإلمام به جميعاً و قد أشرنا سابقاً أنّه يكاد يطبع سائر كتاباته، ثمّ إنّ المقام هنا هنا ليس لحصر تلك الاقتباسات، و إنّما حسبنا أن نؤكد أنّ الظاهرة لم تنقل أسلوب الإبراهيمي و لم تفسده بالرغم من ملازمتها له، ذلك لأنّه كان يحسن توظيفها بما يضيف على أسلوبه القويّ مزيداً من القوّة و الرّصانة و الجمال.

3I. أسلوب الإبراهيمي:

جمع الإبراهيمي بين المعاني و الجمال، بين التعبير عن الحقائق و الأفكار و بين الجمال الأدبي في الصياغة، فسلاسة الأسلوب و جودته و ترابط العبارات يجعل النصّ متماسكاً، متناسقاً، و تجلّى ذلك في حسن التّخلّص و التّفريق في الانتقال من فكرة إلى أخرى و من جزء إلى آخر بحيث لا يشعر القارئ بفجوة في تسلسل الخطاب أو عدم الانسجام و التّكامل ممّا يكسبه وحدة عضوية ذات بعد نفسي مهمّ، و قدرة و فعالية في مجال التّأثير في المتلقّي.⁽³⁾ و الإبراهيمي يراعي في

¹ - المصدر السابق-س2-ع54-1948-ص2.

² -البصائر-س2-ع5-1947-ص3-"تصوير الفجعة".

³ - أحمد عزوز- المقالة الأدبية في الجزائر-مرجع سابق-ص5.

مقالاته - على اختلاف موضوعاتها- التّوليد في المعاني و الصّيغ، و يهتمّ بالمجاز اهتماما شديدا، و يقابل بين المعاني و الجمل⁽¹⁾، ما يجعل أسلوبه يجاري أسلوب البلغاء العرب و يضاهيه، كما يراعي طبيعة الموضوع الذي يتناوله، فتختلف بذلك اللهجة التي يستعملها، فتأرجح بين الأسلوب الحادّ و بين السّخرية و التّزعة التّعليمية⁽²⁾، إذ كان الإبراهيمي "يرمي خصمه بألفاظ حداد كأنّها شفرات ماضية أو شظايا محرقة."⁽³⁾ لاسيما و أنّ اللّغة كانت تسعفه بتعابير ملتبهة تذيب الحجر.⁽⁴⁾ يقول مخاطبا المحتلّ الغاصب "زيّن للاستعمار سوء عمله فطغى و بغى و كفر و عتا و أتى من الشرّ ما أتى .. إنّ الاستعمار لا يؤمن بالحالة حتّى نسأله الإنصاف لدينه الحقّ، و لكنّه يؤمن بالقوّة، فلنحدّره عواقب الاغترار."⁽⁴⁾ و اللهجة ذاتها يستعملها حين يحذّر من الاستعمار "يا هؤلاء، إنّ الاستعمار شيطان، و إنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا، و إنّ الاستعمار شرّ و محال أن يأتي الشرّ بالخير، و محال أن تجني من الشّوك العنب."⁽⁵⁾

يمثل هذا الأسلوب الحادّ كان الإبراهيمي يعالج قضايا أمته، أسلوب ينمّ عن إيمانه بالقضيّة و بمشروعيتها. و قد يصعد تلك اللهجة أحيانا حتّى تبلغ درجة السّخرية،

1 - عبد الله ركيبي-تطوّر النثر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص47.

2 - المرجع نفسه-ص5.

3 - عبك الملك مرتاض-فنون النثر الأدبي في الجزائر-مرجع سابق-ص378.

4 - عيون البصائر-ص181.

5 - المصدر نفسه-ص321.

هذه الأخيرة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالأسلوب الحاد و لا تختلف عنه كثيرا لأنّ استخدام سلاح السّخرية في الأدب، هو في حدّ ذاته ضرب من العنف بما تحمله من تهكّم معنوي شديد اللّذع ثقيل الوطاء عنيف الوقع.⁽¹⁾ و يعدّ مقال "عبد الحيّ الكتّاني"⁽²⁾ مثالا لما بلغت السّخرية عند الإبراهيمي، فقد أتبع فيه التّحليل الهزلي - على غرار الجاحظ- الذي كان يروّح على القارئ بمزجه الهزل بالجدّ- و قد اجتمع فيه من خفة الملاحظة و جمال النكتة ما جعل بعض الباحثين يصفونه بأنّه "من أجلّ ما كتب في هذا الفنّ إطلاقا من حيث الإمتاع الفنّي، و روعة التّعبير، و جمال النكتة، و خفة الملاحظة و براعة الخيال، و حسن الملاحظة و جمال النكتة ما جعل بعض الباحثين يصفونه بأنّه "من أجلّ ما كتب في هذا الفنّ إطلاقا من حيث الإمتاع الفنّي، و روعة التّعبير، و جمال النكتة، و خفة الملاحظة و براعة الخيال، و حسن الاستدلال."⁽³⁾ حلّ الإبراهيمي في مقالته تلك شخصيّة عبد الحيّ حتّى أنّ تحليله السّاخر طال الاسم أيضا "...و إنّ اسم صاحبنا لم يصدق فيه إلّا اسمه الأوّل! فهو عبد لعدّة أشياء جاءت بها الآثار، و جرت على ألسنة النّاس و لكن أملكها به الاستعمار...!" ثمّ يصف حياة الكتّاني الأدبية و العلمية فيقول "جريدة السّعادة لأنّها تطريه، و قرية بوسعادة لأنّها تؤويه، و نسخة من البخاري

¹ - أحمد عزوز-المقالة الأدبية في الجزائر-مرجع سابق-ص3.

² - المرجع نفسه-ص615.

³ - عبد الملك مرتاض-فنون النثر الأدبي في الجزائر-مرجع سابق-ص385.

بخطّ ابن سعادة لأنّ الخزانة الجليلة تحويه!" يسخر من الكتّاني كونه اغترّ بإطراء جريدة السّعادة - ذات الاتجاه الاستعماري- له، وأنّه استكان إلى بوسعادة التي عمّها الجهل لتضليل أهلها بأفكاره، ولأنّه جمع مكتبة ضخمة لكنّه لم يحسن استغلال كنوزها.

على أنّ عنصر السّخرية كان من الكثرة بحيث أصبح "خاصية قائمة لا تكاد تخطئ مقالة من مقالات الإبراهيمي التي كان يتهجم فيها على أيّ شخصية أو هيئة أو سلطة، بما في ذلك الحكومة الاستعمارية نفسها."⁽¹⁾ وهي سخرية تجتد طريقا سهلا إلى قلوب القراء و نفوسهم فيبلغ الكاتب هدفه التقويمي. و لبلوغ هذا الهدف استعان الإبراهيمي بالنزعة التّعليمية أيضا، لاسيما حين كان يعالج موضوعات تربوية و وظيفية، من ذلك مقاله الذي يقدّم فيه منهجا للمتعلّمين يوضّح فيه أنّه لا ينبغي الاكتفاء بالمحاضرات و حلق الدّروس لوحدها "لا تعتمدوا على حلق الدّروس وحدها، و اعتمدوا معها على حلق المذاكرة، إنّ المذاكرة لقاح العلم، فاشغلوا أوقاتكم حين تخرجون من الدّرس بالمذاكرة في ذلك الدّرس، إنّكم إن تفعلوا تفتح لكم أبواب من العلم، و تلح لكم آفاق واسعة من الفهم."⁽²⁾ على أنّ النزعة التّعليمية تطبع جلّ أعمال الإبراهيمي، ذلك لأنّه كان يحرص - و أقرانه

¹ - أحمد عزوز-المقالة الأدبية في الجزائر-مرجع سابق-ص5.

² -عيون البصائر-ص217.

المصلحين - على تربية الناشئة و توجيه المواطنين للخلاص من مظاهر التخلف و الجهل تمهيدا للانتفاضة التي تخلصهم من ربق الاستعمار.

و قد يضمّن الإبراهيمي مقالاته أسس و مبادئ علمية بحتة من نحو و صرف و بلاغة و غيرها، من ذلك قوله "في العربية تركيب الإسناد و الإسلام لا يرضى أن يسند إلى فرنسا الاستعمارية، و لا تسند هي إليه، و في العريّة التركيب الوصفي و الإسلام لا يقبل أن يوصف بالفرنسي و لا أن توصف فرنسا بالإسلامية." (1) فهو يذكر مصطلحات نحوية و صرفية لها بعد دلالي مغاير لمعناها الأصلي الذي تواضع النّحاة عليه و الصرفيون. و يقول أيضا "في لغة العرب لطائف عميقة الأثر، و إن كانت قريبة في النّظر منها التّسمية بالمصدر و الوصف به... من سنن العرب أنّهم يجعلون الاسم سمة للطفولة و الكنية عنوانا على الرّجولة." (2)

و الإبراهيمي يعتمد في مقالاته منهجا علميا منطقيًا، يظهر ذلك جليًا في أفكاره المرتّبة و المصنّفة تصنيفا منهجيًا. (3) و لنا في مقال "الرجال أعمال" (4) دليل على ما نذهب إليه، فهي تعكس المستوى الرّاقى الذي بلغته كتاباته. فقد افتتحها قبل أن يتحدّث عن 'ابن عاشور' (شيخ جامع الزيتونة) و ابن باديس (رئيس معهد قسنطينة) بمقدّمة يؤكّد فيها موضوعيّة البصائر و صدقها "البصائر ميزان حقّ،

1 - عيون البصائر - ص 399.

2 - المصدر نفسه - ص 615.

3 - ينظر عبد الملك مرتاض - فنون النثر الأدبي في الجزائر - مرجع سابق - ص 372.

4 - البصائر - س 2 - ع 44 - 1948 - ص 2.

و لسان صدق فهي تزن الرجال بأعمالهم الجليلة، و مواقفهم الشريفة، و تقوّمهم بالقيم الإيجابية، لا بالقيم السلبية... و البصائر لا تأبه للصّيت الطّائر في الجامع، و الاسم الدائر على الألسنة و الشهرة السّائرة في الآفاق، ما لم يكن من ورائها أعمال نافعة تشهد، و آثار صالحة تعهد و ثمرات طيبة تجنى... " و بعد تلك المقدّمة التي يتحدّث فيها عن البصائر، يخصّ القسم الأوّل من المقال للحديث عن الشّيخ ابن عاشور و أعماله، و نشاطه العلمي في الزيتونة، ليعرض بعدها لأعمال الشّيخ ابن باديس و جهوده الإصلاحية، و هو ما يثبت أنّ الإبراهيمي كان يسير في مقالاته وفق البناء الفنّي المتعارف عليه من مقدّمة و عرض و خاتمة حرصا منه على الإطار الفنّي العام للمقالة من حيث تصميم الأفكار و ترتيبها و عرضها.⁽¹⁾ و هو في هذا كلّه يميل إلى الزينة والتّأنق واستعمال الغريب، هذا الأخير الذي كان شائعا في أعماله، و مردّه- في نظره- ليس إلى الأعمال في حدّ ذاتها و لكن إلى تكاسل المتلقّين و ضعف زادهم من العربيّة و قلة تمرّسهم اللّغوي ممّا جعلهم يستصعبون السّهل و يستوحشون المألوف " و في هذه الفصول من لبوس الألفاظ ما يعده المتخلّفون من كتّابنا غريبا، و ما غرابته في أذواقهم إلّا كغرابة الأعلاق النّفيسة في أسواقهم."⁽²⁾ فالكاتب يعيب على أقرانه عدم اهتمامهم بالإرث الأدبي القديم و الإفادة منه، و هو يرمي إلى إحياء العربيّة و تقديم النّمودج الأدبي للكتّاب

¹ - ينظر عبد الملك مرتاض- فنون النثر الأدبي في الجزائر- مرجع سابق-ص372.

² - عيون البصائر-ص586.

لينسجوا على منواله، كما يهدف إلى التأثير فيهم بنقلهم إلى الجوِّ القديم الزاخر بقيمهم الدينية و أصولهم الحضارية.⁽¹⁾ و حتى يتخطوا هذه العقبة و يتخلصوا من تلك العراقيل، و تتحقّق بذلك أهدافه يسدي الإبراهيمي لأولئك 'الأدباء الكسالى' التصح ب "...أن لا يقنعوا من الأدب بما يلقاها منه في أيام الطلب في الكتب المقرّرة، فإنّ ذلك القدر النزر لا يرّبي ملكة، ولا يصقل ذهنًا، و لا يكون أديبًا إنّما يرّبي الملكات الأدبية الصّحيحة و يقومها الإدمان، إدمان القراءة المتأبّية المتدبّرة لكتب الأدب الحرّة، الأصيلة، و الاستكثار من حفظ الشّعر و اللّغات و الأمثال و عرفة مواردها و مضارها، و التّنبية لمواقع استعمالها من كلام البلغاء من شعراء و خطباء و كتّاب ثمّ ترويض القرائح و الألسنة و الأقلام على المحاذاة ذلك أدنى أن تستحكم الملكة و تنقاد القريحة فتجري الأقلام على مداد و يمدّها الفكر من تلك المعاني بأمداد، و توضع الكلمات في الجمل، في موضع اللآليء من العقد، و ما جاء حسن العقد منظوماً إلّا من حسنه منشورا، ثمّ تكون الحكم و الأمثال و النّكت كفواصل الجمال، في العقود الثّمان."⁽²⁾

و يغلب عنصر الغريب على الكثير من مقالات الإبراهيمي، نذكر على سبيل المثال مقاله "الشّباب الجزائري"، و "مناجاة مبتورة لدواعي الضّرورة"⁽³⁾، "الرجال

¹ - ينظر محمّد بن سمينة-أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد بن باديس-مرجع سابق-ص278.

² - عيون البصائر-ص665.

³ - المصدر نفسه ص584 و ص652.

أعمال"⁽¹⁾، و غيرها من المقالات، على أنّ الظاهرة أكثر ما تبرز في مجموعة "سجع الكهّان"⁽²⁾ التي بناها على الأسجاع و بعضا من الغريب و هو يرده - كما سبقت الإشارة إلى ابتعاد الأدباء عن اللغة و تقاعسهم عن الاستفادة من دررها، يشير إلى ذلك في مقدّمة المقال "هذه فصول إن لا تكن فيها روح الكاهن، ففيها من الكاهن سجعه، و إن لا يجد في جوانبها صدى الكهانة، ففيها من ذلك الصدى رجعه، فيها الزمزمة المفصحة، و التعمية المبصرة، و فيها التقرّيع و التّبكيّت، و فيها السّخرية و التّنكيّت، و فيها الإشارة اللّامحة، و فيها اللفظة الجامحة. و فيها العسل للأبرار و ما أقلّهم. و فيها اللّسع للفجّار، و ما أكثرهم. فعلّها تمزّ من أبناء العروبة جامدا، أو تؤزّ منهم حامدا، فنجني من ثمرة النّية، و نغيّر أواخر هذه الأسماء المنيّة. "إنّ المقالة تطّوح بالأسجاع و ألوان البديع و البيان، إضافة إلى الغريب، و ما ذلك إلاّ لأنّ صاحبها كان ذا صلة و ثقى بالتّراث الأدبي القديم، ساعدته في ذلك ذاكرته القويّة "إذا رأيت أسلوب الإبراهيمي قويّا جزلا و متينا رصينا، فبما حفظ للشّنفرى و امرئ القيس، و لمن جاء بعدهما من فحول الشّعراء عبر العصور الأدبية المختلفة، و إذا رأيتّه يجنح أحيانا إلى السّجع، فلا تحسبنّ ذلك منه تكلفا و تصنّعا و إنّما هو أمر طبيعي بالقياس إلى أديب ينبغي أن يكون قد حفظ أطرافا صالحة من

¹ - المصدر السابق ص625.

² - المصدر نفسه ص593.

نهج البلاغة و متون المقامات و أحاديث الأعراب." (1) إن حافظة الإبراهيمي القويّة، و موهبته الفذة و قدرته الكبيرة على الإبداع... عوامل تضافرت لتجعل منه أمير البيان العربي' بالجزائر، إذ "ليست الذاكرة وحدها هي التي تصنع الأسلوب لأنها لا تعدو أن تكون أداة مساعدة للأديب أو الشاعر على التزوّد بالثروة اللغوية من آثار غيره دون أن تكسبه فنية التعبير، و موهبة التناول للموضوعات المختلفة، و القدرة على الإبداع و التصوّر و الأداء الفني السليم". (2)

إن أسلوب الإبراهيمي ذاك، و معانيه المتألّقة، و بيانه السّاحر، و لغته الرّاقية تجعلك تتلقّى أعماله" و كأنك تقرأ من البيان فيضا، و من البلاغة عطرا، فكان حين يكتب كأنه كان يشتر من العربية شهدا، أو يمتح من البيان دفقا... فيفيض الغرب، و يطفح الكيل، و ينتشر العرف... وإذا ألفاظ العريية تجمل و تنضّر، و تتألق و تتألق، فتغتدي كالحسان حين يرتدّن بين الرياض، بكل ما فيهنّ من سحر الجمال، و إغراء الدلال، أو كالورود حين يتفتّحن، فيتوضّعن ما يتوضّعن بكل ما فيهنّ من الشذى العابق، و النشر الفائق... (3)

على أن تلك الخصائص الفنية لم تكن حكرا على الشيخ الإبراهيمي، بل تكاد تكون السمة الغالبة على سائر كتّاب البصائر، فالتصفّح لأعمدهما سرعان ما يلحظ

1 - عبد الملك مرتاض-نمضة الأدب العربي-مرجع سابق-ص127.

2 - محمد عباس- البشير الإبراهيمي أديبا-ص326.

3 عبد الملك مرتاض-أدب المقاومة الوطنية في الجزائر-مرجع سابق-ج2-ص261.

المنهج ذاته شكلا و مضمونا، ذلك لأنّ رئيسها لم يكن يقبل من الأعمال إلاّ جيّدها، "و لم يكن متساهلا مع كتّاب البصائر، فقد كان يغريهم بالتجويد في الأسلوب، و يزجي بهم أن يرتفعوا إلى المستوى العالي من فنّ القول..."⁽¹⁾ فالبصائر كانت شديدة الحرص على الأساليب الأنيقة الرّاقية، و لم تكن ترضى بالإسفاف في أسلوبها، و الاضطراب في لغتها، و السّطحية في أفكارها " بل هي صحيفة لمعرض العربية الرّاقية في الألفاظ و المعاني و الأساليب."⁽²⁾

و لم تكن الصّحيفة تحرص على جمال الأسلوب و أناقته و قوّة الألفاظ و جزالتها في المقال فحسب، بل كان ذلك مقياسها في سائر الألوان الأدبية الّتي احتضنتها صفاحتها و لا أدلّ على ذلك من أشعار محمّد العيد آل خليفة الّتي أشرنا إليها في الفصل السّابق.

II. الخصائص الفنيّة لشعر محمّد العيد:

لم يفصل محمّد العيد أبدا بين فنيّة الأدب و اجتماعيته، ذلك لأنّه كان صاحب قضيّة و صاحب رسالة نضالية إصلاحية ممّا أوجب عليه أن يوجّه شعره للنّهوض بتلك الرّسالة، فمهمّة الشّعر عنده هي الإقناع و الإمتاع. و المتصفّح لديوان الشّاعر أو تلك المقطّعات و القصائد الّتي كان يبيّثها عبر جريدة البصائر

¹ - المرجع السابق-ص112.

² - المرجع نفسه-113.

سيدرك حتما تنوع الموضوعات و اختلاف المستويات الفنيّة -جودة وضعفا- كما يلحظ أنّ الشاعِر " لم يقل الشعر لينال به حظوة لدى أيّ كان، و إنّما وهبه الله ملكة شعريّة، و شاهد أشياء أبهجتّه و أخرى أثارت حزنه و أدمت قلبه، و عانى من ويلات الاستعمار كسائر مواطنيه و رأى موطنه في مأزق، و دينه ينحرف به أقوام عن الجادة و كانت له تأملات إنسانية و أخرى شخصيّة فعبر عن ذلك كلّه في هذه القصائد العديدة... "(1) عبر الشاعِر عن تأملاته بلفظ سلس و عبارة قويّة عزّزها إيمان صادق و أحاسيس واضحة، و قد التزم بقضايا وطنه، و عاش آلام شعبه و عايشها فشعره أبرأ ما يكون من "أعذب الشعر أكذبه" ذلك لأنّه عبّر بكلّ إخلاص و عزم و ثبات عن قضايا وطنه فكان الالتزام أهمّ ميزة ميّزت شعره.

1.II. الالتزام في شعر محمد العيد

إذا كان الالتزام يعني أن يتقيّد الأدباء في أعمالهم الفنيّة بمبادئ خاصّة و أفكار معيّنة يلتزمون بالتعبير عنها و الدّعوة إليها، و أن يكون الأديب صاحب رسالة في التنبية و الشرح و التوجيه بحيث لا يسمح لشاعريّته أن تحيد عنها، أو أن يكون مشاركا لأصحاب تلك المبادئ و الدّعوات الإصلاحية في نشر دعواتهم و التمكن لها في القلوب و العقول(2)، فإنّ محمد العيد يعدّ صاحب الريادة و في

¹ - محمد مصايف-فصول في التقّد الأدبي الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص10.

² - ينظر بدوي طبانة-قضايا التقّد الأدبي-الرياض-دار المريخ للنشر-ط1-1984-ص15.

طليعة المتزمين، و إذا كان أصحاب مذهب الالتزام يؤكّدون على وجوب رعاية الأخلاق و الالتزام بعرض الموضوعات النّافعة و الأفكار الصّالحة التي تنمّي الفضائل الإنسانية و تحقّق غايات أخلاقية، فإنّ هذا هو مطلب الشّاعر و غايته، بل هو مطلب شعراء الإصلاح عموماً الذين كانوا دائمي الرّبط بين الشّعر و الأخلاق، فهم يتصوّرّون رسالة الشّاعر إصلاحية توجيهية و تعليمية، و قد يبلغ بهم الحدّ إلى اعتبار الشّاعر قدوة و مثالا يحتذى به لذا كان لزاماً عليه التمسّك بمكارم الأخلاق⁽¹⁾.

إنّ نظرة الشّعراء الإصلاحيين إلى الشّعر و ماهيته تأثّرت بالواقع السّياسي الاجتماعي المفروض، ممّا جعلهم يغلبون إلى المضمون على حساب الشّكل، فهم في إلحاحهم على دور الشّعر الإصلاحي و النّضالي لم ينظروا إلى الشّاعر على أنّه إنسان مبدع، له عواطفه الذاتيّة و إحساسه المرهف و هي نظرة كان لها الأثر الواضح في التّناج الشعري إذ حدّد مجالاته و أنقص من قيمته الفنّية⁽²⁾. و لعلّ محمّد العيد نفسه حاول أن يبرّر موقفهم ذلك حين صرّح قائلاً "إنّ المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معيّنة و لذا جاءت أشعارنا توجيهية تربويّة اجتماعيّة."⁽³⁾ إنّ الشّاعر بتعريفه هذا ماهية الشّعر أقرب ما يكون إلى المدرسة

¹ - المرجع السّابق-ص63.

² - ينظر محمّد ناصر-الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص70.

³ - محمّد بن سمينة-شخصيات لها تاريخ.محمّد العيد-مرجع سابق-ص59.

الواقعية، و إن لم نلمس في أشعاره المدارس الأدبية بمفهومها المعاصر و إنما نلمح شيئاً منها و هي عفوية نابعة من أعماق الشاعر الذي ساير الواقع الجزائري في جميع مناحيه و تفانى في خدمة قضية شعبه، و هو يؤمن كل الإيمان أن الشعر علاوة على أنه يسلي و يرفّه عن الخواطر "يهذب الأخلاق و يلطّف الشعور، و يعين الأمة في حياتها المادية و السياسية و الاجتماعية".⁽¹⁾

على أن ثمة مواضيع كبرى التزم الشاعر بالخوض فيها و نافح عنها و كافح من أجلها في طليعتها مقومات الأمة: الإسلام و العروبة، و هي كليات تغلب على نتاج الشاعر و تطبعه، إضافة إلى الأغراض التقليدية من وصف و حكمة و إخوانيات و مراثي. كما أن محمد العيد كان صاحب رسالة نضالية مما جعله يهتم بالموضوع على حساب الناحية الفنية و هو دأب جلّ الشعراء الذين واكبوا الثورة بحيث تسامحوا في الاحتكام إلى النظرة الفنية في القصيدة و شفيعهم في ذلك القالب الحماسي الذي ينسجم مع جوّ المارك.⁽²⁾

إنّ التزام الشاعر بالتعبير عن مجتمعه و بيئته و الحياة العامة التي عاشها حدّد من إمكاناته بحيث لم يستطع أن يطوّح بفتنه بعيداً، و ظلّ يسبح في آفاق محدودة، من ذلك أنّه لم يرق بلغته- و هي أنّه أنّه لم يرق بلغته- و هي العنصر الأساسي في أيّ

¹ - القول للعقاد نقلاً عن عمر الدسوقي- في الأدب الحديث- القاهرة- دار الفكر- ج2- ط8- 1973-ص256.

² - ينظر نور سليمان- الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير- مرجع سابق-ص402.

عمل أدبي - إلى مستوى اللغة الشعريّة بعد أن أثقل كاهلها بتلك التّيرة الخطائية و التّقريرية المباشرة. و ما يقال عن اللغة سار على عنصر التّصوير، فتصوير الشّاعر يكاد يقوم في معظمه على الصّور الشعريّة البسيطة التّقليدية يستمدّها تارة من الثقافة الإسلاميّة و يستوحىها طورا من التّراث الشّعري القديم. و كان الشّاعر يتخيّر ذلك القالب الفنّي مراعاة للغاية التي ينشدها من الشّعور و الجمهور الذي يتوجّه به إليه.

II.2. أثر القرآن في شعر محمّد العيد:

تأثّر محمّد العيد بكتاب الله العظيم و استلهمه في شعره معنى و مبنى، و الحقيقة أنّ العيد لم يكن بدعا في الشعراء من حيث تأثّره بالقرآن الكريم، بل إنّ شعراء الإصلاح كافّة كانوا يولّون وجوههم شطره إيماناً منهم أنّه كنز لا تفنى ذخائره و نفائسه، و أنّه محصّن من كلّ أسباب الضّعف و الابتذال:

كِتَابُ اللَّهِ كَنْزٌ لَا يَفْنَى وَ شَمْسٌ لَا يَغِيبُ لَهَا ضِيَاءٌ
هُدًى لِلْمُتَّقِينَ فَكُنْ تَقِيًّا وَ سَلِّهِ مِنَ الْهُدَايَةِ مَا تَشَاءُ⁽¹⁾

"كان اتّجاه زعماء الإصلاح للقرآن الكريم حتما مقضيا لأنّ فيه الدّواء لما يشتكون منه و الحلول للمشاكل التي يتخبّط فيها مجتمعاتهم و فيه الغنيّة عمّا يطلبونه من الأساليب و البيان الذي يساعدهم على الرّفّع من مستواهم الأدبي و زادهم

¹ -الديوان-ص538.

اللغوي...⁽¹⁾ فلم يكن القرآن معينا لزعماء الإصلاح في تقويم السلوك و تهذيب النفوس فحسب، بل كان أيضا منبعا يغرفون منه ما ينمي ثروتهم اللغوية و يكسبهم أساليب أدبية راقية، لذا فلا غرابة إن وجدنا الشّـيخ الإبراهيمي أوّل ما ينصح به المتعلّمين في تكوينهم اللّغوي و الأدبي هو الإفادة من القرآن الكريم حين يقول: "احفظوا كلّ ما يقوّي مادّتكم اللّغوية و ينمّي ثروتكم الفكرية و يغذي ملكتكم البيانية، و القرآن القرآن! تعاهدوه بالحفظ و أحيوه بالتلاوة و ربّوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللّغة و القواعد."⁽²⁾

و إذا كان هذا دأب الإصلاحيين و مذهبهم فليس غريبا على محمّد العيد أن يرى في لغة القرآن التّـمـوج الذي يحتذى به في روعته بيانه و سلاسته، فالمتصفّح لديوان الشّاعر يذهل أمام ذلك الكمّ الهائل من الاقتباسات القرآنية في شعره بحيث أنّ جلّ أشعاره تنمّ عن تأثره بالقرآن الكريم تعبيرا و تصويرا، و كثيرا ما كان يشدّه و يجلب انتباهه قصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام ما جعله يستمدّ منها صورته الشّعريّة أكثر من مرّة⁽³⁾، فحين أراد أن يعبر عن موقف النّاس من شخصه و من شعره تذكّر موقف إخوة يوسف منه حين ألقوه في الجبّ حسدا من عند أنفسهم:

وَ قَافِيَةٍ أَمَسَتْ تُمَثِّلُ يُوسُفًا بِمَا فِيهِ مِنْ يُمْنٍ وَ حُسْنِ صِفَاتِ

¹ - ينظر محمّد ناصر بوحمام -أثر القرآن في الشّعر الجزائري الحديث(1925-1976) - الجزائر - المطبعة العربية 1992 - ط1 - ج1 -ص28.

² - عيون البصائر-مصدر سابق-ص210.

³ - ينظر محمّد ناصر -الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص478.

خَلَعْتُ عَلَيْهَا مِنْ شُعُورِي مَطَارِفًا وَ كَلَّلْتُهَا مَا شِئْتُ مِنْ خَطَرَاتِي

وَقَوْمٌ رَمَوْهَا فِي غِيَابِ جِبِّهِمْ وَيَا كَثْرًا مَا فِي الْجُبِّ مِنْ حَشْرَاتٍ⁽¹⁾

كما شبّه واقع الشعب الجزائري المظلوم بواقع سيّدنا يوسف الذي اتّهم زورا و بطلانا من قبل امرأة العزيز و لم يكن لديه ما يثبت براءته سوى قميصه:

وَ طَنِي الَّذِي هَمُّوا بِهِ، وَ دَلِيلُهُ كَدَلِيلِ يُوسُفَ، وَ ثَوْبِهِ الْمَقْدُودِ

لَا يَأْمُنُوا صَبَّ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ أَغْنَى مِنْهُمْ وَ ثَمُودُ⁽²⁾

و بعدما تفاقمت الأوضاع في الجزائر و فشا الجوع فيها، رأى الشاعر في تلك السنين القاسية السنين السبع الشداد التي عرفها التاريخ:

فَشَا الْجُوعُ، وَ اشْتَدَّ عُسْرُ الْمَعَاشِ وَ عَادَتْ سِنُو يُوسُفَ الْعَابِرَةَ⁽³⁾

و الصورة ذاته تحضره حين ذاقت البلاد طعم الحرّية بعد طول معاناة أثناء حرب التحرير:

سِنُو يُوسُفَ السَّبْعِ الشَّدَادِ تَصَرَّمَتْ وَ أَعْقَبَهَا عَامُ الْإِغَاثَةِ وَ الْعَصْرِ⁽⁴⁾

و كما استخدم الشاعر قصّة يوسف في الكثير من أشعاره، فقد استخدم قصصا

1 - الديوان-ص11.

2 - الديوان-ص22.

3 - الديوان-ص250.

4 - الديوان-ص432. البيت مقتبس من قوله تعالى: "ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس و فيه يعصرون." الآية49-سورة يوسف.

أخرى كقصّة موسى عليه السّلام حين شبّه لهيب الثّورة و التفاف الشّعب حولها
بلهيب النّار المقدّسة التي أنارت له و لقومه طريق الهدى:

مَا شَكَّكْنَا وَ الشَّعْبُ فِيهَا كَلِيمٌ أَنْ نَارَ الأُورَاسِ مِنْ سَيِّنَاءِ
حَيْثُ صَارَ (طُور) التَّجَلِّي وَ صِرْنَا كُنَّا حَوْلَهَا مِنَ الكَلَمَاءِ⁽¹⁾

ظلّ الشّاعر يغرف من ذاك التّبع الصّافي و يستلهم معانيه الجلييلة، فها هو يشبّه
الشّيخ الإبراهيمي و مساهمته الفعّالة في نشر العلم بسيدنا عيسى -عليه السّلام-
الذي يردّ الرّوح إلى الموتى، أو بالبشير الذي حمل قميص يوسف و ألقاه على وجه
يعقوب فارتدّ بصيرا:

هَلْ كُنْتَ عِيسَى الَّذِي أَحْيَا الرُّفَاةَ بِمَا أَحْيَا، وَ بَدَلَ آجَالًا بِآجَالِ
أُمِّ البَشِيرِ الَّذِي أَلْقَى القَمِيصَ عَلَى يَعْقُوبَ، طِبًّا بِنُورٍ لِلأَسَى جَالِي⁽²⁾

و لم يتأثر الشّاعر بالقرآن فحسب بل لقد ظلّ يدعو إلى تنشئة الجيل على هديه:

هَلُمَّ بَنِي قَوْمِي إِلَى الذِّكْرِ نُمْلِهِ ففِي الذِّكْرِ أَخْلَاقٌ سَمَتْ وَ مَكَارِمِ
وَ لَسْتُ أَرَى القُرْآنَ إِلَّا مَنَاجِمًا أَتَدْرُونَ مَا تَحْوِي عَلَيْهِ المَنَاجِمِ
عَلَى الدِّينِ وَ الدُّنْيَا وَ عَلَيْهِمَا مَعَا شُهُودًا وَ غَيْبًا فَهُوَ بِالكُلِّ قَائِمِ
فَرَبُّوا عَلَيْهِ النَّاشِئِينَ تَلْحُ لَهُمْ بِهِ طُرُقٌ مَشْرُوعَةٌ وَ مَعَالِمِ⁽³⁾

¹ - الديوان -ص-436.

² - الديوان -ص-502.

³ - الديوان -ص-137.

3.II. اللغة الشعرية عند محمد العيد :

تميّزت اللغة الشعرية عند شعراء الإصلاح عامّة بالتقريرية و المباشرة و هذا راجع لمفهوم الشعراء لوظيفة الشعر و رسالته في الحياة، فلم يكن الشاعر الإصلاحي ينظر إلى اللغة من جانبها الجمالي قصد إثارة الإحساس الفني لدى المتلقي بقدر ما كان يهّمه إيصال الفكرة إليه، فالشعر عنده وسيلة من وسائل الإصلاح و التربية و التوجيه و ليس وسيلة للترفيه. إن هذه النظرة إلى وظيفة الشعر جعلت الشعراء يتعاملون مع الألفاظ على أنّها وسيلة للتعبير و ليست غاية في حدّ ذاتها.

و يغلب على لغة الشعر الإصلاحي البساطة و السهولة، فهي لا تخرج عن حدودها المعجمية بحيث لم تحمل على غير محلها على الرغم من ارتباط الشعراء الشديد بالتراث العربي القديم الذي تطغى عليه المعقّدة و الغريبة.

لم يجد محمد العيد عن منهج أقرانه في نظم الشعر، فقد كان همّه الأول أن يقنع الجمهور بأرائه لذلك كان يتوخّى الوضوح في ألفاظه و معانيه معتمدا البساطة المتناهية في الألفاظ و التراكيب، حتّى "إنك لتقرأ شعره فلا تحتاج معه إلى قاموس ينجدك في تفسير الغامض من الألفاظ و لا تحتاج إلى كدّ ذهني للوصول إلى ما

يريد من المعاني، فهو شعر قريب من النفس لبعده عن التكلّف من ناحيتي الأسلوب والمعنى.⁽¹⁾

إنّ الألفاظ التي كان يتداولها الشّاعر تدور في فلك الإصلاح والدّعوة إلى العلم ومقاومة الجهل و التمسك بالمقومات الأساسية للأمة من لغة و دين و قد استعان في سبيل ذلك بلغة واضحة مباشرة، و ساعدته طبيعة عمله كمعلّم و صحافي و إمام.

على أنّ هذا لا يعني أنّ لغة الشّاعر ضعيفة بل العكس هو الصّحيح، فقد كان يستعمل لغة متينة سليمة تملّحها عليه ثقافته القائمة على أسس عربية خالصة يأتي في مقدّماتها القرآن الكريم، و يليه التراث العربي القديم. و أسلوبه بسيط لا يبدو فيه التّألق و الجري وراء الزّخرفة اللفظية. على أنّ شعره يضمّ الكثير من صور التشبيه اقتداء بالشّعر القديم، كما اتّسمت أشعاره بالوضوح والسّطحية لأنّها تخضع للعقل لا للخيال.⁽²⁾

فالشّاعر كان يميل إلى التّعبير عن مشاعره بأقرب الطرق حتّى أنّه ليوشك أن ينحدر في ذلك إلى لغة النثر، فهو و إن استطاع أن يوفر لها السّلامة و الصّحة فإنّه لم يستطع أن يضمن لها ما تتطلّبه لغة الشعر من إيجاء و ظلال و جمال و مردّد هذا أن

¹ - سعد الله-شاعر الجزائر محمّد العيد-مرجع سابق-ص213.

² - ينظر محمّد ناصر-الشعر الجزائري الحديث.اتجاهاته و خصائصه الفتيّة(1925-1975) -لبنان دار الغرب الإسلامي-1985-ص432.

يكون الشاعر قد عمد إلى ذلك عمدا وهو يتوجّه بشعره إلى الشعب و من ثمّ كان لزاما عليه أن يوائم بين أسلوبه و بين من يتوجّه إليهم بجديته، فالغاية التبليغية عنده أسبق عن الغاية الجمالية.⁽¹⁾

إنّ مثل هذا الأسلوب يجعل الباحث أمام تساؤل ملحّ: كيف له أن يصنّف شعر محمد العيد، و هل هو تقليدي محض أم أنّه يحمل معنى الحداثة؟

و الحقيقة أنّ شعر محمد العيد ظلّ يتأرجح بين القديم و الجديد-علما أنّ الشاعر كان ميّالا إلى التقليد و المحافظة شأنه في ذلك شأن سائر شعراء مدرسة الإحياء - و نحن إذا نظرنا إلى الشاعر من خلال رؤيا تعادلية سوف لن نصنّفه كمجدّد بالمفهوم النقدي المعاصر، و لكن إن أخذنا بعين الاعتبار المحيط الذي عاش فيه و ما قدّمه الشاعر فإننا لا محالة سوف نجد أنّه تجاوز إلى حدّ بعيد كثيرا من جيله الشعري. و عموما فإنّ شعر العيد جاء في إطار كلاسيكي تقليدي، و كيف له أن يكون غير ذلك و هو يعيش في محيط يستحيل فيه أن يستفيد من إفرازات الثقافة المعاصرة بسبب الحواجز التي طوّق بها المحتلّ الأدباء و المفكّرين حتّى يجرّمهم من كلّ ما هو جديد فلم يجدوا ملاذا غير التراث القديم يتّخذون منه سلاحا يواجهون به الغزو بأنواعه لاسيما الغزو الثقافي.⁽¹⁾ و هكذا أصبحت فكرة الإحياء و الرجوع إلى الماضي هي هدف الشعراء و مبتغاهم، يقول الشيخ ابن باديس: "الشعر العربي

¹ - الثقافة و الثورة-مجلة-ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر-1984-ع11-رحلة في عالم محمد العيد الإنسان، الشاعر، الناثر-أحمد دوغان-ص4.

هو أصل ثروتنا الأدبية، و أصل بلاغتنا و مرجع شعرائنا في اللغة و البلاغة و الأساليب العربية فدرسه و الاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللسان

المبين...⁽¹⁾ كما نجد محمد العيد يوجّه الناشئة للإفادة من الأدب القديم فيقول:

إِنِّي أَرَى الْأَدَبَ الْجَدِيدَ كَمَا كَسَا حُلًّا تَرَفُّ بِحُسْنِهَا وَ بَرُودًا

فَتَعَهَّدَ الْأَدَبَ الْقَدِيمَ فَإِنَّهُ أَخْلَى مُحَاوَرَةً وَ أَصْلَبُ عُودًا⁽²⁾

و مع أنّ الشاعر كان شديد الصلّة بالتّموذج الفنّي القديم، إلّا أنّه تمكّن من تحرير شعره ممّا طغى على أسلوب الشعر العربي في عصر الانحطاط من ضعف و ركافة و تصنّع و جمود.⁽³⁾

و يمكننا القول إنّ التّجديد قليل لدى شعراء الإصلاح بوجه عام، فالبحور القديمة هي المعتمدة في الأغلب الأعمّ، و القصيدة تتحكّم فيها وحدة الوزن و القافية، فلا غرو أن نجد الطّابع التّقليدي يغلب على شعر العيد، ف" لو اخترنا شعره لوجدنا أكثره من الشعر التّقليدي و لاسيما من حيث الصّورة و طرق التّعبير، فتمسّكه بالقافية و التّصريح و الاقتباس و التّضمين و التّليغيز و تصيّد و طريقة تناول الموضوعات. كلّ هذه و غيرها جعلت شعره أقرب ما يكون إلى الشعر التّعليمي الغرق في التّقليد. و إذا تجاوزنا هذا إلى الأغراض نفسها وجدناها جميعا تقريبا من

¹ - محمد ناصر- الشعر الجزائري الحديث-مرجع سابق-ص428.

² - الديوان-ص413.

³ - ينظر محمّد بن سميّة-شخصيات لها تاريخ-محمد العيد آل خليفة-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1989-ص60.

الأغراض القديمة التي نظم فيها الشعراء العرب على اختلاف عصورهم.⁽¹⁾ على أن هذا لا يمنع من أن أشعار محمد العيد تصبّ في مجرى واحد و ترمي إلى أهداف واحدة تتمثل في الرغبة في معالجة الواقع و النهوض فكانت بذلك مضامين شعره جديدة، فالشاعر لم يكن يسعى إلى تحقيق غاية الإمتاع بقدر ما كان يهدف إلى خدمة مجتمعه سواء عن طريق الإصلاح أم عن طريق التحريض على حوض المعارك، من أجل هذا لم يخذ حذو القدامى في الاهتمام باللفظ أو اللغة الشعرية و إنما صبّ اهتمامه على الطريقة الأنجع لإيصال أفكاره، فكان أن اختار السهولة و البساطة لتبليغ رسالته الإصلاحية.

على أن البصائر التي احتضنت رواد المدرسة المحافظة في الجزائر، لم تلفظ أولئك الذين حاولوا التجديد في شتى الأنواع الأدبية، بل إننا ألفيناها قد احتوتهم وساهمت في نشر آرائهم و أفكارهم و لا أدلّ على ذلك من مقالات أحمد رضا حوحو الذي يعدّ رائد مدرسة التجديد في الجزائر.

III. الخصائص الفنية لأدب رضا حوحو:

لعلّ أول ما يلفت انتباه الباحث في مقالات رضا حوحو القصصية هو غلبة الطابع التقليدي عليها، بالرغم من أن حوحو كان دائم الدّعوة إلى

¹ - أبو القاسم سعد الله-شاعر الجزائر محمد العيد-مرجع سابق-ص235.

التّجديد⁽¹⁾. فقصصه أقرب ما تكون من الحكاية البسيطة بحيث يفتتحها بمقدّمة منفصلة عن النصّ القصصي ثمّ يبدأ بالسرد على لسان إحدى الشخصيات التي تقوم بدور الراوي و الشخصية المحورية في الوقت نفسه، فيما يكتفي المؤلّف بدور المستمع و المعلق على الأحداث.⁽²⁾

لكنّ الطّابع التقليدي الذي غلب على قصص رضا حوحو و أقرانه ممّن تناولوا هذا النوع الأدبي -سواء عن طريق المقالات القصصية أم القصّة الفنيّة- بدأ يتلاشى في أعقاب الحرب العالمية الثانية. فقد استطاع الأدباء التخلّص من تلك الطّريقة حين لجأوا إلى طرق موضوعات عدّة و قضايا متعدّدة ممّا نتج عنه وضوح شخصية الكاتب أكثر لأنّه يجري حوار مع شخصية إنسانية أو 'حمار' بطريقة مباشرة ممّا أدّى إلى اختفاء المقدّمة التي كانت تعدّ فيما سبق من أساسيات المقال القصصي.⁽³⁾

و قد ناقش رضا حوحو مع 'حماره' عديد القضايا الاجتماعية و الدّينية و السّياسية -كما أسلفنا الذكر- و انتقدها انتقادا لاذعا.⁽⁴⁾ فقد ألمح إلى السّياسة حين أجاب صاحبه (الحمار):

¹ - أبو القاسم سعد الله- تجارب في الأدب و الرحلة-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1983-ص118.

² - ينظر أحمد منور-قراءات في القصّة الجزائرية-مرجع سابق-ص33.

³ - عبد الله ركيبي-القصّة الجزائرية القصيرة-مرجع سابق-ص68.

⁴ - أنيسة بركات درار-أدب النضال في الجزائر-مرجع سابق-ص171.

" قلت: دعني من السياسة أيها الحمار السياسي، إنها لم تنضح بعد في بلادنا. و لا زالت تعتمد على المصالح الشخصية، و الحزابات الفردية، أكثر من اعتمادها على المبادئ و الأفكار، و المصلحة العامة، و أنا لا أريد أن ألطخ نفسي بأوحالها."

و تحدّث أيضا عن الدين:

— "لنتكلّم إذن في الدين.

— دين من؟

— الدين الإسلامي.

— أعلم ذلك، لكن دين الحكومة أم دين الشعب؟ الدين الرسمي، أم الدين

الحرّ؟

— عجبا، و هل لكم أديان عديدة؟

— دينان فقط، دين تشرف عليه الحكومة و يجرسه رجالها من موظفي المساجد

و الطّرق، و دين حرّ يعتقدّه الشعب و يتزعمه رجال الإصلاح فيه".

و يقف الكاتب الموقف ذاته حين ينصح صديقه الحمار بعدم الإقدام على إنشاء

مجلة 'صوت المسجد' الدينية بسبب إشراف حكومة لائكية على الدين الإسلامي

مّا يضطرّه للتخلّي عن مبادئه و الخضوع و الخنوع لتلك الحكومة.⁽¹⁾

كما تحاور مع صديقه حول قضية التعليم بنوعيه الرسمي و الحرّ:

¹ - البصائر - ع68-1949-ص6- "حمار الحكيم... و صوت المسجد."

"قلت: هناك التعليم الرسمي، و هو مبني على قاعدة فلسفية عميقة و غامضة في نفس الوقت، و هي تعلم لتجهل..."

إنّ مثل هذا الحوار ينمّ عن تشاؤم الكاتب الكبير في ظلّ غياب أهمّ مقومات الأمة أو محاولة مسخها من قبل المحتلّ. و هو حوار فيه الكثير من عناصر الخيال و الابتكار و الجرأة في نقد المشاكل، و فيه أيضا الأسلوب الخفيف، و السّخرية المرّة و التّهكّم الحادّ العنيف.⁽¹⁾

و ليس فيما تناوله الكاتب من مشكلات اجتماعية أو ظواهر نفسية جديد يذكر، لا في اكتشاف الظاهرة و لا في علاجها، و لكن الجديد هو عرض الكاتب لأفكاره، و تصويره لتلك الظواهر، فهو ينفذ ببصيرة ثاقبة إلى عيوب المجتمع و يقدر على تحديدها تحديدا واضحا، ثمّ لا يهدمها بالطريقة المباشرة التي تعتمد على التصحّح أو التحذير، و إنّما يشير إلى ضرورة علاجها عن طريق تجسيم العيوب و تضخيمها وإبرازها بوضعها في الصّورة التي تثير في النّفس التّهكّم و السّخرية. فأنت تراه يسخر من بقاء المرأة في البيت و عدم مشاركتها في الحياة فيقول:

– قلت: لدينا آلات للتّسلّ نحفظ بها في بيوتنا."⁽²⁾

فالكاتب يرمز لعدم مشاركة المرأة في أمور الحياة و يحثّها على التّخلّص من تلك العادات البالية التي تقيدّها و تحدّد دورها و تحصره في الإنجاب لا غير.

¹ – عبد الملك مرتاض-نّهضة الأدب العربي في الجزائر-مرجع سابق-ص164.

² – البصائر-ع64-س2-جانفي1949-ص7.

و هو و إن عاب على المرأة تلك القيود و التّقاليد الّتي تجعل منها مجرد 'آلة'، فقد رفض بالمقابل الزّواج من الأجنبيات، و تطرّق إلى الظّاهرة بطريقة تهكّمية لاذعة، و ذلك لما ينجرّ عنها من آثار سلبية على الوحدة الوطنية في المجتمع الجزائري⁽¹⁾:

"قال: أما يكفي هذا الانحلال الاجتماعي و الخلقي الّذي جرّه زواج بعض رجالكم من الأجنبيات حتّى أضيف إليه انحلالاً آخر في فصيلة الحمير؟

— قلت: كيف ذلك؟

— قال: زواحي من أتان أجنبية تخالفني في الجنس و العادات و التّفكير، فيه

خطورة كبيرة على أخلاقي و عاداتي و تفكيري." ⁽²⁾

هي سخرية هادفة استوحاها الكاتب من ظروف حياته الخاصّة و ظروف مجتمعه الجزائري الّذي كانت تسوده قيم و أفكار و نظم معيّنة حول المرأة و الدّين و السياسة، و من هنا فإنّ السّخرية في أدب حوحو تختلف عن سخرية غيره من الأدباء الّذين يهدفون أوّل ما يهدفون إلى الإمتاع و التّرويح. و هو بهذا يتفق و الأدباء الإصلاحيين - يتقدّمهم الشّيخ الإبراهيمي - في استخدامهم لهذا العنصر لأجل أهداف إصلاحية يحثّون من خلالها المجتمع و يحضّونه على تغيير الواقع المزري الّذي يزرع تحت وطأته.

¹ - عبد الله ركيبي-القصة الجزائرية القصيرة-مرجع سابق-ص69.

² - البصائر-ع70-1949-ص2-"حمار الحكيم و الزواج".

و إذا كان المقال القصصي قد سخر - شأنه شأن الأنواع الأدبية الأخرى - لخدمة المجتمع، و نقد أوضاعه الاجتماعية و السياسية و الفكرية، فإنّهُ سخر أيضا لخدمة الأدب. فقد كانت البصائر تضمّ الكثير من العناوين التي تعكس اهتمام الأدباء بهذا الجانب، مثال ذلك ما جاء في مقال الحفناوي "مع الأديب الكبير"⁽¹⁾ و "مع أدينا الكبير"⁽²⁾ و مقال أبي القاسم سعد الله "مع أديب الخلود"⁽³⁾ بالإضافة إلى مقالات رضا حوحو التي يعدّها البعض "مقدمة لانبثاق عهد جديد في إنتاجنا و نهضتنا الأدبية."⁽⁴⁾ يبدي حوحو رأيه حول الآداب و الفنون في حوارهِ مع صديقه الحمار حين يجيبه قائلا "الآداب و الفنون هي المقياس الصادق لأحوال الأمم، و هي الميزان الصحيح لقوّة إنسانيتها و شرف عاطفتها، و سموّ روحها، فهي ليست من الكماليات و ليست طلاء خارجيا كما يتوهم، بل إنّها أساس لا بدّ منه لرقّيّ الأمة و حفظ كيانها."⁽⁵⁾

و يحدّد رضا حوحو دور الكاتب في أمرين اثنين: الأوّل هو النهوض بالأدب، و الثّاني التّقويم الخلقّي و الاجتماعي.⁽⁶⁾ و هو يلحّ في غير ما مكان على دور

¹ - البصائر-1950.

² - البصائر-1952.

³ - البصائر-1953.

⁴ - البصائر-1953.

⁵ - البصائر-ع64-1949-ص7-"ساعة مع حمار الحكيم".

⁶ - البصائر-1949.

الأدب الحيوي نجد هذا في مقالات من مثل "الآداب و الفنون"⁽¹⁾، " الأدب العربي... هل ينقصه التوجيه."⁽²⁾، "استنطاق الشخصيات في الأدب القصصي"⁽³⁾ و"رسالة الأديب"⁽⁴⁾ وغيرها من المقالات التي حاول فيها توجيه الأدباء الوجهة الصحيحة التي تخدم قضايا الأمة و الأدب معا. و هو في موقفه هذا يؤمن كل الإيمان أن "الأديب هو الذي يستطيع أن يصل إلى أعماق النفوس فيحللها، و إلى أعماق الأشياء فيصورها، و هو الذي يجعل من أدبه لغة روحية يخاطب بها أرواح الغير، و يعبر بها تعبيرا صادقا عن مشاعره و تصوّراته دون أن يحسب حسابا لسخط هذا أو رضا ذلك."⁽⁵⁾

لقد وعى كُتّاب المقال القصصي أهمية الأدب "و ضرورة وجود القصّة فنّا و أداة لخدمة الثقافة العربية، و توجيه الجماهير لتحسّ واقعها الذي تعيش فيه و تفهّمه."⁽⁶⁾

ثمّ إنّ التزام الأدب بقضايا الأمة لا ينزع عنه أدبيته، و إنّما غاية ما في الأمر أنّه يجعل منه أدبا ملتزما ف " لا يضير نهضتنا الأدبية أن تسميز بيمينه الظاهرة الدّينية عليها فليس معنى وجود العنصر الدّيني أو الإصلاحي، أو التّوجيهي في هذا التّنتاج

¹ - البصائر-ع53-1948-ص2.

² - البصائر-ع65-1949-ص3.

³ - البصائر-ع66-1949-ص3.

⁴ - البصائر-ع221-1953-ص3.

⁵ - البصائر-ع55-1948-1949-ص7.

⁶ - عبد الله ركيبي-القصّة الجزائرية القصيرة-مرجع سابق-ص67.

الأدبي مما يجعلنا نعتقد أنّ هذا التّناج لا يتّسم بالروح الأدبي و ما ينبغي له...⁽¹⁾.
و إذا كان شيوع أشكال أدبية تخدم غاية و أهداف جمعية العلماء المسلمين
الجزائريين قد انخرّف بالكثير من الكتّاب عن وظيفتهم الفنّية ممّا صعّب تطوّر لغة
القصة القصيرة⁽²⁾، فإنّ هذه الأخيرة ما لبثت أن عرفت تطوّرًا قويًّا في أواخر
الأربعينيات و أوائل الخمسينيات بعدما وعى الكتّاب سمات القصة القصيرة من
تعبير عن موقف و تركيز و إيجاز و وحدة و اهتمام بالنهاية المعبرة.⁽³⁾

1.III. أسلوب رضا حوحو

ينفرد أسلوب رضا حوحو بعدّة خصائص فنّية تميّزه عن غيره من كتّاب
جيله نظرًا لاختلاف مصادر ثقافته الأدبية و تنوعها، و خفة روحه. فقد عالج
القضايا الاجتماعية و الأدبية و الفكرية بأسلوب خفيف رشيق تمثيلي غير مباشر
قائم على السخرية، فحديثه القصصي "شيق فيه كثير من عناصر الخيال و الابتكار
و الجرأة في نقد المشاكل التي كانت قائمة في الجزائر على عهد حوحو، كما يستميز
بالأسلوب الخفيف و السخرية المرّة، و الدّعابة الحلوة، و التهكّم الحاد العنيف."⁽⁴⁾

¹ - عبد الملك مرتاض-نمضة الأدب العربي المعاصر-مرجع سابق-ص12.

² - أحمد طالب-الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة (في الفترة ما بين 1931-1976).-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-1989-ص33.

³ -المرجع السابق-ص136.

⁴ - عبد الملك مرتاض-نمضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-مرجع سابق-ص164.

2.III. عناصر القصة القصيرة

أ- السخرية

للسخرية حظ كبير في كتابات حوحو، فقد وظّفها في التعبير عن حلجات نفسه، و شؤون الحياة المختلفة.⁽¹⁾ كما أنّ لها دور في هام عنده. فعدا عن المتعة الفنية التي تشيعها في النص، فإنها تقوم بدور انتقاد الأوضاع الاجتماعية و التقاليد الجامدة.⁽²⁾ "و لعلّ حوحو التجأ إلى هذه الطريقة ليتجنّب سخط المجتمع خاصة و أنّه هاجم كثيرا من التقاليد."⁽³⁾ و تبرز السخرية جليًا في مقالاته سواء تلك التي أشرنا إليها آنفا أم غيرها ممّا تناول فيه قضايا مختلفة، فهاهو يحدث حمار الحكيم الذي تعرّف عليه منذ اللحظة الأولى من رؤيته: "ومن يجهل حمارا فيلسوفا مثل حضرتك؟"⁽⁴⁾ ثمّ نجده يبيد نوعا من الاستغراب حين يطلعه على سبب زيارته: "استدعيت خصيصا لأعني في محطة الإذاعة الجزائرية.

قلت: تعني في الإذاعة؟ يا للعجب !

و ما وجه العجب فإنّ صوتي جميل. فهل تريد أن أسمعك شيئا مجّانا دون مقابل؟

¹ - أبو القاسم سعد الله- دراسات في الأدب الجزائري الحديث- مرجع سابق-ص98.

² - شريط أحمد شريط- تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة- مرجع سابق-ص86.

³ عبد الله ركيبي- القصة الجزائرية القصيرة- مرجع سابق-ص68.

⁴ - البصائر - ع225- أفريل 1953م-ص8.

قلت: لا، لا. لا عدمت برك وإحسانك، و لكن أليس صوتك هو الذي ذكره الله في القرآن؟

و قد وفق حوحو في استخدام عنصر السخرية، لاسيما و أنّها تكاد ترافق أعماله بأكملها "سخرية من فوقها سخرية من تحتها سخرية، فكأنّ هذا الرجل إنّما كان في هذه الحياة من أجل السخرية فحسب. وكلّ ذلك يدلّ على حرارة عاطفته، و صدق شعوره." (1)

فقد اتخذ منها وسيلة للتعبير عمّا يجيش في خاطره إزاء أوضاع الجزائر الدنيئة و السياسية و الاجتماعية، و حتّى الأدبية.

ب- الأحداث

تنوّعت طرائق عرض الحدث عند حوحو، تنوعاً كبيراً، و إن كانت الطريقة التقليدية هي الغالبة في بناء الأحداث "و مرّد ذلك إلى تأثيره بأساليب القصّة التقليدية السائدة آنذاك في العالم العربي، و لعلّه كان يرى في الأساليب التقليدية روح أصالة شخصيته الأدبية." (2) على أنّ أحداث الثورة الجزائرية ألفت بظلالها على كتاباته، و كان لها الأثر الكبير في تفجير طاقاته. و قد رسم رضا حوحو الحدث الأوّل في سلسلة مقالاته القصصية، عند قراءته لرواية "حمار الحكيم" لتوفيق

¹ - عبد الملك مرتاض-مُفضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-مرجع سابق-ص181.

² - شريط أحمد شريط-تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة-مرجع سابق-ص70.

الحكيم، و عندما انتهى من مطالعته للرواية واستلقى في المقعد واستغرق في نومه رأى حمار الحكيم بعينه، و بدأ في حوارهِ:

"فقلت له: أنت حمار الحكيم؟ فقد عرفتك. فافتרכת شفتاه الغليظتان عن ابتسامة عريضة و قال:

-عرفتني هكذا بسهولة دون إشكال؟

قلت: نعم فإنّ معالملك لم تخف عليّ.⁽¹⁾

و قد تنوّعت الأحداث في سلسلة مقالاته وفق تنوّع الموضوعات التي تناولها، فهو يفسّر الحياة بطريقة عرضه لها، و يختار من زحمة الحوادث المحيطة به، موضوعات خاصّة يعنى بتصنيفها و عرضها، فغاياته من عمله هي تصوير الواقع و نقده⁽²⁾. فهو ينفذ من تلك الأحداث إلى رسم تضاريسه الفكرية و رأيه في المجتمع الجزائري، و بعض الأوضاع السيئة و العادات البالية. و يختلف الحدث عنده وفق اختلاف الموضوعات التي يطرقها، و لا شكّ أنّ مجموعته القصصية كانت تزخر بأحداث كثيرة عاشها الشعب الجزائري، و مثلت الحدث في مقالاته، مثل ذلك قضية زواج الجزائري بالأجنبية:

"... فإنّ الشائع في هذه الأيام هو زواج المثقفين بأجنبيات..."⁽³⁾

¹ - أحمد رضا حوحو- مع حمار الحكيم- مصدر سابق-ص12.

² - شريط أحمد شريط- تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة- مرجع سابق-ص71.

³ - البصائر - ع70- مارس 1949م-ص194.

و قد يكون الحدث دينيا حين يشير حوحو إلى "تعدّد الديانات في الجزائر" في إشارة واضحة إلى انتشار أفكار الطرفين و تفشّي أضاليلهم في أوساط المجتمع حتّى غدت تمثّل ديننا لم تعهده الجزائر من قبل:

"..دين الحكومة أم دين الشعب، الدّين الرسمي أم الدّين الحرّ، دين العاصمي أم دين الإبراهيمي؟"⁽¹⁾

و قد يكون الحدث سياسيا حين يتحدّث الحمار الفيلسوف عن الاستعمار و ما يجرّه من ويلات على الدول المستعمرة:

"أتنكر أنّ للاستعمار الغربي أعمالا فظيعة في البلاد و الشعوب المستعمرة؟"⁽²⁾

أو حين يشير إلى الانتخابات و ما تحدّثه من صخب:

"أو ليس لهم عمل غير جعجعة الانتخابات، فسياستهم إذن سياسة انتخاب و حسب."⁽³⁾

على أنّ الأحداث التي توالّت في سلسلة مقالاته كانت عارضة، فلا وجود لمكوّنات الحدث القصصي فيها (من بداية و عقدة ثمّ نهاية)، و لا غرابة في ذلك ما دامت معالم القصة الفنيّة لم ترتسم بعد في الأدب الجزائري، و كانت الطريقة التقليديّة في

¹ -البصائر- ع64- جانفي 1949م-ص151.

² -رضا حوحو- مع حمار الحكيم- مصدر سابق-ص39.

³ -المصدر نفسه-ص72.

بناء الأحداث هي السمة الغالبة على كتاباته.⁽¹⁾

ج- الحوار

لجأ الكاتب إلى الحوار لبت أفكاره وآرائه حول مختلف القضايا التي كانت تعيشها الجزائر وقتئذ. وقد اتخذ من الحمار صديقاً له، يحاوره و يتبادل معه الآراء حول شؤون الحياة. وكانا يتناولان في كلّ مجلس موضوعاً رئيسياً تتخلله مواضيع ثانوية. و طريقة الحوار هذه -التي تجعل من المقالات حديثاً مباشراً- تذكّرنا بفنّ المقامات، فالبطلان هما في كلّ جلسة و في كلّ حديث.⁽²⁾ و اعتماد الكاتب على عنصر الحوار جعل السرد يقلّ في مقالاته، ذلك لأنّ همّه هو أن يطرق المشاكل مباشرة و يعبر عنها مباشرة" و السبب في الواقع يعود إلى أنّ الحوار هو الهدف من المقال القصصي، فهو يجري بين الكاتب وشخص آخر. و التزام هذه الطريقة في الحوار بين شخصين، و عدم التنوع بين المتحاورين إلّا ناذراً هو الذي ألغى-أو كاد يلغي- عنصر السرد في المقال القصصي.⁽³⁾ فنحن لا نطالع مقدمات في مقالاته إلّا ناذراً، و حتّى إن وجدت فهي قصيرة، موجزة، و مقتضبة، على شاكله مقدمات "حمار الحكيم و الزواج" التي افتتح بها حوارها مع حمارة: "جاءني حمار الحكيم مبكراً هذا الصباح على خلاف عادته كلّ يوم، فتعجبت من ذلك، لأنني أعرفه دقيق

¹ - شريط أحمد شريط-تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة-مرجع سابق-ص73.

² -عبد الملك مرتاض-نخضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-مرجع سابق-ص158.

³ -عبد الله ركيبي-القصة الجزائرية القصيرة-مرجع سابق-ص69.

المحافظة على النظام و المواقيت، و هو لا يتخلف دقيقة واحدة عن الوقت المحدد و لا يتقدم عنه. فأوجست خيفة من هذا التكبير و عرفت أن في الأمر جديدا عن أعمالنا المعتادة. و ما كاد يجلس حتى ابتدرته...⁽¹⁾

و كان حوحو يرى في الحوار وسيلة من وسائل التشويق و زرع حبّ المطالعة لدى القارئ "... و هذا اللون من الكتابة يستعذبه القارئ و يستخفّ مطالعته و يستسهل هضمه."² و الحوار لم يكن غرضه التعبير عن تفكير الشخصية الإنسانية و إنما كان الغرض منه النقاش حول موضوعات و حول أفكار يريد الكاتب أن يعبر عنها بطريقة سهلة مشوّقة للقارئ.

و حوارهم يمتاز بالسرعة و الخفة، فالجمل التي يجريها على لسان أحد المتكلمين قصيرة الفواصل، قليلة الكلمات مثل ذلك ما حدثه به حمارة حين أتى ليستشيريه في قضية زواجه:

"قال: جئت أستشيرك في أمر مهمّ.

قلت: هل هو عمل جديد؟

قال: لا لم أعثر حتى الآن على عمل يشرفني.

قلت: إذن ماذا؟

¹ - البصائر - ع70 - مارس 1949م.

² - البصائر - ع232 - جوان 1953م.

قال: ما رأيك في الزواج؟"⁽¹⁾

على أن ثمة عناصر أخرى أساسية قد لا نجد لها ملامح واضحة في مقالات حوحو من ذلك عنصرا المكان و الزمان (و هما عنصران حيويان في القصة). ففي حوارات الحكيم مع صديقه لم تُلفِ هذا العنصر واضحا " جاءني حمار الحكيم مبكراً هذا الصباح على خلاف عادته كلَّ يوم. " فالأيام كلّها تبدأ بصباح و تنتهي بمساء، و هو لم يخصَّص يوماً بعينه و لم يذكر صراحة ما يرشدنا إلى تاريخ ذلك اللقاء. غاية ما في الأمر أنه أكّد لنا تلك اللقاءات اليومية التي كانت تحدث بينهما. لكننا و على الرغم من انعدام أيّة إشارات تاريخية لتلك الحوارات، نستطيع أن نحصر زمن أحداثها و نوّكّد أنه الفترة التي سبقت ثورة التحرير المظفّرة. فقد نجح الكاتب في رسم ملامح تلك الفترة بأحداثها المأساوية، و بدأ متأثراً بها و متفاعلاً معها. ما ساعدنا على تحديد الفترة الزمنية التي وقعت فيها أحداث مقالاته القصصية. فهل لا بدّ لمن أراد أن يحدّد زمن وقوع أحداث مجموعته القصصية "من أن يلمّ بتاريخ حياة حوحو نفسها من أولها إلى آخرها... " مثلما يؤكّد الدكتور عبد الملك مرتاض.⁽²⁾ و ما يقال عن عنصر الزمان، يقال عن عنصر المكان، إذ نلاحظ غموض المكان في مقالاته، فهو لم يحدّد الأمكنة التي كان يلتقي فيها مع حماره، و لكننا ندرك أن وقائع قصصه كانت تحدث في الجزائر.

¹ -البصائر- ع70-مارس 1949م.

² -عبد الملك مرتاض-نمضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر-مرجع سابق-ص178.

و الحقيقة أنّ الدارس لآثار حوحو "يدرك أنّ بين ثناياها موهبة أدبية لا تخلو من إبداع و تجديد، و تتميز برؤية فنية متطورة إذا ما قيست بالوضع الثقافي حينذاك، ما جعله رائد القصّة في الجزائر، و باعثها إلى الوجود، و الداعي إليها في كلّ مناسبة." (1) فقد وفّق إلى حدّ كبير في تصوير حياة المجتمع بمختلف قضاياها الهامة في عصره، و استطاع أن يكشف عيوبها و مساوئها و ينقدها بأسلوب ساخر و جرأة قويّة. (2) فمجموعة مقالاته قد أسهمت في توعية الجماهير لأنّها مكّنت القراء أن يطلّعوا على مشاكل بلادهم، و أن يهضموا الأفكار التي كانت تناقش آنذاك، و فتحت لهم أعينهم على الواقع المرّ، و على التخلّف الاجتماعي و الثقافي الذي سبّب الاستعمار. (3)

و لعلنا نجد فيما كتبه حوحو نفسه في ردّه على من استنكر عليه كتاباته، و استغرب طريقته لمعالجة قضايا أمته ما يؤكّد أنّه كان بالفعل رائد القصّة الفنيّة الجزائرية من ناحية، و يثبت دور الصحافة و لاسيما جريدة البصائر في انتشارها، يقول:

"ما كادت هذه الشخصية الفدّة تبدو في عالم الصحافة و الأدب، و تظهر في دنيا السياسة و المجتمع، حتّى تساءل بعض الناس في حيرة، و تساءل بعضهم في فضول،

¹ - البصائر - ع 66 - فبراير - 1949م.

² - محمد خان - الادب الإصلاحية في الجزائر "دراسة تحليلية لأدب حوحو" مجلّة العلوم الإنسانية - جامعة محمد خيضر بسكرة - ع 2 - ص 33.

³ - أنيسة بركات - أدب النضال في الجزائر - مرجع سابق - ص 173.

فمن قائل: أيّ شيء هذا اللون الجديد من الرأى و الفكر؟ و من قائل: متى كان للحمير آراء في شؤون بني الإنسان؟ و متى أصبح للحمير آراء في شؤون بني الإنسان؟ و متى أصبح للحمير أحكام عن البشر و أخلاق البشر؟ و لم أجد بدّا إزاء كلّ ذلك من أن أعرف بصاحبي، و أن أشرح أمره للقراء، و أن ألقى مسؤولية آرائه و أفكاره و أحكامه على عاتقه، يتحمّل وحده تبعه سخط السّاخطين، و يجني وحده إعجاب المعجبين...»⁽¹⁾

فهو في ردّه على من انتقد مجموعته القصصية أو أبدى إعجابا بها، يقرّر حقائق عديدة، لعلّ أهمّها:

– أن تلك السّلسلة جمعت بين الصحافة و الأدب، و في ذلك تأكيد على أنّ المقال القصصي عرف طريقه نحو الوجود على صفحات الجرائد، و تبقى البصائر أهمّها و أبرزها لما كان لها من فضل في احتواء تلك المقالات و نشرها.

– أنّها تناولت موضوعات مختلفة: سياسية، و اجتماعية، و دينية، و أدبية...
 – أنّها تمثّل نوعا أدبيا جديدا لم تعهده الساحة الأدبية في الجزائر من قبل.
 و هذا أيضا يحسب للبصائر التي كانت رائدة في نشر هذا النوع الأدبي الذي يعدّ البداية الحقيقية للقصة الفنّية الجزائرية.

¹ -البصائر - ع69- فبراير-1949م.

على أن البصائر لم تكن رائدة في ظهور هذا النوع الأدبي فحسب، بل كانت صاحبة الفضل في بعث النهضة الأدبية الجزائرية، لاسيما وقد ناضل أصحابها في سبيل النهضة الوطنية على مختلف المناحي و المستويات متّخذين من القلم رمزا و سلاحا ضد حيف الاستعمار و تضليل الطرقيين الذين ألقوا بعقول الشعب في غيابات الدّجل و السلبية، جاعلين من اللغة العربية غاية و وسيلة لضحد أتباع الاستعمار المتفرنسين الذين رأوا في هذه اللغة سببا من أسباب التخلف و التقهقر الحضاري. ما يؤكّد أنّ الجريدة قامت بالدور الأساس في نهضة الشعب الجزائري و تنوير ضمير الأمة و بعثه من سبات قرون رزح إبّانها تحت طائلة التجهيل و التّعقيم الدّيني و الثقافي و الحضاري. كما يؤكّد أنّ الأدب الإصلاحي لم يكن أدب ظروف و مناسبات، و إنّما هو أدب عميق الرؤية واسع الفضاءات، يبحث في جوهر الإنسان ، مستمداً توجهاته من لبّ العقيدة الصحيحة و هدي السلف، فكان بذلك أدبا أصيلا يغترف من النبع الإسلامي و يعبر عن واقع حال الأمة بغية إصلاحه.

تلك كانت رسالة هذا الأدب و غايته، الوقوف على مكانم الخلل و الزلل و رسم معالم الطريق التي لا يضلّ سالكها و لا يهلك مرتادها ، طريق العودة إلى الأصول و التشبّث بالهوية لبناء الشّخصية الجزائرية الحقّة.

خالد بن الوليد

بعد هذه الدراسة التي مكنتنا من الجولة في عالم الأدب الإصلاحي، توصلنا إلى

النتائج التالية:

– **أولاً:** الإصلاح و إن كانت له جذور ضاربة في أعماق التاريخ، وجد في

الحركة الإصلاحية المناخ الذي يغذيه ويعينه على الانتشار في

الأوساط الاجتماعية سيما بعد ظهور جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين التي مكنت للمنهج الإصلاحي حضوره عبر مختلف

أقطار البلاد.

– **ثانياً:** أعلام الإصلاح اتخذوا من الكلمة سلاحاً يجاهدون به العدو

و يواجهونه، كما استعملوها وسيلة يحضون بها الشعب عامّة و الشباب

خاصّة على الأخذ بأسباب النهضة مرتكزين في ذلك على المنهج

الإصلاحي، فهو وحده كفيل بتخليص الأمة من الاستعمار و من

مخلفات و هو خير معين يعين المصلح على بعث القيم الأخلاقية التي

تصنع الشخصية العربية الإسلامية و تحقق التغيير و تبني الثورة.

– **ثالثاً:** الحركة الإصلاحية كانت تدعو إلى إحياء التراث العربي

و تنادي بالمحافظة على مقومات الأمة من لغة و دين و عروبة

و وحدة و تاريخ و تمسك بأمجاد العروبة و الإسلام، على أن هذه

الدعوة لا تعني الركون إلى الماضي بل الإفادة منه و استلهام العبر من معاني تراثه السامية .

– **رابعا:** الحركة الإصلاحية ظلت تدعو إلى تصحيح العقيدة و تبرز محاسنها و تحثّ على الاعتصام بها انطلاقا من إيمانها أنّها السبيل الوحيد لخلاص الأمة من المكائد التي تحاك ضدها و ضد قيمها و مقومات شخصيتها، ما يؤكد أنّ الحركة كانت تربط دوما بين قضايا الفكر و الثقافة و الأدب و بين الدين الإسلامي في مضمون الانتماء الحضاري.

– **خامسا:** معالم النهضة الأدبية في الجزائر بدأت ترسم في أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين مع ثلثة من الكتّاب و الشعراء المحافظين، لتعرف طفرة نوعية في أعقاب الحرب العالمية الأولى بفضل الصحافة و انتشار التعليم و إحياء التراث.

– **سادسا:** رواد الإصلاح أفادوا من مصادر التراث العربي و كنوزه من جهة، و عرفوا من روافد النهضة الفكرية و الأدبية الحديثة من جهة ثانية.

– **سابعا:** النهضة الأدبية الجزائرية كانت على صفحات الجرائد الوطنية لاسيما الإصلاحية منها.

– **ثامنا:** النهضة الأدبية كانت تواكب المسيرة الإصلاحية التي تبناها رجال

الإصلاح، فكانت نهضة شاملة مسّت كافة المجالات :

* الإصلاح الديني و التعليمي لترقية الشّعب من وهن الجهل و السقوط

الأخلاقي إلى أوج العلم و مكارم الأخلاق، و إصلاح عقيدته و تنقيتها

من الخرافات و البدع.

* الإصلاح الاجتماعي بمحاربة الجهل و تثقيف العقول عن طريق التربية

و التعليم، و محاولة القضاء على الفقر المطبق و الآفات الاجتماعية

المستشرية في المجتمع الجزائري.

* الإصلاح الفكري و السياسي عن طريق المحافظة على الشخصية العربية

الإسلامية للشعب الجزائري بمقاومة سياسة التنصير و الإدماج و الفرنسية

و الدّفاع عن مقوّمات الأمّة مع التركيز على اللغة العربية كونها هي

وعاء الإسلام و حافظة قرآنه و تراثه و أساس وطني.

* الإصلاح الأدبي بتخليص الأدب من الجمود و الركافة المعهودين

و استبدالهما بالأسلوب الرّاقى الأنيق البعيد عن الإسفاف و الاضطراب

و السّطحية.

– **تاسعا:** التّزاع الفكري القائم بين روّاد الإصلاح و رجال الطرق الصوفية

كان له أثر إيجابي على الحركة الأدبية.

– **عاشرا:** لقد شقّ الأدب الجزائري طريقه نحو النهضة الحقيقية مع ظهور

السلسلة الثانية من جريدة البصائر، و بدأ التفاعل الفني على أيدي

مصلحين مجددين، مما ساعد على ازدهار العمليّة الأدبية و ظهور

فنون جديدة كالمقال و الخاطرة و القصّة و المسرح...

– **أحد عشر:** البصائر و إن ترأس تحريرها روّاد المدرسة المحافظة، كان لها

فضل كبير في نشأة مدرسة التجديد، فقد شجّعت الأدباء

الناشئين على ولوج عالم الكتابة وفق شروط فنيّة مهّدت لتطوّر

الأدب الجزائري و رقيّه.

– **اثنا عشر:** البصائر لم تكن تقبل من الأعمال إلاّ جيّدها، ما أدّى إلى بعث

الأدب و تخلّصه من الركاكة و الجمود.

– **ثلاثة عشر:** احتضنت البصائر المقال القصصي الذي يعدّ إرھاصا لظهور

القصّة القصيرة في الجزائر و فتحت الأفق أمام أجيال متلاحقة

من الأدباء و الكتاب هم في الأصل تلامذة جمعية العلماء من

مدارسها أو من القراء الدائمين لمشعل جريدة البصائر.

قائمة المصادر

و المراجع

● القرآن الكريم: رواية ورش عن نافع.

الكتب:

1- آل خليفة، محمد العيد: الديوان-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-ط2-1992م.

2- الإبراهيمي، أحمد طالب: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي-بيروت-دار الغرب.

3- الإبراهيمي، محمد البشير: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي -الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-ط1-ج.3،2،1

4- الإبراهيمي، محمد البشير: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين-قسنطينة-1935م.

5- الإبراهيمي، محمد البشير: عيون البصائر-الجزائر-دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع-2007م.

6- الأزهرى، أبو منصور: تهذيب اللغة-تحقيق محمد عوض مرعب-بيروت-دار إحياء التراث العربي-2001م.

7- باهي، عثمان-الفكر الإصلاحي و السياسي-أشغال الملتقى الوطني الثالث للفكر الإصلاحي في الجزائر-2006م

8- البستاني، بطرس: قاموس محيط المحيط-مكتبة لبنان.

- 9- البشير، بلاح: موجز تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر 1830.1889م-
الجزائر-دار المعرفة-1999م.
- 10- ابن باديس، عبد الحميد: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير-تحقيق أحمد
شمس الدين-لبنان-دار الكتب العلمية-2003م.
- 11- ابن رمضان، محمد و بن حمدان، الغوثي: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر-
الجزائر- مطبعة داود بريكسي-ط1-2001.
- 12- ابن سمينة، محمد: أسس مشروع النهضة عند الإمام ابن باديس-الجزائر-
منشورات المجلس الإسلامي الأعلى-ج2-2007م.
- 13- ابن سمينة، محمد: شخصيات لها تاريخ. محمد العيد آل خليفة-الجزائر-
المؤسسة الوطنية للكتاب-1989م.
- 14- ابن سمينة، محمد: في الأدب الجزائري الحديث. النهضة الأدبية الحديثة في
الجزائر مؤثراتها. بدايتها. مراحلها-الجزائر-مطبعة الكاهنة-2003م.
- 15- ابن سمينة، محمد: محمد العيد. شعره الإسلامي-الجزائر-معهد اللغة و الأدب
العربي-جامعة الجزائر.
- 16- ابن عبد ربّه، محمد: العقد الفريد-تحقيق مفيد محمد قميحة-لبنان-دار
الكتب العلمية-ج.2

- 17- ابن عدّة، عبد المجيد: مظاهر الإصلاح الدّيني و الاجتماعي-رسالة ماجستير-جامعة الجزائر-1993م.
- 18- ابن قيّنة، عمر: أعمال و أفكار و الثقافة و الأدب-دمشق- منشورات اتحاد الكتّاب العرب-2000م.
- 19- ابن قيّنة، عمر: دراسات في القصّة الجزائرية(القصيرة و الطويلة)-الجزائر- دار الأمانة للنشر و الطباعة-2009م.
- 20- ابن قيّنة، عمر: صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث (أعلام و قضايا و مواقف)-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-1993م.
- 21- ابن قيّنة، عمر: في الأدب الجزائري الحديث تاريخا و أنواعا و قضايا و أعلاما-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-1995م.
- 22- ابن نبي، مالك: شروط النهضة-بيروت-دار الفكر.
- 23- بوحجام، محمّد ناصر: أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث(1925.1976)-الجزائر-المطبعة العربية-1992م.
- 24- بوحوش، عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962م-بيروت-دار الغرب الإسلامي-1997م.
- 25- بوزوينة، عبد الحميد: بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-1988م.

- 26- بوعزيز، يحيى: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين-قسنطينة- دارالبعث للطباعة و النشر1980م.
- 27- بومنجل، عبد الملك: النثر الفنّي عند البشير الإبراهيمي- الجزائر- بيت الحكمة للنشر و التوزيع-ط1-2009.
- 28- الجندي، أنور: الفكر العربي المعاصر في معركة التّغريب و التّبعية الثقافية- مصر- مطبعة الرسالة.
- 29- الجندي، أنور: تاريخ الصّحافة الإسلامية-مصر- دار عطوة للطباعة- 1980م-ج.1
- 30 - الجيلالي، عبد الرحمن بن محمّد: تاريخ الجزائر العام-الجزائر-ديوان المطبوعات الجزائرية-ط7-ج4-1994م.
- 31- جوان، جيلبسي: ثورة الجزائر-ترجمة عبد الرحمن صدقي و راشد البراوي- مصر- الدار المصرية للتأليف و الترجمة.
- 32- الجوهرري أبو نصر: تاج اللّغة و صحاح العربية-تحقيق أحمد عبد الغفور عطار-بيروت- دار العلم للملايين-1990م.
- 33- حافظ، عثمان: تطوّر الصحافة الإسلامية في المملكة العربية السعودية- جدّة- شركة المدينة للطباعة و النّشر-1981م.

- 34- حسين، محمد محمد: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-بيروت-مؤسسة الرسالة-ط8-ج1و2-1986م
- 35- حلوش، عبد القادر: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر.1914.1870-الجزائر-شركة الأمة للطباعة و النشر-1999م.
- 36- حمدي، أحمد: الثورة الجزائرية و الإعلام. دراسة في الإعلام الثوري-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-1990م.
- 37- حمزة، عبد اللطيف: الإعلام في صدر الإسلام-القاهرة-دار الفكر العربي-1978م.
- 38- حمزة، عبد اللطيف: قصة الصحافة العربية في مصر منذ نشأتها إلى منتصف القرن العشرين-القاهرة-دار الفكر العربي-1985م.
- 39- حمزة، عبد اللطيف: كتاب ندوة المحاضرات-رابطة العالم الإسلامي-1973 م.
- 40- حميداتو، مصطفى محمد-عبد الحميد بن باديس و جهوده التربوية-سلسلة كتاب الأمة.
- 41- حمود، رمضان: بذور الحياة-الجزائر-ج1-1928م.
- 42- حوحو، أحمد رضا: صاحبة الوحي و قصص أخرى(مجموعة قصصية)-قسنطينة-المطبعة الجزائرية الإسلامية-ط1-1954م.

- 43- حوحو، أحمد رضا: مع حمار الحكيم-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-1982م.
- 44- خرفي، صالح: الشعر الجزائري الحديث-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1984م.
- 45- خرفي، صالح: شعر المقاومة الجزائرية-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
- 46- خرفي، صالح: صفحات من الجزائر. دراسات و مقالات من 1962-1972-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
- 47- خرفي، صالح: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-1983م.
- 48- الخطيب، أحمد: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1985م.
- 49- خير الدين، محمد-مذكرات-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-ج2.
- 50- درار، أنيسة بركات: أدب النضال في الجزائر(من سنة 1945 حتى الاستقلال)-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1984م.
- 51- الدراجي، محمد-الحركة الإصلاحية. رجال و أفكار-الجزائر-دار قرطبة للنشر و التوزيع.

- 52- الدسوقي، عمر: في الأدب الحديث-القاهرة-دار الفكر-ج2-ط8-1973م.
- 53- دي طراز، فيليب: تاريخ الصحافة-بيروت-المطبعة الأدبية-1913م.
- 54- رضا، أحمد: متن اللغة-بيروت-دار مكتبة الحياة - مجلد 3- 1959م.
- 55- ركيبي، عبد الله: تطوّر النثر الجزائري-ليبيا. تونس-الدار العربية للكتاب-1974م.
- 56- ركيبي، عبد الله: الشعر الديني الجزائري الحديث-الجزائر- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-ط1-1981م.
- 57- ركيبي، عبد الله: القصّة الجزائرية القصيرة-الجزائر-دار الكتاب العربي للطباعة والنشر و التوزيع-2009م.
- 58- ركيبي، عبد الله: قضايا عربية في الشعر العربي المعاصر-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1986م.
- 59- رمضان، محمد الصالح: الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس(من آرائه و مواقفه)-الجزائر-دار البعث-1983م.
- 60- الزاهري، محمد السعيد: الإسلام في حاجة إلى دعاية و تبشير-دمشق-مكتبة الاعتدال-ط2-1933م.

- 61- الزبيري، محمد العربي: الثورة في عامها الأول-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-1986.
- 62- زكرياء، مفدي: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر-جمع و تحقيق أحمد حمدي-الجزائر-مؤسسة مفدي زكرياء-2003م.
- 63- سعدالله، أبو القاسم: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر-بيروت-دار الغرب الإسلامي-1998م.
- 64- سعد الله، أبو القاسم: تجارب في الأدب و الرحلة -الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب-1983م.
- 65- سعد الله، أبو القاسم: دراسات في الأدب الجزائري الحديث-الدار التونسية للنشر. المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-1985م.
- 66- سعد الله، أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية-بيروت-دار الغرب الإسلامي.
- 67- سعد الله، أبو القاسم: شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة-الدار العربية للكتاب. المؤسسة الوطنية للكتاب-ط3-1984م.
- 68- سعيدوني، ناصر الدين: الجزائر. منطلقات و آفاق-بيروت-دار الغرب الإسلامي-2000م.

- 69- سلمان، نور: الأدب الجزائري في رحاب الرّفص و التّحرير-بيروت-دار العلم للملايين-ط1-1981م.
- 70- سيف الإسلام، الزبير: تاريخ الصحافة في الجزائر-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-ط2-1985م.
- 71- شرف، عبد العزيز: أدب المقالة من المعاصرة إلى الأصالة. دراسة و نماذج-بيروت-دار الجيل-2000م.
- 72- شريط، أحمد شريط: تطوّر البنية الفنيّة في القصّة الجزائرية المعاصرة(1947-1985)-منشورات اتحاد الكتّاب العرب-1988م.
- 73- الشريف، عبّاس محمّد: تاريخ الثورة الجزائرية 1830.1922-المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية لثورة 1 نوفمبر- (عن القرص المضغوط).
- 74- شعباني، الوّاس: تطوّر الشعر الجزائري منذ 1945 حتّى سنة 1980-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية.
- 75- شيبان، عبد الرحمن: حقائق و أباطيل-الجزائر-مطبعة ثالة-ط2-2009م.
- 76- صاري، أحمد: شخصيات و قضايا من تاريخ الجزائر المعاصر-المطبعة العربية-غرداية-الجزائر.-2004

- 77- طالب، أحمد: الالتزام في القصّة القصيرة الجزائرية المعاصرة (في الفترة ما بين 1931-1976)-الجزائر-الديوان الوطني للمطبوعات الجزائرية-1989م.
- 78- طبانة، بدوي: قضايا النقد الأدبي-الرياض-دار المريخ للنشر-ط1-1984م.
- 79- طمار، محمد: تاريخ الأدب الجزائري-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-1981م.
- 80- العاني، فؤاد توفيق: الصحافة الإسلامية و دورها في الدعوة-الرياض-مؤسسة الرسالة-1993م.
- 81- عباس، محمد: البشير الإبراهيمي أديبا-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-المطبعة الجهوية بوهران-1984م.
- 82- عبد العزيز، محمد حسن: لغة الصحافة المعاصرة-القاهرة-دار المعارف-1978م.
- 83- عزوز، أحمد: المقالة الأدبية في الجزائر 1945.1953 مميزات خطابها الإقناعي-الجزائر-الشبكة العنكبوتية.
- 83- العقون، عبد الرحمن بن إبراهيم: الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر 1920.1936-الجزائر-المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع-1984م.

- 84- الفاخوري، حنا: تاريخ الأدب في المغرب العربي-بيروت-دار الجيل-1996م.
- 85- محمد، سيد محمد: الصحافة بين التاريخ و الأدب-القاهرة-دار الفكر العربي-ط1-1985م.
- 86- المدني، أحمد توفيق: حياة كفاح-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-1977م.
- 87- مرتاض، عبد الملك: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962) رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري-الجزائر-منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر1954-2003.
- 88 - مرتاض، عبد الملك: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962) رصد لصور المقاومة في النثر الفني-الجزائر- منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر1954-2003.
- 89- مرتاض، عبد الملك : فنون النثر الأدبي في الجزائر 1945.1931-الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية-1983م.
- 90 - مرتاض، عبد الملك: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925.1954-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التوزيع-ط2-1985م.

- 91- مروة، أديب: الصحافة العربية نشأتها و تطوّرها-بيروت-منشورات دار مكتبة الحياة-ط1-1961م.
- 92- مصايف، محمّد: فصول في النقد الأدبي الجزائري-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التّوزيع-ط2-1981م.
- 93- مصايف، محمّد: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي-الجزائر-المؤسسة الوطنية للكتاب-ط2-1984م.
- 94- المطبقاني، مازن صلاح حامد: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1939.1931-الجزائر-مؤسسة عالم الأفكار للطباعة و النّشر و التّوزيع-2011م.
- 95- المقدسي، أنيس: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث-بيروت-دار العلم للملايين-ط7-1982م.
- 96- المقدسي، أنيس: الفنون الأدبية و أعلامها في النهضة العربية الحديثة-بيروت-دار العلم للملايين-ط5-1990م.
- 97- منور، أحمد: قراءات في القصّة الجزائرية-الجزائر-الشركة الوطنية للنشر و التّوزيع-ط&-1981م.
- 98- ناصر، محمّد: الصحف الجزائرية من 1947 إلى 1954-الجزائر-دار ألفا للنشر-ط2-2006م.

99- ناصر، محمد: المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها تطورها أعلامها من 1903 إلى 1931-وزارة الثقافة-2007م.

100- نجم، محمد يوسف: فنّ المقالة- بيروت-دار الثقافة-ط4-1966م.

101- واشف، محمد الشريف: أصول الحركة الإصلاحية في الجزائر

1914.1900-رسالة ماجستير-جامعة الجزائر-1982م.

102- الورتلاني، الفضيل: الجزائر الثائرة-الجزائر-دار الهدى-2004م.

103- وزارة الشؤون الدينية-آثار الإمام ابن باديس-الجزائر- من مطبوعات

وزارة الشؤون الدينية-1994م.

104- وزناجي، مراد: حديث صريح مع أ.د.أبو القاسم سعد الله في الفكر

و الثقافة و اللغة و التاريخ-الجزائر-منشورات الخبر-2008م.

105- الوشلي، عبد الله قاسم: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر

بوسائل المعاصرة-صنعاء-دار البشير للثقافة و العلوم الإسلامية-1994م.

106- يوسف، محمد: الجزائر في ظلّ المسيرة النضالية-تقديم و تعريب محمد

الشريف دالي حسين-منشورات تالة-2007م.

المجلات:

1- الثقافة-مجلة-العدد 76-1983م.

2- الثقافة-مجلة-العدد 86-1985م.

- 3- الثقافة-مجلة-العدد87-1985م.
- 4- الثقافة و الثورة-مجلة-العدد 11-1984م.
- 5- حضارة الإسلام-العدد1-1964م.
- 6- العلوم الإنسانية-جامعة محمد خيضر-بسكرة-ع2-2002م.
- 7- المصادر-مجلة-العدد 7-1423هـ
- 8- المعرفة-مجلة-العدد 3-1964م

الجرائد:

- 1- البصائر-جريدة-س1-العدد1-1935م.
- 2- البصائر-جريدة-س1-العدد3-1936م.
- 3- البصائر-جريدة-س1-العدد28-1936م
- 4- البصائر-جريدة-س1-العدد4-1936م.
- 5- البصائر-جريدة-س1-العدد61-1937م.
- 7- البصائر-جريدةس2-العدد79-1937م.
- 8- البصائر-جريدة-س2-العدد 14-1938م.
- 9- البصائر-جريدة-س2-العدد 95-1938م.
- 10- البصائر-جريدة-س2-العدد165-1939م.
- 11- البصائر-جريدة-س2-العدد171-1939م.

- 12- البصائر- جريدة-س2-العدد1-1947م.
- 13- البصائر- جريدة-س2-العدد2-1947م.
- 14- البصائر- جريدة-س2-العدد4-1947م.
- 15- البصائر- جريدة-س2-العدد5-1947م.
- 16- البصائر- جريدة-س2-العدد6-1947م.
- 17- البصائر- جريدة-س2-العدد11-1947م.
- 18- البصائر- جريدة-س2-العدد12-1947م.
- 18- البصائر- جريدة-س2-العدد22-1948م.
- 19- البصائر- جريدة-س2-العدد35-1948م.
- 20- البصائر- جريدة-س2-العدد41-1948م.
- 21- البصائر- جريدة-س2-العدد44-1948م.
- 22- البصائر- جريدة-س2-العدد54-1948م.
- 23- البصائر- جريدة-س2-العدد61-1948م.
- 24- البصائر- جريدة-س2-العدد71-1948م.
- 25- البصائر- جريدة-س2-العدد11-1949م.
- 26- البصائر- جريدة-س2-العدد68-1949م.
- 27- البصائر- جريدة-س2-العدد68-1949م.

- 28- البصائر- جريدة-س2-العدد89-1949م.
- 29- البصائر- جريدة-س2-العدد90-1949م.
- 30- البصائر- جريدة-س2-العدد94-1949م.
- 31- البصائر- جريدة-س2-العدد111-1950م.
- 32- البصائر- جريدة-س2-العدد121-1950م.
- 33- البصائر- جريدة-س2-العدد140-1951م.
- 34- البصائر- جريدة-س2-العدد148-1951م.
- 35- البصائر- جريدة-س2-العدد150-1951م.
- 36- البصائر- جريدة-س2-العدد174-1951م.
- 37- البصائر- جريدة-س2-العدد173-1952م.
- 38- البصائر- جريدة-س2-العدد204-1952م.
- 39- البصائر- جريدة-س2-العدد208-1952م.
- 40- البصائر- جريدة-س2-العدد249-1953م.
- 41- البصائر- جريدة-س2-العدد355-1956م.
- 42- البصائر- جريدة-س3-العدد147-2003م.
- 43- البصائر- جريدة-س3-العدد474-2009م.
- 44- السنّة- جريدة-2-3.

- 45- الشهاب-جريدة-العدد1-1925م.
- 46- الشهاب-جريدة-العدد4-1925م.
- 47- الشهاب-جريدة-العدد6-1925م.
- 48- الشهاب-جريدة-العدد12-1925م.
- 49- الشهاب-جريدة-العدد24-1925م.
- 50- الشهاب-جريدة-العدد49-1925م.
- 51- الشهاب-جريدة-ج8-م12-1935م.
- 52- الشهاب-جريدة-ج1-م12-1936م.
- 53- الشهاب-جريدة-ج4-م12-1936م.
- 54- الشهاب-جريدة-ج12-م12-1937م.
- 55- الشهاب-جريدة-ج2-م8.
- 56- الشهاب-جريدة-ج2-م3.
- 57- الصراط-جريدة-15-4.
- 58- الصراط-جريدة-س1-العدد11-1933م.

فهرس

الموضوعات

أ.....	مقدمة:
01.....	مدخل: تاريخ الصحافة العربية
24.....	الفصل الأول: الحركة الإصلاحية في الجزائر
31.....	I. الحركة الإصلاحية الجزائرية قبل تأسيس جمعية العلماء
31.....	I. 1. نشأة الحركة الإصلاحية
35.....	I. 2. رواد الحركة الإصلاحية
38.....	I. 3. أهداف الحركة الإصلاحية ووسائلها
41.....	أ- النوادي والجمعيات
48.....	ب - المدارس والمعاهد
52.....	ج- الصحافة الوطنية
58.....	II. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
61.....	II. 1. تأسيس الجمعية
62.....	II. 2. روادها
64.....	II. 3. أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و مبادئها
81.....	الفصل الثاني: الأبعاد الموضوعية لأدب الصحافة الإصلاحية
82.....	I. الإصلاح الديني:

98	II . الإصلاح الفكري:
114	III . الإصلاح السياسي:
119	III.1. التجنيس:
124	III.2. الاندماج:
129	III.3. الجمعية و الثورة:
137	الفصل الثالث: نماذج أدبية
141	I . المقال عند الإبراهيمي:
142	I.1. الإبراهيمي و الإصلاح الاجتماعي:
148	I.2. الإبراهيمي و الإصلاح السياسي:
156	I.3. اللّغة - العروبة - و الإسلام:
167	II . الشّعر الإصلاحي
169	II.1. محمّد العيد و الشّعر السياسي:
176	II.2. محمّد العيد و الشّعر الاجتماعي:
187	II.3. اللّغة، العروبة و الإسلام في شعر محمّد العيد:
199	III . القصة القصيرة الجزائرية
199	III.1. الإرهاصات الأولى لنشأة القصة القصيرة
200	III.2. رضا حوحو رائد القصة القصيرة الجزائرية

203	أ- رضا حوحو و القضايا الاجتماعية.....
208	ب- رضا حوحو و القضايا الدينية.....
210	ج- رضا حوحو و القضايا السياسية.....
212	الفصل الرابع: الخصائص الفنية لأدب الصحافة الإصلاحية
219	I. الخصائص الفنية للمقالة الأدبية:
222	1.I. الالتزام في مقالات إبراهيمي:.....
228	2.I. الاقتباس عند إبراهيمي:.....
233	3.I. أسلوب إبراهيمي:.....
242	II. الخصائص الفنية لشعر محمد العيد:
243	1.II. الالتزام في شعر محمد العيد:.....
246	2.II. أثر القرآن في شعر محمد العيد:.....
250	3.II. اللغة الشعرية عند محمد العيد :.....
254	III. الخصائص الفنية لأدب رضا حوحو:
261	1.III. أسلوب رضا حوحو.....
262	2.III. عناصر القصة القصيرة.....
262	أ- السخرية.....
263	ب- الأحداث.....

266ج- الحوار

272 خاتمة

277 قائمة المصادر و المراجع

295 فهرس الموضوعات

بدأت معالم النهضة الأدبية في الجزائر ترتسم في أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين مع ثلة من الكتّاب و الشّعراء المحافظين، لتعرف طفرة نوعية في أعقاب الحرب العالمية الأولى بفضل الصحافة و انتشار التّعليم و إحياء التّراث، ما حدا بأعلام الإصلاح إلى الإفادة من مصادر التّراث العربي و كنوزه من جهة، و الاعتراف من روافد النهضة الفكرية و الأدبية الحديثة من جهة ثانية. و مع ظهور السّلسلة الثانية من مجلّة البصائر شقّ الأدب الجزائري طريقه نحو النهضة الحقيقية، و بدأ التفاعل الفنّي على أيدي مصلحين مجدّدين، ما ساعد على ازدهار العمليّة الأدبية و ظهور فنون جديدة كالمقال و القصّة و المسرح...علما أنّ هذه النهضة الأدبية إنّما كانت تواكب المسيرة الإصلاحية التي تبنّاها رجالات الإصلاح، فكانت نهضة شاملة مسّت كافّة المجالات الدينية و السّياسية و الاجتماعية و الفكرية و الأدبية.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح- النهضة- البصائر- الصحافة- ازدهار الأدب الجزائري.

La renaissance littéraire algérienne a commencé à la fin du 19eme siècle début du 20eme, grâce aux écrivains et poètes conservateurs. Après la 1eme guerre mondiale, elle a connu un développement majeur à l'aide de la création de la presse, la propagation de l'éducation et la résurrection du patrimoine. Ce qui a permis aux écrivains innovateurs et réformateurs de tirer profit des ressources du patrimoine et des affluents de la renaissance moderne. De ce fait, et avec l'avènement de la 2eme série d'ELBASSAYER le processus littéraire à prospérer et des nouveaux genres ont paru.

MOTS CLES: Réforme- Renaissance- Bassayer- Presse- L'évolution de la littérature algérienne.

The Algerian literary renaissance began in the late 19th century early 20th century, thanks to the conservative writers and poets. After the First World War, it has experienced a major development with the aid of the press creation, the spread of education and the resurrection of the patrimony. This has allowed the innovating writers and reformers to take advantage of patrimony resources and the tributaries of the modern renaissance. By this fact and with the advent of the second series of ELBASSAYER, the literary process has prospered and new genres have appeared.

KEYWORDS: Reform- Renaissance- Bassayer- Press- The evolution of Algerian literature.